العروبة

تأملات قبل المغيب

د. مصطفى عبد الغنى



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

العروبة
تأملات قبل المغيب



٢ شارع امتداد رمسيس (١) ـ مدينة نصر ـ القاهرة

تليفاكس: ٢٤٠٢٤٦١٢ - ٢٤٠٥١٤٩٨

e.mail: af_madkour@yahoo.com

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١١ م/ صفر ١٤٣٢ هـ

رقم الإيداع: ٢٠٨٩٤

الترقيم الدولي: ١ - ٠١٣ - ٤٩٥ - ٩٧٧ - ٩٧٨



د. مصطفى عبد الغني

العروبة
تأملات قبل المغيب

دار العالم العربي

بيانات الفهرسة المكتبية

(إعداد: إدارة الشؤون الفنية بدار الكتب المصرية)

عبد الغني، مصطفى.

العروبة: تأملات قبل المغيب/

مصطفى عبد الغني . .

ط ١ . . القاهرة: دار العالم العربي، ٢٠١١.

٣٦٨ ص؛ ٢١ سم . . (أوراق السنين)

تدمك: ١ - ٠١٣ - ٤٩٥ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ . القومية العربية - مقالات ومحاضرات

أ. العنوان

ديوى ٣٢٠,٥٤٠٤



المحتويات

مقدمة

جاءتنى وأنا أتأهب للمشاركة فى مؤتمر بأنقرة، دعوة أخرى للمشاركة فى مؤتمر آخر..

الدعوة الأولى كانت بين إسطنبول وأنقرة، والدعوة الأخرى جاءت لتسجل واقعًا آخر بين وهران والقاهرة.

كانت القضية فى الحالتين البحث عن العروبة الضائعة، وفى ضوء واقع مغاير كانت تتحدد القناعات الأخيرة بين طرح واحد، هو البحث عن المستقبل.. مستقبل العروبة خارجها.. مستقبل العروبة بالمرور فوق الكثير من الأشواك والنيران والكوابيس المخيفة إلى الرهان الوحيد للبقاء.. مستقبل العروبة لتجاوزها لا إغفالها.. أقصد: كان الرهان الوحيد هو العبور من هذا المضارع المستمر إلى المستقبل.

لم يكن أمامى وأنا أراجع هذه السطور غير أن أشير ـ أو حتى أتمهل ـ عند الكثير من مظاهر الواقع المرير بين المصطلحات والأسماء التى عشنا فيها طويلاً من نهايات القرن العشرين إلى بدايات القرن الحادى والعشرين. كان لا بد من التمهل عند العشرات والمئات من الأسماء الدالة، من 'الجامعة العربية' إلى 'الفكرة العربية' إلى 'القومية العربية' إلى «المتنبي» الذى راح يلتفت بعنف فى الذاكرة إبان سقوط بغداد، وعلاقة الديمقراطية بالأمن

العربى قبل 11 من سبتمبر، وبعدها دراما مانهاتن، ومرورًا بالعديد من صور المقاومة التى لا تغيب أبدًا عن العقل العربى، ونحن نتمهل - فى أسى مرير - عند أحزان المثقف فى هذه المنطقة التى تتحدد بين قارتى آسيا وإفريقيا، وتسمى فى التاريخ المعاصر بالشرق الأوسط، فى حين أنها تعرف بالمنطقة العربية التى لاقت الأمرّيْن من الاستعمار الغربى والإمبريالى طيلة قرنين من الزمان قبل أن تؤرق الأبناء الواعين الملتاعين من الأمة العربية، خاصة عند 'أوراق السنين' لهذا المثقف العربي. وكان لا بد فى هذا الأتون من البحث عن الخلاص..

البحث عن الخلاص بعيدًا عن كل الرموز والآثار والآثام التى تَعَرَّفْنا عليها - وتعرفت علينا - فى هذه المنطقة.

كان لا بد فى تجاوز هذا كله من البحث عن بدائل مغايرة!

وعلى هذا النحو، عدت إلى أوراقى القديمة لأستعيدها، ثم عدت لأوراقى المعاصرة لأحاول الخروج منها ببعض الدروس والرموز للخروج من هذا الواقع الكئيب. وفى هذا المأزق الأزلى الأبدى، وجدت نفسى أحمل أوراقى إلى إسطنبول فى صيف عام 2009.

ولم تكن المصادفة فى طرح الواقع بدائل كثيرة عن القضية التى طرحت حول مستقبل الثقافة، فقد اتسع نسيج الفكر والمشاركة بين الجنوب والشمال فى تركيا ليشمل الدعوة إلى بحث الهوية فى عالم أصبحت العولمة ومتجلياتها السلبية أكثر ما يؤثر فى الفكر والواقع معًا..

والواقع أن المصادفة هنا جاءت لتؤكد البحث عن هذا المستقبل..

وهو ما اضطررت معه - كما أسلفت - للعَوْد إلى كثير من الرموز والكتابات والصيحات لأسجلها هنا قبل أن أعيد رؤية الحاضر، خروجًا

من الهم القومى إلى مستقبل الثقافة العربية عبر بحث جديد..

خروجا من آثار الحاضر والماضى الملتاع، إلى مستقبل مشرق مجيد عبر هذا الجهد..

وهو سَعْى جاء فى الأساس الأول من طبيعة المضارع المستمر الذى نعرفه جميعًا فى البحث عن المصير، ومن ثَم أصبحنا نتعامل مع البدهيات حين طُرحت أمامنا قضية الثقافة، ومستقبل الثقافة، والهوية، وطبيعة الصيرورة التى نعيش فيها جميعًا.. ومن الغريب أن هذا البحث عن مستقبل الثقافة جاء محمَّلاً بالواقع إلى حد بعيد!

وأذكر هنا أننى حين طرحت بين إسطنبول وأنقرة قضايا المرأة والثقافة فى عالمنا المعاصر، وما إلى ذلك من القضايا التى عرضنا لها فى كثير من اللقاءات والمؤتمرات، كان الطرح يعنى البحث عن الهوية (المصير) عبر تجليات هذا الواقع، لا الخروج منه فحسب.. فالغريب أن نسعى للبحث عن المستقبل فنسقط فى فخ القضايا الوهمية العربية التى أصبحنا ضحايا لها لأكثر من قرن ونصف القرن فى الثقافات الورقية والمتاهات الرقمية، عبورًا على القنوات الفضائية المتناثرة كالعشب الأسود القبيح فى الذاكرة العربية، خاصة أن القضايا الأزلية كانت تستعيد طرحها أصابع «سعد زغلول» التى تتجه إلى الغرب فى تمثاله بالإسكندرية، أو أصابع «كمال أتاتورك» التى تتجه إلى الغرب فى تمثاله بأنقرة، أو وجه «أبى الهول» وهو يتجه لأى وجهة لم يستطع علماء الآثار الوصول منها ـ عبر الهيروغليفية ـ إلى معنى الخلاص.. وهو ما أعاد تساؤلاتنا إلى تعريفاتها الأولية، وهو ما نتمهل فيه عند مشكلة هذه المحاولة هنا..

وهو ما يدفعنا إلى التأكيد ـ للقارئ الكريم هنا ـ على كل هذه الدلالات

والرموز التى وجد صاحب هذه السطور نفسه مشغولاً بها فى العقد الأخير قبل أن يصل إلى قناعات المستقبل، وهى قناعات لم تكن غائبة أبدًا، وإنما كانت غائمة خلف هول الحاضر وويلات الإخفاق فى العثور على رموز المستقبل ودلالاته.

وعلى هذا النحو، سوف نضع بين يدى القارئ كل هذه الصيحات عن الواقع العربى المأزوم قبل أن نصل معه إلى قناعاته الأخيرة ـ وهى قناعاته الأولى دون شك ـ للوصول إلى المستقبل، وهو وصول لا بد أن يمر ـ كما سنرى من المشهد الأخير ـ بتحديد الخيار الوحيد الذى يمر بالثقافة الإسلامية فى إطار الثقافة بوجه عام عبر الوسيلة العلمية للتعرف على تطورنا فى القرن الحادى والعشرين فى وسط هذا العالم الذى لا نستطيع الخروج منه بأى حال.

إنه الخروج إذن من أنفاق العروبة ورموزها القاتمة إلى هذا الخلاص الأخير.

ولتأكيد هذا الخلاص الأخير، سوف أدع القارئ الكريم مع وقائع عصر العولمة وتجليات الواقع المؤسى الحزين قبل القرن العشرين وبعده، قبل أن نصل إلى المشهد الوحيد ـ والأخير ـ فى نهاية هذا الكتاب لعديد من صور الثقافة الإسلامية أو الهوية الحضارية التى تمضى فى سياقها بين مصدرين أساسيين: الشرعية والمعرفية، وما يندرج تحت كل منهما من مصادر ووقائع وتجليات معروفة.

وأستأذن القارئ الكريم فى أن نمر معًا على كل هذه المواكب والميادين والفضاءات البعيدة والغايات الغائبة والخلاصات الموهومة قبل أن نصل معًا ـ أو لا نصل إذا شاء ـ إلى المرفإ فى الثقافة الورقية أو الرقمية، والتى تتحدد عند الأخير ـ وعبر تعريفات هذه الثقافة الإسلامية ـ المصادر الأولية

من قرآن وسُنَّة وتجليات الفقه والتاريخ للوصول إلى المعاصرة أو تطور الفكر الغربى من عصر النهضة.. وهو ما ينال من ثقافة المعاصرين، فضلاً عن التأثير الإيجابي.. وهو ما وجدت نفسى أتمهل عنده طويلا فى الرحلة الأخيرة بين أنقرة وإسطنبول ونوقية والقاهرة ووهران ودمشق وغيرها مما تترامى ليس فى أنفاق العروبة وحدها، وإنما خروجًا من الظلام إلى الفضاء الرحب السرمدى الأخير.

ولا أريد أن أطيل، لكنى أردت تأكيد أن الوصول إلى المستقبل كان مرهونًا بالمرور على تخوم الماضى وأهواء الحاضر وغيابات المثقفين؛ فالخروج من مساحات العروبة إلى فضاءات الحضارة الإسلامية يظل هو الشرط الوحيد للخروج من أسر الحاضر والماضى إلى آفاق المستقبل والعمل له فى آن واحد..

وهنا نستأذن القارئ الكريم فى العَوْد إلى كل هذه المتاهات فى المناظر والمساحات والمشاهد الأولى والثانية والثالثة من العروبة إلى الحضارة.. ثم إلى المستقبل فى المشهد الرابع والأخير، لنصل فيه إلى الرحب المضيء عبر تجليات الحضارة، لنرى ـ بصورة أوضح وأشمل ـ شروط العَوْد إلى آفاق الحاضر.

إنه الخروج من العروبة المصمتة إلى نور الحضارة الإسلامية البعيد..

وهو ما اجتهدنا للوصول إليه هنا فى المشهد الأخير.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

د. مصطفى عبد الغني

الوحدة العربية
بين العولمة ومحكمة الاستئناف

أولاً

إن إعادة النظر إليها فى ضوء ما انتهت إليه حالة الأمة، فى زمن العولمة، يدفعنا إلى التوقف عندها، والتأمل، ليس بالضرورة فيما تدعو إليه، وإنما فيما قد تثيره فى هذا الواقع الذى نعيش فيه.

والقضية ببساطة تدخل بنا إلى المحاكم بشكل رسمى بتهمة التقصير فى بناء الوحدة العربية، إما على مستوى الأمة العربية كلها وإما على مستوى أحد هذه الاتحادات الإقليمية (كاتحاد المغرب العربى بالتحديد) خاصة فى عصر المؤسسات الدولية الضخمة، فلنتمهل أكثر عند هذه القضية على مستوى القطر الواحد.

(2)

ولكى نتعرف أكثر على الموضوع أو القضية لا بد من الاقتراب من حيثياتها.

الحيثيات تقول إنه خلال هذا الأسبوع تنظر محكمة القاهرة الطعن فى قضية أطلق عليها قضية «الوحدة العربية» يتهم فيها صاحبها ـ وحيد

الأقصرى الحكام العرب بالتقصير فى إقامة الوحدة العربية لما آل إليه حال الأمة العربية التى باتت تعانى أقسى أنواع المذلة والهوان فى ظل النظام العالمى الجديد بسبب تفرقها واختلافها.. كما نقرأ فى الدعوى التى رفعت.

وفى الوقت نفسه ينظر النائب العام فى الجزائر قضية رسمية أخرى أطلق عليها قضية «اتحاد المغرب العربي» اتهم فيها صاحبها حسن النورى زعماء دول المغرب العربى بـالعجز عن تحقيق حلم الجماهير المغربية فى بناء اتحاد مغاربى فعَّال وقوى.. كما نقرأ أيضًا فى حيثيات الشكوى الرسمية التى رفعت.

وقريب من هذا نقرأ مثل هذه الدعاوى أو الطعون أو الشكاوى بأشكال مغايرة وإن تكن متطابقة فى المشرق العربى.

والمهم هنا هو ما يشير ـ بشكل عام ـ إلى أن الجماهير الشعبية العربية أصبحت أكثر وعيًا من قبل بما يجرى على المستوى العالمى الآن، حيث أصبح من آثار التجاوب مع التطورات العالمية إعادة ضرورة هيكلة اقتصاد الأقطار العربية أو ضرورة الإسراع بها فى منظومة النظام الاقتصادى العالمى الجديد.

وحين نعود خاصة إلى القضية التى طرحت فى مصر نجد أن هذه القضية كانت قد طرحت على جميع الملوك والحكّام العرب تحت دعوي «إلزام بتنفيذ جميع المواثيق والاتفاقات والمعاهدات التى أبرموها لتحقيق التضامن العربى، وصولاً إلى الوحدة العربية الشاملة».

والحيثيات تشير أكثر إلى أن الدعوى أقيمت فى مارس من العام الماضى ولاقت من المدعى كمًّا كبيرًا من المعوقات والتجاوزات فى الحث على ضرورة إعلان المدعى عليهم فى منتصف العام نفسه، وهو ما انتهى منها إلى تأجيل القضية وإدخال أمين عام جامعة القاهرة كخصم.

وكانت القضية تقوم أساسًا على ضرورة تحقيق الوحدة العربية، استنادًا بوجه عام إلى الأخطار التى تواجهها الأمة كلها ثم التذكير بميثاق جامعة الدول العربية ومعاهدة الدفاع العربى المشترك والتعاون الاقتصادى بين الأقطار العربية وميثاق التضامن العربى فى مؤتمر القمة فى منتصف الستينيات واتفاقية الوحدة الاقتصادية المبرمة بين دول جامعة الدول العربية واتفاقية «السوق العربية المشتركة» التى تم الاتفاق عليها، مرورًا بميثاقات مجلس التعاون العربى وميثاق الاتحاد المغاربى وميثاق مجلس التعاون الخليجى وما إلى ذلك من الوثائق والمستندات الموقع عليها من قبل.

وقد تبين من مراحل تداول القضية أنه باستثناء إعلان السيد رئيس الجمهورية المصرى وأمين الجامعة العربية فإنه لم يبلغ بقية المسئولين العرب، فى حين أن محكمة جنوب القاهرة الابتدائية فى 29 فبراير هذا العام قضت بعدم قبول الدعوى (لرفعها من غير ذى مصلحة)، مما دفع المدعى بالطعن على هذا الحكم بالاستئناف وتحدد النظر فيه فى محكمة الاستئناف بعد أيام قليلة (يوم 722/ من هذا الشهر).

وعبورًا فوق إجراءات عدم قبول الدعوى والطعن والاستئناف وانتظار النظر.. إلى غير ذلك، فإن القضية، قضية إقامة الوحدة العربية بين أقطار عربية متفرقة فى هذه الحقبة الخطيرة التى نعيش فيها، تصبح من أهم القضايا التى تعرض لها.ولن نبالغ إذا قلنا إنها من أهم القضايا التى تحدد المصير العربى فى الحقبة القادمة.

وهو ما يثير الكثير من المرارة والألم.

(3)

إن تناول قضية «الوحدة العربية» اليوم و «أوراق القضية وحيثياتها فى ملف ضخم بين أيدينا» يخرج من المفهوم التقليدى للوحدة العربية الذى كنا

نتحدث عنه كثيرا ونمارسه بالقول والفعل والنص والأغنية منذ الخمسينيات إلى واقع آخر تمامًا اليوم.

فأبناء جيلى يتحدثون كثيّرا عن هذه الوحدة التى تجسدت بها لم يحدث من قبل فى الخمسينيات، لا سيما مع قيام الوحدة المصرية ـ السورية بين مصر وسوريا، غير أن ما نشاهده الآن ونعيشه، «خاصة بعد أزمة الخليج الثانية» وبدء نظام عالمى جديد تكرر تأكيده عبر بوش وآليات العولمة السياسية وإجراءاتها العسكرية فى العقد المنصرم من القرن العشرين، وما نعانيه الآن كلما ذهبنا إلى بلد عربى أو رصدنا للواقع العربى فى هذا القطر أو ذاك فى عالم يتجه إلى التكتل (الاقتصادى على الأقل).... هذا وغيره يدفعنا إلى النظر لقضية «الوحدة العربية» بشكل أكثر جدية، ولن نبالغ إذا قلنا بشكل ينطلق أساسًا من الخوف من المصير الذى ننتهى إليه فى حالة تفرقنا كدول عربية نامية فى عصر العولمة.

ولن أكون مغاليًا إذا قلت إن ابتعاد هوة هذه الوحدة السياسية ـ على المستوى الشخصي ـ تزيد كلما ذهبت إلى أى قطر من الأقطار العربية اليوم.

لقد أصبح كل قطر مشغولاً بما فيه مرة.

ومشغولاً بما بينه وبين القطر العربى المجاور له مرة ثانية.

ومشغولاً بين هذا المجلس الخليجى والمجلس المغاربى ـ على سبيل المثال مرة ثالثة.

لقد أصبحت مظاهر الشقاق أكثر من غيرها اليوم.

وأصبحت كل الاتفاقات والتقارير والتمنيات التى طالما حلمنا بها تتمزق مع تمزق الوعى العربى إلى شتات فى محيط عربى تزداد فيه الجزر، بل وتتفتت الجزر بفعل إلغاء جميع الحواجز والحدود على التجارة العالمية والأراضى العربية.

إن البدهيات التى تردد الآن فى تطور مفهوم العولمة تؤكد أنها ـ أى العولمة ـ تعنى بوضوح شديد إزالة كل القيود المفروضة على التجارة الخارجية لكل مناطق العالم (الكتل الموحدة أو الأقطار المتفرقة)، حيث تحدث المنافسة سواء المعروفة وفى مقدمتها التجارة العالمية والسلع.. إلخ وغير الملحوظة أو الملحوظة وفى مقدمتها وسائل الاتصالات والتكنولوجيا ونظم المعلومات، وما إلى ذلك مما يفرض هيمنة الشمال على الجنوب ليس فى التقنية والآلات الذكية فى الظاهر وإنما ـ وهو أخطر ما يواجهنا ـ فى تحدى الثقافة العربية التى أصبحت تواجه القوى الكبرى بأصحاب متفرقين متناحرين.

وهناك بدهية أصبح يرددها الآن الاقتصاديون من أنه منذ اتفاقية الجات 1994 ـ وإلغاء جميع القيود والمعوقات على التجارة العالمية ـ أصبح الخاسر الأول هو الأقطار العربية، لسبب جوهرى، هو أن الاضطرار إلى تعديل الهياكل الاقتصادية والاندماج فى السياق الاقتصادى العالمى تم بشكل منفرد وليس جماعيًّا.

الأكثر من هذا أن التقارير العالمية أشارت إلى خسارة التعامل مع الغرب بغير إستراتيجية واحدة! فقد أصبحت تواجه بهذا الشكل ـ فى الغالب ـ «صعوبات جمة فى كيفية الاندماج فى الاقتصاد العالمى»، وهو ما يؤدى ليس إلى انخفاض مستوى المعيشة فى كل قطر عربى فقط وإنما إلى زيادة الفجوة بين فئتين: رجال الأعمال والغالبية من الجماهير.

إن القضية التى رفعت لتوحيد الأمة العربية كانت تتجه فى أهدافها إلى اتجاهات مثالية، كأن تتحدث عن اتخاذها ـ أى الوحدة ـ وسيلة مشروعة تعبر عن رغبة الجماهير فى وحدتها الشاملة أو استغلال القضية فى التوعية بأهمية القومية العربية التى تعبر عن الولاء والانتماء للوطن العربى.. وإيقاظ

الصحوة العربية.. أو.. وسيلة للرد.. إلى غير ذلك مما نجده من أهداف هذه الدعوى أو القضية التى رفعت، غير أن معاودة النظر إلى ما يحدث اليوم يدعونا إلى أن نرى أن الوحدة بين الأقطار لا بد أن تكون فى إطار «حتمية العولمة» التى أصبحت واقعًا فاعلاً فى هذه الحقبة التى نعيش فيها.

إن التنبه إلى حتمية العولمة لا تتحدد فقط فى التنبه لآثارها الاقتصادية الخطيرة فقط، وإنما تمتد بها وخلالها إلى آثار تدنى مستوى الدخل على الفرد، وبالتبعية، تدنى مستوى الوعى الثقافى، مما ينشأ عنه ضعف الهوية العربية فى وقت أصبحنا فيه أمام مجموعات ضخمة تحركها أمامنا الهياكل الاقتصادية واقتصاد السوق الغربية مثل «الوحدة الأوروبية» أو كتلة «النافتا» أو جماعة «الآسيان».. فى وقت افتقدنا فيه ـ بالفعل ـ كتلة (ولا نقول ـ حتى وحدة عربية) تستطيع التعامل مع الكتل الاقتصادية الضخمة أمامنا.

ولهذا وغيره، نقول إن قضية «الوحدة العربية» المرفوعة الآن لا تدعو إلى التضامن العربى بشكل «يوتوبي»، وإنما تعدت الشعارات القومية وتحددت فى واقع اقتصادى وتجارة عالمية أصبحت هى البديل الوحيد لمواجهة هذه المنافسة أو فلنقل لمواجهة هذه القوى الغربية الجديدة التى لا تريد استعمارنا سياسيًّا ـ كما كان أو اقتصاديًّا ـ كما نسعى الآن ـ وإنما (ثقافيًّا) أيضًا.

وبعد، فإن هذه الدعوى التى تدخل إلى محكمة الاستئناف بعد أيام لا نريد (وبشكل أكثر أمانة) لها أن تتوقف فقط عند العامل السياسى، فإن الحديث عن وحدة سياسية الآن أصبح يحول بينه ويلات كثيرة، وإنما تدعو على المدى القريب إلى وجود «السوق العربية المشتركة» لمواجهة «اقتصاد السوق» الغربية ضدنا، أى الدعوة إلى وحدة اقتصادية قبل أن تغيب الثقافة العربية، أو الهوية العربية.

وقبل أن تغيب الوحدة الثقافية العربية من هذا الوطن العربى، أو الذى ما زلنا نقول عنه «الوطن العربى» حتى اليوم!!

ثالثًا

بعيدًا عن الوحدة العربية التى تتلاءم الآن مع طبيعة العصر ومتغيراته دعونا إلى الوحدة التى لا تقوم على السياسة بقدر ما تحتفى بالاقتصاد وتعمل به وله فى إطار (هيكلى) عربى موحد، وزاد من اقتناعى بذلك أن تسعينيات القرن الماضى لم تعد تعترف بهذه الوحدة «السياسية» وإنما بمنطق «العولمة» الجديدة التى تخضع لمنطق عالمى فى نطاق الاتصالات والمعلومات، وبشكل أكثر دقة بمنطق اقتصاد السوق الذى ساد فى السنوات الأخيرة. ونحن ندعو إلى هذا من جديد ولكن فى جانب معين نضرب المثل به إذا أردنا التعامل اليوم «ككتلة» عربية فى مواجهة آليات جديدة عبر شركات ضخمة تمتد ـ عبر نطاق العولمة ـ إلى قطاعات الاتصالات والمعلوماتية بالتوازى مع الخدمات المالية والاستشارية والتصميمات الهندسية.

إنه تغير الواقع الذى دفعنا إلى تغيير قناعاتنا مَن يحكم تغير الواقع العربى الردئ وسوء النيات التى برزت خاصة بعد غزو العراق للكويت، والغزو الفكرى اللاحق له فى شتى قطاعات الحياة اليومية فى الوطن العربى. لقد تغير الواقع بواقع مائة وثمانين درجة بعد حرب الخليج عنه قبل غزو الخليج. كنا فى السابق ـ ربما منذ بدايات القرن ـ ندعو إلى شكل من أشكال الوحدة تبلورت ـ فكريًّا فى العشرينيات والثلاثينيات وتعمقت فى الأربعينيات ـ على أثر إنشاء جامعة الدول العربية ـ وتجسدت بالفعل فى الخمسينيات والستينيات ـ بفعل عروبة ثورة يوليو وسعيها الدائب إلى هذه الوحدة التى تحققت مرة عملية فى نهاية الخمسينيات ومرة نظريًّا لأكثر من مرة فى بداية الستينيات.

غير أن الواقع ـ بعد ذلك جعلنا ننضو ثوب الوحدة السياسية رويدًا رويدًا حتى إذا ما انتهت حرب الخليج الثانية كنا نتراجع عنها مع صيحات بوش بالنظام العالمى الجديد، وتعميق منظرى العم سام طيلة التسعينيات بالعولمة على أنها شكل من أعلى أشكال الهيمنة الرأسمالية الشرسة على العالم العالم العربى بشكل خاص، هو ما دفعنا للبحث عن شكل جديد من أشكال واحدة تبدأ رويدًا رويدًا من الوحدة الاقتصادية والمعلوماتية، وهو ما حاولنا أن نؤكده عبر كتابات كثيرة طيلة هذه الحقبة.

(2)

نحن نستبدل الآن بالوحدة السياسية أشكالا أخرى من أشكال الوحدة، تكون أقرب لروح العصر وأرحب لشكل التعاون الذى يجب أن يكون بين الأقطار العربية، ليس تحبيذًا للوحدة وحسب، وإنما بقصد استبدال شكل ما بالتمزق العربى ـ أى شكل عصرى ـ يكون من شأنه أن يقرب بين أقطارنا العربية، نستطيع به أن نواجه قوى الهيمنة التى أخذت أشكالاً أخرى أكثر شراسة وأغزر فاعلية.

نقول نحن ندعو إلى الوحدة العربية متمهلين عند الأداة ـ كمثال فقط ـ نستطيع به أن نلغى المسافات البيروقراطية بين أقطارنا العربية، ونحدد هذه المسافات الشاسعة بين أقطارنا والعالم الخارجى. ونستطيع فى هذا أن ندعو إلى شكل من أشكال هذه الوحدة العربية بشكل عصرى حين تقوم إحدى الحكومات العربية (وبالتالى كل الحكومات العربية) بعمل شبكة إليكترونية للإدارة تقوم بعملها فى كل الأقطار العربية (وبالتبعية فى كل الأقطار العالمية) فيكون لدينا شكلان من أشكال هذه الإدارة:

ـ شكل عربى يقوم مركزه بأى قطر عربى، ويكون تابعًا لفروعه الأخرى فى بقية الأقطار العربية، ولا يهم المكان الذى يقع فيه المركز، إذ أن الحركة بين

المركز وفروعه لا تؤثر فى أى قطر، فالإستراتيجية واحدة والتعليمات واحدة.

ـ شكل عربى ـ آخر ـ يقوم مركزه بأى قطر عربى، ويقوم بحيوية العلاقات الإدارية والإليكترونية مع أى مكان آخر فى العالم الغربى أو الشرقى على السواء.

فإذا توقفنا عند الشكل الأول، لتمهلنا فى هذا المركز الذى يمكن أن يتحول عنده الوطن العربى إلى كتلة مركزية واحدة تطوى عدة أفرع لها جغرافيا ثابتة وهوية واحدة.

وإذا توقفنا عند الشكل الآخر لتمهلنا عند التحالفات العربية عبر مركزها الرئيسى فى علاقته الجدلية مع المراكز العالمية الأخرى أو الشركات المتعولمة الجديدة. فلنتمهل عند الشكل الأول: المركز العربى الواحد عبر التحالفات القطرية..

وهو ما يستوجب التمهل أكثر عند مثال من الواقع العربى. لقد قامت حكومة دبى أخيرا بعمل شبكة إليكترونية للإدارة (بديلاً عن الموظفين والتحكمات الإدارية والبيروقراطية)، وبذلك يستطيع أى مواطن عربى فى أى منطقة نائية من أقطارنا العربية فى سوهاج أو حلب أو طنجة ـ على سبيل المثال ـ بالحصول على تأشيرة لزيارة دبى أو أى مكان آخر فى الإمارات عن طريق الإنترنت، إذ يضع عليه بياناته وتأتيه «التأشيرة» عبر الجهاز الإليكترونى، وبهذا يقضى على ما يعوق حركة التمزق والبيروقراطية الثقيلة بين الأقطار العربية. وقد كنت أحسب أن البيروقراطية التقليدية وصلت إلى أقصى حد سلبى لها فى مصر، حيث إن مصر تعد من أقدم الدول التى كان يمارس فيها «الكاتب» المصرى أعماله المتراكمة، ويقوم «الكهنة» بتحرير الأوراق الكهنوتية بشكل رسمى، لولا أننى وجدت هذا الجمود البيروقراطى فى أكثر من بلد عربى زرته بالفعل.

وهنا مازلت أذكر أننى حين كنت فى بغداد قبل حرب الخليج الأخيرة، وأردت صرف بعض مستحقاتى من الإدارة الثقافية لكتاب كان «تحت الطبع» هناك، فإذا بى أدخل فى دهاليز مغلقة تحت الأرض وأتجمد تحت توقيعات كثيرة تطلب منى وأعجب من أختام هنا وهناك ويرهن بها الموافقة على أوراقى، بما جعلنى أنسى ثقل حركة البيروقراطية المصرية، وأعمم التجربة، وأعجب أننا لا نستطيع - حتى - أن نقضى إحدى مصالحنا البسيطة فى القطر العربى، حتى وإن كنا نعيش فيه.

ومن هنا، فإننى أتوقف عن «الإدارة» كمثال بديل، أو - حتى - كمثال مرحلى للوصول إلى شكل الوحدة العربية، التى تبدو - على المستوى السياسى - شيئًا أشبه بالمستحيلات الثلاثة.

(3)

إن الوحدة العربية يواجهها مستحيلات كثيرة أشبه بالغول والعنقاء والخل الوفى فى الأسطورة العربية، ومن هنا فإن التغلب على الاستحالة المعاصرة يكون بالعمل - علميًا - للوصول إلى شكل من أشكال التقارب بين الأقطار العربية. وكى نحدد مثالنا أكثر من عامل الإدارة، والواقع أن العامل الإدارى تحدد عندى أكثر فى ندوة عقدت أخيرًا فى القنصلية السعودية بالقاهرة فى الفترة الأخيرة. لقد دعا المحاضر فيها إلى التنبه إلى أثر هذا العامل فى هذا العصر، لقد راح المدير العام للمنظمة العربية للتنمية الإدارية يبرهن على جدوى اكتساب الخبرة الإدارية فى عالم تتغلب فيه آليات العولمة على كثير من أوجه النشاط البشرى، وتتحول الشركات إلـى أدوات «متعولمة» تزخر بها كل مظاهر الحياة اليوم: تجارة التجزئة والتوزيع ومعارض الأزياء والتجهيزات والسلع الهندسية والإليكترونية والنقل والتعليم ونشر الكتب ثم الإدارة. لقد لاحظت أن د. محمد التويجرى دعا

إلى التنمية الإدارية بشكل واع، فإن مؤسسات القرن العشرين تعتمد على الهرم الإدارى بالمستويات الإدارية بينما شركات القرن الواحد والعشرين تعتمد على ما يسمى حاليا «بالشبكة العنكبوتية» وما دامت هذه التغييرات تختلف كليًّا لا نستطيع أن نتعامل بنفس أسلوب الإدارة القديم، ولهذا نسمع كثيرًا الآن عن مصطلح «بناء الفريق». وهو ما يعنى أن نعمل فى شركات ليس بالضرورة أن تكون الإدارة فيها بالضبط والرقابة والعقاب والثواب.. إلخ. القضية الآن هى كيف أبنى الفريق وأديره، هذا الأمر لا نلحظه بالطبع فى جميع العالم العربى ولكن بعض الحكومات تطبق هذا المبدأ.

ويعود صاحب دعوة «التنمية الإدارية» ليشير ـ من جديد ـ إلى تجربة دبى، حيث يوجد موبايل إليكترونى وبشكل أدق ما يطلق عليه «حكومة إليكترونية»، وهو ما يعود إلى الإعتماد على الشبكة العنكبوتية وليس الهرمية..

وهو ما يعود إلى الوعى بالتغييرات الاقتصادية العالمية، التى تلعب دورًا كبيرًا فى الدخول فى اتفاقات عربية ـ عربية فى مواجهة القوى الاقتصادية الخارجية. وبعيدا عن تقنية التطورات الإدارية، فإن ما يهمنا هنا التعرف على أدوات التنمية الإدارية وفى مقدمتها استخدام الانترنت ومهارات التغيير فيه وتكوين «القائد العام للأدارة» فضلاً عن التخصص أكثر فى المهارات التكنولوجية بالغة العمق والثراء. وغنى عن الذكر هنا أن «الحكومة الإليكترونية» هنا يجب أن تتنبه إلى أن الاستخدام الواعى للتنمية الإدارية ـ وبالتبعية ـ مراقبة الاستثمارات وميزان المدفوعات... إلخ لا بد أن يصاحبه الوعى بالعملية الاقتصادية والتنبه إلى أن حركة التنمية لا بد أن تمضى تحت مراقبة المركزية الوطنية العربية).

وهو ما يجب أن نشدد عليه هنا من أنه قد يحدث ـ كما نجد الآن فى أكثر

من قطر عربى ـ أن تحدث ازدواجية اجتماعية نجد آثارها فى زيادة الشرائح الاجتماعية عالية الثراء وما يصحبها من تسهيلات كثيرة، سواء فى البنوك أو اعفاءات فى الضرائب، مما ينجم عنه أزمات اقتصادية أو سيولة مالية فنحن لا نفتح صحيفة هذه الأيام إلا ونجد أثرًا من سلبياتها على وطننا العربى، مما يحول دون الوعى بالاقتصاد العالمى ضمن منظمة العولمة والاندماج معها، وهو ما يهدد النسيج الاجتماعى والثقافى معًا.

الوحدة.. والعَوْد إلى المستحيلات الكثيرة

إنها هذه المرة المستحيلات «الكثيرة» وليست «الثلاثة» كما عرفناها من التراث العربى إن هذا الخاطر لم يبارحنى قط منذ فترة ليست قصيرة، فما كدت أفرغ من الكتابة عن استحالة إقامة الوحدة السياسية فى هذه الظروف التى تمر بها بلادنا العربية، حتى لاحظت أنه لم يغرب على بالى قط هذا التعبير المجازى لمعنى الوحدة الآن، وهو تعبير كنت قد كتبته من أن الوحدة العربية يواجهها مستحيلات كثيرة أشبه بالغول والعنقاء والخل الوفى فى الأسطورة العربية وقد لاحظت هنا ـ كما أسلفت أننى رددت جملة المستحيلات «الكثيرة» ولم أذكر مرة واحدة المستحيلات «الثلاثة»، رغم أننى أحدد أهم هذه المستحيلات..

ولم أكن فى حاجة لتأمل طويل لأدرك أن مَّن حدثونا عن هذه المستحيلات (وبالمناسبة هم من التراث العربى) أسهبوا كثيرًا حول هذه المستحيلات (فالغول هو كائن خرافى..) والعنقاء هو (طائر أسطورى ضخم) ثم إن الخل الوفى مصطلح يمكن أن يدخل الآن فى باب «الشفافية» الذى يردد كثيرًا لطول التعرف عليه، أو طول التعرف على حقيقته المستحيلة غير أن حبل المستحيلات يمتد إلى أشياء أخرى كثيرة حين نذكر الوحدة، وإن كانت تحدد حين نضرب المثل العربى فى إطاره العام، ومن هنا، فإن

الربط بين الوحدة والمستحيلات لم يكن يدخل فى باب تحديد أسباب الآن، وإنما أصبح يربط بين خطين:

- الخط الأفقى: وهو خط ممتد يجاوز التحديد إلى التعديد، فيبعث على اليأس.

- الخط الرأسى: وهو خط يلتقى مع الأول فيؤكد الواقع، ويبعث على التأمل

وهو ما يعنى أن نقطة التماس بين الأفقى والرأسى لا تلقى بنا إلى مفردات «التشاؤم» بقدر ما تدفع بنا دفعًا، إلى الطريق الآخر، هو إعاد النظر إلي «الواقع».

وهذا الواقع هو الذى حاول الخروج إليه أكثر من كاتب، نشير إلى اثنين منهم فى الفترة الأخيرة هما الأستاذ هيكل من مصر ود. قسطنطين رزيق من بيروت.

والاختيار هنا مجازى يقوم على أنهما آخر من تصدوا إلى هذا الواقع ـ زمنيا ـ بمفهوم يدعو إلى التأمل وليس إلى اليأس والتشاؤم.

فنتمهل عند ما يثيره الأول قبل أن نصل إلى الآخر.

(2)

إن أكثر ما يلاحظ أن الأستاذ هيكل حين سئل عن الوحدة العربية أشار إلى أننا يجب إعادة التفكير فى معنى جديد للوحدة، بعد أن أصبحت الوحدة العربية الشاملة «مستحيلة».

مستحيلة.. هذا هو التعبير الذى استخدمه على إطلاقه الكاتب.

والواقع أننا مللنا من التذكير بهذا الواقع «المأساوى» الذى أصبحت فيه الأمة العربية، خاصة، عقب حرب الخليج الثانية، فالتنازعات زادت

(داخليًّا) والأطماع الإمبريالية، خاصة الأمريكية زادت، والاضطراب العربى امتد دون تمهل أو تفكير، فى حين أن إحكام السيطرة الأمريكية زاد عبر (إستراتيجية) لم توضع اعتباطًا أو حسب تطورات الظروف.

وبعيدًا عن رسم «لوحة» كبيرة لما آلت إليه الأوضاع المأساوية اليوم، فسوف نتوقف عند مثال واحد لنرى من خلاله كيف زادت الخلافات العربية ـ العربية إلى درجة أصبحت لا تهدد المال العربى، فقد وهى فى طريقها للقضاء عليه فقط، وإنما أصبحت تهدد «الوجود العربي» كله «وهى فى استمرارها للخلاص منه».

إن أمامنا أمثلة كثيرة نختار منها هذا الخلاف المقيت الغريب بين دولتين عربيتين هما قطر والبحرين، إذ أن الخلاف بين القطرين العربيين على عدة جزر كجزر حوار والزبارة وجنان ـ وكلها عربية ـ دفع هاتين الدولتين إلى التقدم إلى محكمة العدل الدولية، فقدمت كل دولة شرحًا كبيرًا عن القضية، وكمًا هائلاً من الوثائق والخرائط والأوراق ما لو نُشر ـ على حد تعبير أستاذ قانون دولى ـ لغطى سطح الجزر المتنازع عليها وغطى معها الدولتين المتنازعتين، فضلاً عن أن الحجج التى قُدمت، بُذل معها من الأموال ما كان يمكن بها إعادة تنمية الأقطار العربية كلها وبناء القاعدة التكنولوجية، على الأقل، فى مواجهة تحدى العولمة التى تقوم الآن على الأيديولوجية الكونية فى الظاهر والتحكم الأيديولوجى فى الظاهر والباطن.

إن الذى بذل من هذين القطرين على المستوى الأمنى أو المالى ـ على سبيل المثال ـ كان يمكّن من الخلاص من الواقع الاقتصادى العربى المخيف الذى يهدد المنطقة العربية كلها، على اعتبار أن تجربة العولمة الآن ـ برغم معارضاتها فى دافوس وسياتل ثم نيويورك ـ ماضية فى طريقها، تستحوذ على الواقع الاقتصادى والإلكترونى للجنوب ـ خاصة المنطقة العربية ـ

وتكتسح معها كل أحلام هذه المنطقة فى تفكير «إستراتيجى» ـ ولا نقول وحدة عربية لمواجهة الغرب فى القرن الواحد والعشرين بعد أن أصبنا بخيبات كثيرة فى القرن العشرين، سواء فى التنمية الاقتصادية أو الاستقلال السياسى أو الوعى العربى القريب.

إن المرافعات التى تمت من كل قطر ضد الآخر تمنحنا صورة قاتمة لهذا الواقع العربي، وسوف نضرب مثالاً مختصرًا لهذه المرافعة أشار إليها القانون..

أن الفريق القطرى طالب بالآتى:

أن تكون جزيرة حوار تحت السيطرة القطرية.

ـ أن تكون دبل وقطعة الجراد تحت السيادة القطرية.

ـ ألاتشمل السيادة البحرينية جزيرة جنان.

ـ ألا تشمل السيادة البحرينية جزيرة الزبارة.

أن ترسم المحكمة خطًّا يفصل الحدود البحرية البحرينية عن الحدود القطرية تكون بموجبه جوار والزبارة تحت السيادة القطرية.

ثم إن الفريق الآخر ـ المعارض ـ طالب بأشياء أخرى نلخص منها الآتى:

ـ رفض كل الحجج القطرية.

ـ أن تكون جزيرة الزبارة تحت السيادة البحرينية.

ـ أن تكون جزر حوار وجنان تحت السيادة البحرينية.

ونمسك هنا عن جملة هذا المشهد «السيريالى» لقطرين عربيين، ونغيب أكثر فى معنى المستحيلات. ...

(3)

والغريب فى الأمر ليس هذه المطالبات فقط، وإنما الأكثر غرابة أن حجج كل قطر عربى ضد القطر العربى الآخر تقوم على حجج غريبة، كأن يتم الحديث عن أهمية الخرائط البريطانية فى حسم النزاع لطرف دون الآخر، كما أن القانون الذى يعول عليه هو القانون الغربى الذى يحكم فى قضايا عربية خالصة.

وهو تعجب يعود بنا ثانية إلى قضية المستحيلات التى تحدث فى عالمنا العربى.

إننا نملك الكثير من مقومات التوحد على اعتبار أننا نملك ـ بالفعل ـ المكونات الأساسية للأمم ـ كما يلاحظ الكثيرون ـ الاتصال الجغرافى والاتصال الحضارى، فضلاً عن التماثل الثقافى والوجود التاريخى والهوية العربية والمصالح الاقتصادية.. إلى غير ذلك مما يعجب المرء كيف كانت (الفكرة) العربية فى النصف الأول من القرن العشرين أكثر منها وجودًا عنها فى نهاية القرن العشرين.

ونحن عرفنا تجارب «وحدوية» بالفعل، سواء على مستوى الأحلام واليوتوبيات (منذ أفكار وكتب الكواكبى على سبيل المثال) أو تجارب وحدوية حقيقية (منذ تجارب الوحدة والانفصال) (منذ تجسيد عبد الناصر 1958 ـ1961) أو محاولة إعادتها فى النصف الأول من ستينيات القرن الماضى.

ونحن عرفنا مطامع استعمارية متوحشة نذكر أبرز مثالاً لها نكبة 1948، وغياب الوعى الذى يقوم على وحدة الفكر والفعل، واتساق النظرة بين الجيوش والعروش (كما نجد تفصيلاً تامًّا لها فى جزءى الأستاذ هيكل عن أزمة الجيوش والعروش).

وعود على بدء، فما يهمنا هنا أن الأستاذ هيكل ـ رفيق فكرة عبد الناصر صاحب «الدائرة العربية» طيلة الخمسينيات والستينيات فى القرن الماضى ـ يعود الآن فى بداية هذا القرن ليستعيد المشهد القديم، لكنه يستبدل بدلا منه هنا والآن عبارة جديدة، هي «الوحدة الشاملة مستحيلة».

إن «هيكل» الآن يطلق كل التعريفات القديمة (السياسية)، ويستبدل بها تعريفات جديدة ثقافية ـ واقتصادية.

إن الكيانات العربية الكثيرة الآن، وخلافاتها الأكثر لفتًا كدراما هزلية تستوجب علينا أن نبعد عن أذهاننا الإطار الوحدوى السياسى التقليدى أو القومى لبلادنا العربية، وإنما، يختار له هيكل إطارًا آخر يسميه (كومنولث عربى) ذا رابط ثقافى واقتصادى وإستراتيجى واحد.

لم يعد الإطار السياسى مطروحًا أو مسموحًا به بأية حال، وإنما أصبح الإطار الثقافى أو الحضارى، وبإضافة أكثر دقة الإطار الاقتصادى المهيمن الآن على المفاهيم والمقدرات العالمية هو القول الفصل فى قضية الوحدة العربية.

إنه يرفض تمامًا الشكل الدستورى؛ لانه ببساطة لم يعد صالحًا الآن أو بشكل أكثر بساطة لم يعد صالحًا فى زمن المؤسسات الدولية المعنية بالواقع الاقتصادى، فإذا أدركنا الواقع الإلكترونى والقاعدة التكنولوجية المعاصرة نكون أكثر وعيًا بمنظومة العولمة التى ما زالت تحركها خيوط الغرب الأمريكى فى الشمال إزاء واقع متخلف ضعيف فى الجنوب.

واقع يتحدث عن الصراعات الكثيرة بين أطرافه ويغفل عن المستحيلات الكثيرة فى قلبه، فهى لا تهم أحدًا فى العالم غيرنا، فى الجنوب أيضًا..

عن الأمة العربية..والحديث فى لزوم ما لا يلزم!!

رابعًا

رحل قسطنطين زريق دون أن يتنبه أحد إلى كتابه الأخير «ما العمل» الذى أضاف له تعريفًا أكثر وضوحًا فى عنوانه الثانى «حديث إلى الأجيال العربية الطالعة» وكأنه يرثى محاولات تحقيق الوحدة العربية فى القرن العشرين، سواء حين كانت فكرا دافع عنه ورسم قسماته سنى عمره أو حين تجسدت لسنوات قليلة فى فعل فرغ إليه هو وزملاؤه خاصة منذ الثلاثينيات حتى راحت السكرة وجاءت الفكرة فى تسعينيات نفس القرن نفسه إثر حرب الصحراء.

إن الحاضر الذى عاشه قسطنطين زريق فى الربع قرن الأخير ـ على سبيل المثال ـ كانت قمينة بأن تزرع فى قلبه اليأس الممض من الدعوة لتحقيق الوحدة العربية أو الدعوة إلى الاقتراب منها، خاصة مع حروب القبائل العربية، ومع ذلك فإن أستاذ الجامعة والمفكر الكبير لم يدع نفسه يسقط فى الأمل، أو راح يتحدث عن «أوهام» الوحدة أو خيالاتها كما فعل الكثيرون حين ارتدوا من الفكر إلى الواقع، ودفع الواقع إلى اليأس وليس إلى الوعد والتمسك بالأمل.

إن متابع كتابات زريق الأخيرة يلاحظ «الاعتراف» الواقعى الممض، وهو ما يجعلنا نسأل أنفسنا عن جدوى الاعتراف بلزوم ما لا يلزم الاعتراف بالواقع الهزلى الأليم.

وهو ما لم يستطع أن يخفيه زريق فى آخر كتاباته أو تصريحاته فى سنواته الأخيرة.

بيد أننا قبل المزيد من «الاعتراف» لا بد من الإشارة إلى «الخطاب»

الأساسى فى وعى زريق، لا بد من الإسهاب أكثر عند هذه المستحيلات أو بعضها التى نتذكرها كلما جاء حديث الوحدة أو الأمة العربية.

وهو ما نتمهل عند بعض رموزه.

(2)

إنه فى آخر ما نُشر قبيل رحيله مباشرة هذا الكتيب بما يشبه الوصية الأخيرة. وقد جول فيها رصد بواعث الحاضر وصولاً إلى محاولة العثور على حل لهذا الواقع الأليم.

إنه يسرد منذ البداية بواعث الواقع من «القنوط المستشرى» والمواقف المتخذة بتأثيرها الواقع، وما إلى ذلك من تشريح لهذا الواقع حتى يصل بنا إلى محاولة البحث عن طريق للسير إليه.

وما يهمنا هنا ـ ونحن لا نحمل تفاؤل الراحل الكبير ـ هو التمهل عند بواعث استحالة قيام الوحدة فى الوقت الراهن، وهو لهذا يسرد منذ البداية الأسباب التقليدية من الأسباب الخارجية المعروفة والداخلية المألوفة ليتمهل أكثر عند نتائج هذه الأسباب..

إن لهذه الأسباب ظواهر تؤكد استحالة الوحدة بشكل مؤسسى «دستورى» الآن.

ـ إن قسطنطين زريق يلخص هذا كله على النحو التالى:

ـ القصور الوطنى.

ـ القصور القومى.

ـ القصور الإقليمى والعالمى.

ـ تعثر التنمية.

ـ تغليب الكم على النوعية فى اهتماماتنا.

ـ انتشار الفساد.

وإن المتابع لحياتنا الآن لا يفوته هذه العناصر، رغم أننا لا نفقد من يهتم بشأن الوحدة أو من ينكرها، من يرى حياتنا مرهونة بتحقيقها، ومن يرى أن حياتنا لن تستوى بتحالف الدول العربية بفعل عوامل كثيرة فى داخلها.

إن القصور الوطنى نعلم أسبابه، بالقدر الذى ندرك به درجات القصور القومى، فالعجز إلى التضامن العربى وهنا يفتح قوسًا ليكتب «الذى أصبحنا نكتفى به عوضًا عن الوحدة المنشودة».. العجز فى التضامن العربى ليس السبب الأول والأصل الباعث، أنه لا يعدو أن يكون مظهرًا من مظاهر العجز العربى العام الناشئ عن تخلفنا الذاتى من جهة، وازدياد سطوة الطامعين فينا من جهة أخرى.

والأكثر من هذا لفتًا للنظر الاعتراف الذى يدلى به المفكر القومى الكبير هنا، إذ يقول بالحرف الواحد:

ـ وعلىَّ ـ شخصيًّا ـ أن أعترف أنى كنت فى الماضى أتكلم وأكتب عن الأمة العربية، فإذا أنا الآن أتجنب هذه التسمية لبعدها عن الواقع المعيشى وأؤثر عليها المجتمع العربى أو المجتمعات العربية، مع اعتقادى المكين أن هذه المجتمعات تملك من العناصر المشتركة، الماضية والحاضرة، والمستقبلية، ما يؤهلها لأن تتحول إلى أمة موحدة ذات قومية شاملة، ولكنها لم تتمكن حتى الآن (على الرغم من صيحاتها المتعالية وادعاءاتها المعلنة) من تفعيل العناصر المشتركة ونقلها من حالة الإمكان إلى حالة الوجود الفعلى. بل إنى أصبحت أشك فى صحة التكلم عن المجتمعات العربية القطرية أو عن المجتمع العربى العام نظرًا إلى قصور أهل كل منها وأهلها جميعًا عن تكوين ما يصح أن يدعى مجتمعًا أو شعبًا أو وطنًا، وإلى استمرار خضوعهم لنزعات ضيقة مفرقة ولمطالب فاسدة مخربة، وبالتالى عجزنا جميعا عن تحقيق

التكتل الوطنى أو القومى، وهو الشرط الأول من شروط البقاء فكيف بالتقدم؟ فى هذا العصر العسير.

ينتهى اعتراف قسطنطين زريق ونسأل أنفسنا: وهل كان المفكر الكبير فى حاجة لهذا الاعتراف؟! هل نحن فى حاجة للإسهاب أكثر حول لزوم ما لا يلزم.

(3)

يبدو أننا فى حاجة إلى ذلك.

إن زريق لم ينس ـ وهو اعتراف آخر ـ أن يذكرنا بالتاريخ القريب الذى لم نستطع أن نستفيد به عقب الحرب العالمية الثانية، تم إبان الحرب الباردة، فهو يسرد طويلاً كيف أننا لم نستفد بكل ما حدث وما يحدث وأودى بنا إلى هذا المصير، أنما يدل، على حد قوله:

«على أن المواقف الخارجية لحكامنا وجماهيرنا ظلت تصدر عن رؤية خادعة ومصالح شخصية أو فئوية، وعن انفعال وتوهم أكثر منها عن وعى وعلم تقدير للمسئولية».

ويمتد الخلاف الإقليمى من الجوار العربى ـ العربى إلى العربى الإسلامى، فقد أخفقت الدول العربية فى استمداد الدعم من الساحة الإقليمية التى تتمتع بها بعلاقات دينية وحضارية وثيقة، قديمة وحديثة، ولا أبين فى هذا المجال من عجزها عن كسب التأييد الفعلى من الدول الإسلامية، المجاورة وغير المجاورة، وعلى العكس اتصفت العلاقات بين الدول العربية والدول الإسلامية فى الشرق الأوسط بالجفاء إن لم نقل بالعداء فى أكثر فترات هذا القرن.

وبدهى أننا أصبحنا الآن بعد حرب ضروس بين العراق وإيران دامت

ثمانى سنوات فأهلكتهما ودمرت ما دمرت وأثارت أشنع الأحقاد والبغضاء بين الدولتين بل بين الشعبين المتقاربين حوارا وحضارة. وكذلك الشأن فيما يخص تركيا التى انتهى بها الأمر أخيرًا الى عقد اتفاقات عسكرية مع إسرائيل بمباركة من الولايات المتحدة، رغم اعتداءات إسرائيل على العرب وأخطارها المرتقبة على منطقة الشرق الأوسط كلها، التى كان يجدر بالدول الإسلامية بهذه المنطقة أن تتجند وتتكاتف لدرئها.

ويسهب زريق فى تدهور التنمية المعاصرة فى أوطاننا العربية، وعلى سبيل المثال، يورد لنا مثالاً مفزعًا، تعرفه، لكن كل مرة نذكره بحس بنفس الفزع، إن تقرير التنمية البشرية منذ سنوات قليلة لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائى يشير انه من بين 102 بلد حسب نصيب الفرد من الدخل الوطنى الإجمالى لعام 1994، تأتى الدول العربية غير النفطية بين مرتبتى الأردن 85 واليمن 201، وفى تصنيف بلدان العالم للعام ذاته حسب معايير أوسع.. في176 تأتى جميع البلدان العربية غير المصنفة بين البحرين 9 وبعدها الكويت 354 وبين اليمن 174، ومما يسترعى الانتباه هنا ـ كما يلاحظ قسطنطين زريق ـ أن إسرائيل تسبق جميع البلدان العربية النفطية حسب معيار الدخل.

وعلى شكل لزوم ما لا يلزم يضع المفكر الكبير إحصائيات ليدلل بها على ما يريد.

وما يلفت النظر على طريقة لزوم ما لا يلزم ـ فلم يعد بيننا الآن شىء جديد ـ أن يذكر زريق أن من أسباب ضياع الوحدة العربية (وهى أسباب كثيرة ذكر بعضها فقط) ما يسميه «انتشار الفساد».

والواقع أن الحديث عن الفساد وهروب رجال الأعمال وتفشى الرشوة وما إلى ذلك حديث يكاد لا يخلو منه بلد عربى الآن. وقد سمعت لأكثر من مرة الرئيس الجزائرى بوتفليقة وهو يتحدث عن الفساد فى الأوساط العالية

بشكل حاد وغاضب، بما يجسد الألم الشديد الذى لا يورث غير الحزن، فبين الألم والحزن منطقة من العمل أو الأمل لم نستطع الوصول إليها قط.

إن صاحب كتاب «ما العمل» بعد أن يطرح صورًا كثيرة من الأوضاع الفاسدة يعود لطرح أسئلة أكثر من نوع:

ـ كيف نجابه هذه الأوضاع؟

ـ.. وإذا لم يكن فى مقدورنا أن نغيرها، فهل من سبيل لأن نغير أنفسنا، نحن ومن يأتى بعدنا من أجيال، للخروج من اليأس إلى الأمل، ومن التقاعس إلى العمل، ومن الانكفاء والانهزام إلى الانفتاح والظفر؟؟

وحتى مع إحساسنا أن مثل هذه الأسئلة تعد من لزوم ما لا يلزم أيضا، فإننا لا نستطيع أن نغفل إهداء الكاتب، بعد عنوانه الرئيسى «ما العمل؟» وعلامة الاستفهام التى لا نستطيع إغفالها، نقرأ هذا الإهداء الدال.

إلى الأجيال العربية الطالعة.

تقديرًا لمسئوليتها فى صنع غدنا المرجو.

فهل هو الوصول باليأس إلى نهايته، وبهذا نصل إلى إحدى الراحتين؟

أم الوصول من اليأس إلى الأمل فى هذه الأجيال العربية الطالعة؟

أسئلة نراها ـ نحن أيضًا ـ من قبيل ما لا يلزم.

عن الوحدة حين قال برنادوت...

ثالثًا

هل تذكرون برنادوت؟

والكونت برنادوت لمن لا يعرفه هو الوسيط الدولى صاحب مشروع التقسيم الذى تقدم به عام 1948 لإنهاء الصراع بين العرب وإسرائيل،

وكانت نقطة الخلاف الرئيسية بينه وبين أحد الخبراء معه هى أنه فى حين كان يتصور أن النقب يجب أن تئول إلى العرب، كان يرى أن هذا يجب أن يحدث فى مقابل توريث الجليل لإسرائيل.

تقول الرواية التى جاءت فى الجزء الثانى من كتاب هيكل «العروش والجيوش» إن برنادوت حين ضاق بمعارضة أعضاء المشروع الذى تقدم به سأل ـ لماذا لا ترسمون أى خريطة تريدون ؟

أجابه الخبير الأمريكى ـ روبرت ماكلينتوك ـ بما أغضبه..

فلنرجئ غضبه قليلاً قبل أن نرى كيف كان موقف العم سام.

(2)

والواقع أن الدور الأمريكى فى الأربعينيات ـ على عكس ما يعتقد الكثيرون ـ كان دورًا نشطًا واعيًا إلى حد كبير أنه الوريث الشرعى، الوحيد، للإمبراطورية الإنجليزية، ومن يراجع أحداث النصف الأول من القرن يجد الدور الأمريكى صاعدًا متوثبًا وصل إلى ذروة نشاطه فى الأربعينيات، حتى إننا لا يمكن أن نحاول تفسير كثير من الأحداث التاريخية فى هذا العقد ـ الأربعينيات ـ دون أن نلمح الأصابع الأمريكية وراء الكثير منها، ووثائق هذه الفترة ترينا إلى أى مدى كان الدور الأمريكى يستخدم كل الوسائل لتأكيد هذا الدور، ومن هذه الوسائل كان تأييده المطلق للوجود الإسرائيلى، بحيث إننا يصعب أن نعثر على الدور البريطانى دون أن نلاحظ حضور الدور الأمريكى بشدة.

ويلفت نظرنا هنا أن الدور الأمريكى كان من الحضور بحيث إنه فى قمة الصراع العربى ـ الإسرائيلى فى نهاية الأربعينيات خرج الملك عبد الله باقتراح بعث به إلى وزير الخارجية البريطانى، أسهب فيه حول الخلاف بين العرب، ثم أضاف بكل وضوح هذه العبارة التى ننقلها بالحرف:

ـ إن الكل سوف يمتثل ويصدع وإن الذى لا يسمع من الإنجليز سوف يسمع من الأمريكان»، إن الدور الاسرائيلى كان يجد اهتمامًا وتأييدًا فائقين من الرئيس الأمريكى فى هذا الوقت، وهذا الدور كان يؤيد قيام إسرائيل وتوسعها بشكل مطلق مرة، ويستخدم دور الخداع لاستمالة العرب ـ فى الاتجاه نفسه ـ مرة أخرى، غير أن السفور لظهور هذا الوجه البشع كان ظاهرًا فى أغلب الأحيان..

إن ظهور الولايات المتحدة الأمريكية على مسرح الأحداث فى الشرق الأوسط كان بمنزلة عنصر فاعل فى سياساته وطرف مؤثر على مصائره ـ بدا بعد الحرب مباشرة بطلب من الرئيس الأمريكى هارى ترومان بأن تفتح أبواب الهجرة لليهود إلى فلسطين دون شروط أو عوائق، وكانت تلك هى المعركة السياسية الكبرى فى المنطقة من سنة 1945 إلى سنة 1947 حين صدر قرار التقسيم، وكانت الولايات المتحدة هى القوة الضاربة التى تفتح له الطريق، سواء فى مقر الأمم المتحدة فى نيويورك أو فى عواصم العالم حيثما تتطلب الظروف.

ومهما يكن فإن هذا الموقف الأمريكى لم يكن لينفصل عن الموقف الأمريكى فيما بعد حتى اليوم، إذ أن الأحداث ترينا ـ ويمكن تتبعها ـ أنه بمجرد أن استطاعت القوى الصهيونية اغتيال برنادوت حتى كان مشروعه يلقى المصير، ومن ثم تتحدد المواقف أكثر، وأهمها فى ذلك الوقت الموقف الأمريكى.

لقد بدأت المواجهات المستمرة بين الجيوش العربية والقوى الصهيونية، وانتهت المواجهات المسلحة بالنكبة، وضياع تقريره، ومن ثم، فإننا نستطيع فى هذا الوقت أن نعثر على موقف العم سام واضحًا كل الوضوح.

لقد بدا الموقف الأمريكى جامحًا فى تأييد إسرائيل، وهنا يحدد الأستاذ

هيكل سببا تكرر كثيرا ـ وما زال ـ فى مشهد الصراع العربى ـ الإسرائيلى ـ وهو مشهد هذا الصراع العربى الإسرائيلى مع انتخابات الرئاسة الأمريكية التى كانت قريبة (نوفمبر1948)، ولا بأس من العودة للوراء قليلاً لنلاحظ أن الرئيس ترومان وقد كان يرشح نفسه للرئاسة بدا مأخوذًا بالكامل لحساب مصلحته الانتخابية.

(3)

كانت الانتخابات هى الدافع الأول وراء دفع إسرائيل ـ بدون شروط ـ لاغتصاب الأرض، والاعتداء على قرارات الأمم المتحدة، والاستهانة بشروط الهدنة هنا وهناك.

ولا حاجة لنا الآن لاستدعاء هذا المشهد الآن بعد أكثر من نصف قرن على نكبة 1948 والأحداث التى أحاطت بها، إنه مشهد الانتخابات التى ترتفع فيه صيحة العداء للعرب والتأييد المطلق لإسرائيل.

إن هذا المشهد نعاينه جميعًا فى معركة الرئاسة التى تدور فى الولايات المتحدة الأمريكية وتتصارع فيها الأحزاب، ويتردد فيها أسماء من أمثال: جورج بوش وألبرت جور وغيرهما حين يختلفان فى أشياء كثيرة لكنهما يتفقان بشكل مذهل فى تأييد إسرائيل، وهذا التأييد يوازيه أشياء كثيرة مشابهة، مطاردة الإرهاب (الإسلام)

وتأييد سياسات أخرى قريبة من هذا من مثل ما حدث فى العراق وأمريكا الوسطى وكوسوفا وغيرها والهجوم العنيف على غير اليهود والمسيحيين فى أمريكا ـ كما لاحظ إدوارد سعيد ـ (خصوصًا المسلمين الذين يتجاوزون اليهود عددًا وهم المجموعة الدينية الثانية فى البلاد) من خطر استغلال الدين لغايات سياسية ضمن ديمقراطية علمانية كهذه، والموقف

الإمبريالى المتعالى القائم على الجهل تجاه بقية العالم (خصوصًا عالم غير أبيض) من أقطار تنال كثيرًا من العنت الأمريكى وصلفه.

فى الوقت الذى لا يتوقف فيه الرئيس كليتون عن بذل مساع هائلة من أجل كامب ديفيد القادمة لمصلحة إسرائيل (لا يتوقف تهديداته ولا ـ حتى ـ رحلاته المكوكية لإحراز انتصار لمصلحة إسرائيل وحسب)، حتى إن تأييده المطلق لإسرائيل الآن يزيد على شعاره الأثير لديه رفع «الليبرالية الجديدة» فى بدايات دورته الأولى.

إن الحملات الانتخابية هى التى تسعى إلى تأييد إسرائيل بالحق والباطل، وأصحاب المراكز المالية من اليهود وإن قل عددهم عن المهاجرين العرب ـ يعرفون جيدًا كيف يحركون دفة الانتخابات فى اتجاه تأييد إسرائيل بالحق والباطل، ومن هنا، تظل سياسة الانتخابات أكثر ما يدفع الولايات المتحدة إلى تأييد الجانب اليهودى.

وتظل سياسة الانتخابات دافعًا لاتخاذ هذا الموقف بشكل سافر لم تكن لتعرفه الولايات المتحدة فى الأربعينات كان الموقف الأمريكى ثابتًا ناضجًا يعرف ما يريد.

لكنه كان يتناول موقفه بشىء من الهدوء أو الطمأنة إلى حد بعيد.

لقد عرفنا فى الأربعينيات جهات أمريكية تأخذ موقفًا فى مصلحة إسرائيل، لكنها لا تلبث أن تقلل من خطورة مثل هذا الموقف على العرب.

كانت هذه الجهات الأمريكية النافذة فى الأربعينيات تطمئن الدول العربية وساستها بلغة لا لبس فيها إلى أن هناك تغييرًا قادمًا فى السياسة الأمريكية يؤدى إلى وضع فلسطين تحت وصاية دولية لعدة سنوات، حتى يتاح لكل الأطراف المعنية مراجعة الحقائق والمواقف من جديد!

لكنها لا تفعل شيئًا الآن أكثر من اللوم وإعلاء صوت المعونات وإطلاق شعار الأقليات.. إلخ

كانت سياسة الولايات المتحدة تقدم عروض «الإعارة والتأجير» والبيع لمعدات لبعض الدول العربية (كما نجد فى بعض وثائق مجلس الوزراء فى مصر) أو يخفف من لهجة الخطاب الأمريكى أحيانًا وزيرها الخطير جورج مارشال بالتعاون مع بعض شركات البترول العاملة فى المنطقة.

لكنها لا تفعل شيئًا الآن أكثر من التهديد بسلاح التمويل أو الحديث بغضب عن ضياع السنوات الأمريكية..

لقد لاحظ الأستاذ هنا أنه فى الأربعينيات كانت خطة إنشاء دولة يهودية فى فلسطين هدفًا بريطانيًّا ـ وغربيًّا أصيلاً.. و.. عندما أوشك البريطانيون على الخروج من فلسطين معلنين انتهاء انتدابهم عليها. فقد كانوا مع الأمريكيين غير بعيدين عن الموقف الصهيونى فى فلسطين، وهو كحد أقصى: كل فلسطين لليهود.. إلخ.

أو كان الأمريكيون هم الآن الذين يتخذون المواقف ويعارضون من يتخذ أى موقف معارض لإسرائيل.

وهذا ما يجعلنا نتذكر الآن سؤال الوسيط السويدى برنادوت، حين ضاق وهو يوجه السؤال لمستشاريه:

ـ لماذا لا ترسمون أنتم أى خريطة تريدون ؟

كانت إجابة الخبير البريطانى دبلوماسية، قال:

ـ نحن نريد خريطة عليها ختم سويدى يعطيها طابعًا محليًّا.

وجاءت إجابة الخبير الأمريكى أكثر وضوحا:

ـ لأن البيت الأبيض لن يوافق ولن يسكت على استبعاد إسرائيل...

وكان هذا كلام للمستقبل أيضًا

منذ نصف قرن أو ينيف أثيرت مشاهد كثيرة للسير حثيثًا فى طريق الوعى القومى (الوحدة العربية)، ولأكثر من نصف قرن - أيضًا - ظل مشهد الهم العربى يسعى للوجود فى إطار الحلم العربى الكبير سواء فى السياسة والاقتصاد أو الثقافة، مرورًا إلى الدوائر المحكمة خروجًا من الدوائر المفرغة.

غير أن المهم هنا أن الحلم العربى لم يبارع الإنسان العربى قط..

لم يبارح الإنسان العربى هذا التوق الشديد للتكتل عبر أى من صور الحلم وضرورة تحويله إلى واقع، وكان أهم صوره ما تمثل فى الرغبة الشديدة فى قيام محكمة العدل العربية، التى ولدت فكرتها مع إنشاء جامعة الدول العربية لمواكبة النظام العربى، والتى ما زالت ولادتها متعسرة.

ورغم أهمية الدعوة لهذه المحكمة والإحباطات التى واجهتها.

ورغم أن الدعوة استمرت كثيرًا إلى أقامة هذه المحكمة فى الجامعة العربية وخارجها، فإن الأمر لم يتجاوز الحلم رغم ما شهده الوطن العربى من نكبات ونكسات وهزائم ما زال أكثرها مستمرًا- رغم المقاومة الصلبة على الجانب الآخر..

ورغم أن الدعوة استمرت كثيرًا إلى إنشاء هذه المحكمة، فإن الأمر لم يجاوز هذا الحلم، خاصة أن عددًا لا يُستهان به من الأقطار العربية كان قد اعترض على هذا المشروع بحجج كثيرة وغير مقنعة إلى قرب نهاية التسعينيات من القرن الماضى، وقد أثير هذا كله فى وجدان الحاضرين حين تحدث الأمير بندر بن سلطان فى القاهرة منذ أيام عن «التحكيم» فإذا بنا جميعًا، حاضرى هذا اللقاء ومستمعيه نصعد إلى الحلم العربى عبر أهم

مشاهده: إقامة محكمة عدل عربية، وإذا بنا جميعا - فى حضرة الأمير نهفو إلى هذه المحكمة التى تمثل حكمًا عدلاً بين الأقطار العربية، خاصة أن الأخطار الأجنبية تتزايد عليها مع الوقت.

وخاصة كانت الأخطار الأجنبية فى معادلة الأمن بالوطن العربى خرجت بهذا المشهد - مشهد محكمة العدل الدولية - من الحلم إلى الواقع..

من الحلم الذى نعيش فيه، ونقترب به من التوق إلى الوحدة، وزيادة الأخطار الأجنبية ضد الأمة العربية دافع لتحويل أى حلم إلى واقع، وهو ما نقترب منه أكثر الآن..

فرغم أن مشهد إقامة محكمة العدل العربية سبقته محاولة ناجحة هى إقامة محكمة العدل الإسلامية لإقامة نظام قضائى فى كل من آسيا وإفريقيا، فإن إنشاء محكمة العدل العربية تظل من أهم المشاهد التى تخرج من الحلم إلى الواقع فى بداية الألفية الثالثة، حيث أن الاخطار الخلافية زادت بين الأقطار العربية بشكل يلفت الانتباه، خاصة منذ حرب الخليج الثانية 1990-1991 والأخطار الصهيونية عادت تطل بوجه أكثر بشاعة - عقب عودة الوجه القبيح - إلى رئاسة الوزراء.

الواقع أنه من الخطر بمكان - كما أسلفنا - أن نعتقد أن المشهد الأخير - لظهور الوجه القبيح، بعد انتخابات رئيس وزراء إسرائيل - هو ما زاد تروقنا للخروج من الحلم، وانما ما مرت به منطقتنا العربية فى النصف القرن الأخير..

إننا أمام تجارب كثيرة عالمية وإسلامية، نذكر منها محاكم كثيرة لا تصلح أبدًا لفض النزاع بين الإخوة فى وطننا العربى، ونستطيع أن نذكر، على سبيل المثال، المحكمة الإدارية للأمم المتحدة أو المحكمة الإدارية لمنظمة العمل الدولية والمحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان ومحكمة التحكيم

والمحكمة الجنائية الدولية والمحكمة الدائمة للعدل الدولى أو المحكمة الدولية للغنائم أو محكمة العدل الأوروبية أو محكمة التحكيمية.. إلى غير ذلك من المحاكم التى لا تصلح أولاً للقانون الشرعى، كما أنها لا تصلح لتغير العادات والتقاليد، بل لتطور الأطماع الغربية فى منطقتنا العربية بشكل يدعو بشدة إلى التوقف عند «محكمة تكون عربية»، ويكون لها موادها القانونية النابعة من الأمن العربى فى المقام الأول.

صحيح أن هناك «محكمة العدل الدولية الإسلامية»، رغم أن قانونها ينص على أن تكون فيصلاً «وحكمًا فيما ينشأ بين الأقطار الإسلامية».. فإنها- لأسباب كثيرة - كما لاحظ الزائر الكريم - توقفت، أضف إلى هذا أن استخدام لغات أخرى فيها كالإنجليزية والفرنسية تزيد الهوة انحرافًا بين الهدف الذى تسعى إليه محكمة تمتد إلى مساحات شاسعة فى إفريقيا وآسيا، والهدف الذى تسعى إليه محكمة تمتد إلى أنحاء (الوطن العربى وتكون لغتها الرئيسية هى العربية».

وما يقال عن أى محكمة تستعين بلغات أخرى غير العربية يقال عن أية محكمة لا تنتمى للوطن العربى بقضاياه الخاصة وهمومه الملتبسة كثيرًا من النزاعات المحلية، وقد ذكر فى هذا الأمير بندر هنا أن نزاعًا كان قد نشأ بين طرفين عربيين، ولجأ الطرفان متراضين إلى محكمة دولية عقدت فى باريس، ورغم أن المشكلات عربية والخلافات عربية والبحث عن الحل يجب أن ينبع من الحس العربى، فان الطرفان - العربيين - جلسا ليتحدثا بالفرنسية، وهو ما يلفت النظر إلى ضرورة تحويل مشهد المحكمة من العرب إلى الشرق، ومن اللغة الغربية (التى تحمل هويات مغايرة) إلى اللغة العربية (التى تحمل هوية عربية واحدة)، وما يقال عن تخصيص العربية - التى هى لغة هوية والتفكير - يقال عن الشريعة والأعراف فى المجتمع الإسلامى،

وقد لاحظ الأمير أن الملك عبدالعزيز فى بداية الثلاثينيات، وقد كان يعقد اتفاقيات دولية، وكانت اللغة التى تكتب بها ليست هى العربية، فان دراسة النصوص العربية التى كانت معها يمكن أن تمثل - إذا أعدنا النظر - توثيقًا فريدًا لوجهة نظر الشريعة الإسلامية، التى يمكن أن تعد من أصول أية اتفاقيات دولية أخرى، وهنا لا يغفل عن القيم الإسلامية فى وقت لا يتوقف عن تذكيرنا أن هذه القيم - الشرعية - لا تغاير أية قوانين دولية وإن جاءت فى نفسه السياق.

وهو ما «أستغرب» له كثيرًا من أن أحدًا لم ينتبه لعمق شريعتنا السمحة وتقدمها على أية قونين أخرى، بما يؤكد على حد قوله - إن لدينا فى الوطن العربى أقوالاً واعية الا نقلل منها.. وهو ما ذكرنا به حين أشار إلي «ديوان المظالم»، حيث تطبق الشريعة حيث لا يمكن أن يطبق أى قانون غربى آخر فى بلد عربى، وهو ما يعنى أن العربية السعودية هنا تنفيذ الأحكام التى لا تتعارض مع الأحكام الغربية فى حالة وجود طرف غير عربى فى هذه القضية أو تلك. وهو ما يشير إلى إشكالية التنفيذ.

الإشكالية فى العدل هنا اذن تتعلق بالتنفيذ فى وطننا العربى يجب أن تطبق قوانينا، وهو ما نريده من خصمنا، أن يطبق قوانين العدل التى هي - فى الأساس - قوانين الشريعة، وهنا أشار الأمير بندر:

- ومعلوم الآلية والمكيال الذى يستخدم ضدنا فى التنفيذ..

وهو ما أعادنا ثانية إلى المادة التاسعة من ميثاق الدول العربى لجعل الروابط بين الأعضاء أوثق ولإنشاء جامعة الدول العربية، وهو ما يعود بنا إلى التنبيه إلى جواز تعديل هذا الميثاق بأغلبية الثلثين للوصول إلى هذا الصدد.

وقد لاحظ أكثر من باحث أن السعى لتغيير آليات جامعة الدول

العربية، سواء بإنشاء محكمة عدل دولية أو إقامة روابط أوثق تفضى بنا إلى ضرورة السعى حثيثًا لإقامة هذه المحكمة، بيد أن الملاحظة الأكثر دلالة هنا أن الخطوات التى قطعت فى هذا السبيل - رغم زيادة الأخطار الأجنبية - ظلت محدودة الإنجازو.. وأنه على الصعيد المؤسسى اعترضت الأقطار العربية على مشروع محكمة العدل العربى الذى وضعه الخبراء، فلما طلب منها إبداء ملاحظتها على المشروع وأخذت هذه الملاحظات فى الاعتبار وصف بأنه أصبح غير متجانس.

وكانت هناك رغبة كادت تنجح فى إخراجه نت جدل أعمال مجلس الجامعة، بحجة أنه من اختصاص القمة العربية وليس المجلس، علمًا بأن القمم العربية حولت المشروع أكثر من مرة إلى المجلس، وطلبت منه العمل على إخراجه إلى حيز الوجود، وكان آخر هذه القمم قمة 1996.

ومع ذلك، فان المجلس واصل عجزه عن إتمام المشروع، بل كاد مرة أخرى لولا جهود الأمانة العامة برفعه من جداول أعماله، فى مفارقة واضحة من قرار القمة.

ويلاحظ هنا د. أحمد يوسف (الندوة التى نشرها مركز دراسات الوحدة العربية) أن النظام العربى ما زال عاجزًا عن إنجاز هذا المشروع الذى وإن كان لا يعول عليه كثيرا في حل الصراعات العربية - العربية المزمنة، إلا أن إنجازه سيكون من دون شك مؤشرًا على رغبة الأقطار العربية فى إخضاع بعض منازعاتها على الأقل- وليكن اليسير منها- لأليات قانونية، لعل ذلك يمثل بداية لعملية جديدة، يزداد فيها بالتدريج لجوء الأقطار العربية إلى حل منازعاتها البينية بالوسائل القضائية.

وبعد فقد أثار فينا الأمير بندر الحلم إلى إنشاء محكمة العدل العربية.. ففى وجود «كل» هذه الأخطار علينا من «الآخر» الذى هو فى الشمال، ومن

«الآخر» الذى هو بيننا، لا بد من وجود هذه المحكمة، ولابد من الخروج من دائرة الحلم قبل أن تصبح احلامنا كلها دوائر مفرغة إلى الواقع، حيث تتحول الأحلام- دائمًا- إلى واقع، شريطة التنبه قبل فوات الأوان.

التنبه إلى ضرورة العبور إلى الواقع قبل أن يتحول الحلم - حين يطول - إلى كابوس، وهو درس يجب أن نستفيد منه قبل أن يطول أيضًا!!

محكمة العدل العربية..من جديد

عقب أن نشرنا ـ الأسبوع الماضى ـ عن محكمة العدل العربية، وغيابها بين الحلم والواقع، جاءت إلينا ردود عديدة تعكس الواقع العربى المتردى منذ سنوات بعيدة خاصة، وعقب أزمة الخليج الثانية بوجه خاص، ثم حين أطل علينا الوجه القبيح عقب مجيئه إلى رئاسة الوزراء فى إسرائيل بوجه أخص.

والواقع أن محكمة العدل العربية، التى نجهد أن تمر من دائرة الحلم ـ قبل أن تتخثر ـ هى أكثر ما يجب التنبه إليها الآن، أكثر من أى وقت مضى، فقد زادت التراكمات السلبية حتى إنه لم يعد لدينا من الوقت ـ بعد ـ لنعيد النظر فى واقعنا هذا، فإما التنبه إلى أن تقع قضايانا بين أيدينا، فيصبح المكيال واحدًا، وإما أن يفلت منا فنظل نعامل بأكثر من مكيال فى هذا الزمن.

وهو الزمن الغربى الذى نعيش فيه وهو الذى نعرفه الآن بالفعل، ونمضى إليه وهو أيضا ما عثرنا عليه الآن لدى تعقيبات كثيرة، سنختار منها اثنين قبل أن نعود إلي «عين الطائر» لنرى كيف نرى ما يحدث لنا وحولنا ولنقترب أكثر من بعض هذه التعقيبات.

[2]

بعد أن يسهب حول ضرورة إقامة هذه المحكمة، خاصة وأن الخلافات

العربية فى أغلبها تتعلق بالحدود التى خلفها الاستعمار كمصدر للفتن، يؤكد المحامى «وحيد الأقصرى» ضرورة تفعيل القرار الصادر فى 5 / 9 / 1964 عن مؤتمر القمة العربى الثانى بإنشاء هذه المحكمة. إن الأمين العام للجنة المصرية لتوحيد الأمة العربية! يشير، بأسى، إلى حقيقة كيف مضت 37 عامًا وهذه اللجنة فى طى النسيان!! منذ تضمن قرار مؤتمر القمة، فإقامة هذه المحكمة ضرورية، ليس إلى تحقيق العدالة بين أقطارنا العربية فحسب، وإنما ـ أيضًا ـ لأنها تمثل معيارًا حقيقيًّا يحث العالم على احترام الكيان العربى، ويصل هنا إلى ملاحظة مهمة، هى:

«إن هذه المحكمة ستفسح المجال أمام وحدة القاعدة القانونية لدى أقطار الأمة، لبناء مجتمع عربى متكامل قادر على مواجهة ما يحيق به من أخطار، فالقاعدة القانونية، هى القاعدة التى يلتزم بها الناس قسرًا بقوة الدولة فى معاملاتهم، وهى ليست إطارًا للتصرف ولكنها قاعدة قيام كمه وكيفه، فإذا اتحدت أداة القياس فى مجتمع ما، اتحد التقدير وتشابه التفكير والتعبير والعمل حتى يكاد يتطابق».

القاعدة القانونية، إذن، هى التى تؤكد ضرورة قيام هذه المحكمة وتكون ـ فى الوقت نفسه ـ نتيجة من نتائجها.

ويضع المحامى والمثقف القومى بين أيدينا نصوصًا أساسية مقننة لمحكمة العدل الدولية، تصل إلى صفحات عديدة هنا، نضعها بين يدى المختصين أو من يهمه الأمر، فيطلبها ويسعى إلى إنشاء هذه المحكمة بالفعل لا الكلام المتقطع هنا وهناك.

ومع أن أستاذ القانون يركز على قيمة العدل لاحترام الالتزامات العربية فيما بينها، يأتى تعقيب أستاذ الحاسبات ليؤكد هذه القيمة ـ العدل ـ لما لهذه القيمة فى ثقافتنا من قيمة خالصة، تجعلها تختلف عن قيمة العدل فى الثقافة البيزنطية.

الثقافة البيزنطية هنا تقوم على ازدواجية المعايير وهو نمط ورثته منها الثقافة الغربية.

وهذا هو العدل الغربى اليوم.

وهنا ننقل بالنص بعض ما جاء فى الرسالة الأخرى، يكتب «د. محمد يونس الحملاوى»:

«.. جرى هذا فى ذهنى حينما نبهنا مقالكم بأن دولتين فى الخليج العربى ارتاتا أن تطبقا العدل الغربى بهذه الازدواجية فى المعايير، وأغلب الظن أن مربط الفرس هنا هو اللغة العربية فى جلسات المحكمة، وهو ما ذكرنى باجتماع عربى عقد الشهر الحالى أصر فيه متحدثو بعض الدول العربية على ألا يتحدثواأبدًا اللهم إلا بالإنجليزية، رغم أنف مندوبى الدول العربية الأخرى، ورغم وجود ترجمة فورية بين العربية والإنجليزية والفرنسية».

هل نحن فى حاجة لندرك ـ رغم أن الكاتب لا يصرح بهذا ـ أن ذلك جرى فى جامعة الدول العربية.

وهل نحن فى حاجة لنزيد ـ بوضوح جارح أكثر ـ ما لم يصرح به أيضًا؟

إن أكثر من مندوب عربى لدول بعينها لا نريد أن نذكرها هنا أصروا أن يتحدثوا بالإنجليزية فى «بيت العرب» فى وقت جاهد فيه مندوبو دول المغرب العربى فى ذلك الاجتماع أن يتحدثوا بالعربية، والعربية السليمة التى فاقت لغة الآخرين..!!

الإشادة بمن أصر أن يتكلم باللغة العربية.

والغيظ لمن آثر ألا يتحدث بلغة أبيه فى بيته وبين ذويه!

والعجب مما يحدث منَّا ولنا!

ومع أن الكاتب هنا يستطرد متفقًا معنا فى أمثلة أخرى، تدفعنا إلى إقامة هذه المحكمة العربية، لئلا نظل نتشدق بالعدالة والقانون، رغم أن هناك هوة عميقة فى مجتمعنا «بين القاعدة وتطبيقها عندنا».. فإنه يختلف معنا فى القول من أن تعثر الاتفاق على إنشاء محكمة العدل العربية مرده أنها ستذكرنا بسمو قيمنا المطلقة، وليس مرده القانون الـ... الذى هو (الآخر) بالتعريف؟ إنه يؤثر حديث القيم أكثر من حديث التهاون والخلاف والخديعة فيما بيننا.

إنه يتحدث عن كيف ينظر الآخر لنا، أكثر مما يحرص عليه من أن الآخر هنا (العدو) الداخلى أصبح هو الآن أكثر مما يجد، وأقل مما نقلل منه خطره علينا.

القضية أن محكمة العدل العربية لا تقام؛ لأن المعوقات الآن تجىء من داخلنا وليس من خارجنا.

ومع أننا لا نقلل من الخطر الخارجي، ولا ننفي «المؤامرة» فإننا يجب ألا نقلل - بحال - من الخطر الخارجى، ومن هذه «المؤامرة» التى تأتينا من الذات.

الذات أيها السادة تهزم أولا من الداخل قبل أن يأتى دور العامل الخارجى ليقوم بدوره.

[3]

باختصار، فإن وجود الأخطار علينا من «الآخر» الذى هو فى الشمال و «الآخر» الذى هو بيننا، وهو ما يتساوى فيه العدو الخارجى بالعدو الداخلى فى تعطيل العدالة بين الشعب العربى، وإذا كان التحفظ هنا أن نسمو بقيمنا المطلقة أو نحذر من «الآخر» الداخلى: سيان.. فإن الغفلة فى عالم يتأهب ليستأصل شأفتنا يمثل الخطر القادم، وهو قادم حتمًا ما دمنا سارين فى هذا التمزق الذى يزيد، رغم «كل» هذه الأخطار التى تتزايد علينا.

قادم أن نصبح نحن الهنود الحمر الجدد

وقادم أن تتحول لغتنا إلى اللغة اللاتينية وما يتبعها من مصير نعرفه جميعًا.

إن القضية ـ أيها السادة ـ أكثر من أن تحتمل مجادلات أو مقولات من أى نوع،
والزمن الغربى (الذى نعيش فيه) ليس لنا وليس فى صالحنا.

وما يحدث من استنزاف الآثار وقبلها العقول يؤدى بنا أكثر إلى تحت مستوى الخط الذى أصبح العالم يشهده الآن بين الشمال، شمال الخط الذى يبرع ويبرع فى التفوق فى التقنية الحديثة، وبين الجنوب، جنوب الخط الذى رجع ويرجع فى درجة التفوق فى هذه التقنية الحديثة.

إن زيادة هذا الفاصل أو هذه الهوة، التى تزيد التناقضات بين الشمال والجنوب (ونحن جزء من الجنوب)، الذى يطلق عليه خط التقسيم الجديد divide Digital بين الذين يتعاملون مع (التكنولوجيا الرقمية الحديثة) وبين الذين يسعون، ويسعون فقط إلى هذا يعوقهم الخلاف وظلم القربى والاختلافات الوهمية فى عالم أصبحت فيه العولمة ليست هى القول الشائع (الأمركة)، بقدر ما أصبحت ـ فيما اتضح أخيرًا ـ هي (الأوربة) أو مضافًا إليها الصفة ليصبح الشمال معاديًا للجنوب، وبشكل أدق ـ كما أشرنا ـ بين الشمال والجنوب.

هل بعدنا عن الحث على تحويل الحلم إلى واقع؟

تحويل فكرة «محكمة العدل العربية» من التوصية بإنشائها، أو تدجينها فى بعض الإشارات إلى الواقع، حيث تواجهنا التحديات الكبرى من الداخل والخارج..

على أية حال، لا نملك إلا أن ندعو جميعًا من يضع تقاليدنا العريقة،

وقيمنا المستقلة خلف جدران القيود التى لا بد لها من أن تنكسر، ليتحقق الحلم العربى، ليس فقط فى إنشاء محكمة عربية، بل فى أن تكون أول قضية تعرض عليها هى اتفاقات سايكس بيكو مع «المسطرة» التى تم بواسطتها ترسيم الحدود بين أجزاء وطننا العربى.

وهل يشك أحد أن «سايكس بيكو» العربية ما زالت قائمة؟!

عولمة أم عوربة.. وعصر المعلومات!

ماذا تطرح علينا هذه الثنائية؟!

ما زالت تطرح علينا هذه الثنائية/ القضية ـ كما طرحت منذ أكثر من نصف قرن ـ: عولمة أم عوربة؟

- هل ننتمى للغرب البعيد أم للشرق القريب؟

- هل ننتمى لريح العولمة وآلياتها: صناديق التمويل الدولية والشركات متعددة الجنسيات، وتكنولوجيا المعلومات، أم نحرص على قيمنا العربية الإسلامية وتراثنا القديم ومعرفتنا القائمة؟

- هل ننتمى لركب دافوس الذى أقيم أخيرًا (وقبله سياتل وواشنطن وملبورن..إلخ)، لأهل العولمة، أم للمؤتمر المضاد له فى مدينة (بورنو اليجر) بالبرازيل؟

.. ولأن القضية ما زالت تجد لها أنصارًا كثيرين: مؤيدين أم معارضين (كما طرحت فى تاريخنا بأشكال مغايرة)، فسوف نتمهل عندها هنا، واضعين فى الحسبان ما طرأ فقط هو موجة «العولمة» بآلياتها الجديدة وتوحشها الاقتصادى، حتى إن الدراسات الموثقة تخبرنا أن قارة مثل قارة إفريقيا ـ على سبيل المثال ـ بكاملها أصبحت فى خضم المحيط العالمى جزيرة فقر وبؤس وأمراض فتاكة.

وما يقال على قارة مثل إفريقيا يقال عن القارات الأخرى.

وما يقال عن مناطق كثيرة فى القارات الأخرى يقال عن المنطقة العربية، التى يعيش فيها الشعب العربى (وليس الشعوب)، كما تسعى آليات العولمة أن تحولها ليسهل التعامل معها، حتى لو زعمت أن العولمة هنا (الأوربة) كرمز هى النظام الذى يحقق للعالم الرخاء والنمو..

إنها قضية الماضى والحاضر، وكأننا لم نقطع فى العصر الحديث أكثر من قرنين من الزمان، وكأن أنوار النهضة خلال مفكرينا كل هذه الحقبة، اختفت من اجتهادنا ووعينا المعاصر.

وكأننا نبدأ فى كل مرة من جديد.

(2)

والواقع أن هذه الثنائية «عولمة» أم «عوربة»، لم يفلت أحد عندنا منها بشكل مباشر، إنها استمرت فى كتابات متفرقة، تغيب فى سياقات وتظهر فى سياقات أخرى، لكنها لم تختف قط، ومن هنا، فإننا نحسب أننا نتعامل معها للمرة الأولى، فتأتى الكتابات تطرح الأسئلة التى يكون الغرض منها الانحياز إما إلى الخلف، وإما إلى الحاضر، رغم أن التاريخ الفكرى والثقافى عندنا قد عرض له كثير فى ضرورة العودة إلى الوراء والعيش فى الحصار معًا.

أو كما يردد منذ الشيخ محمد عبده فى القرن التاسع عشر، وكل من طه حسين وزكى نجيب محمود فى القرن العشرين، من أننا لا بد أن نأخذ أحسن ما فى القديم وأحسن ما فى الجديد، لنعيد خلال هذه الثنائية المفترضة صهر قيمة جديدة، نستطيع من خلالها العيش فى هذا العصر، وأيضًا، أن نعيش فى هذا العصر ونحن نحمل هويتنا فى تكويننا، ونستفيد من عولميتنا فى التعامل

مع هذا العصر، فديننا ليس غير دين عالمى، ووعينا العصرى لا بد وأن يكون منتميًا ـ بصدق ـ إلى هذا الدين ما دمنا نقبل على الجديد بوعى ونستفيد منه بوعى أيضًا.

وكان آخر ما تعرض له ـ فى سياق طويل ـ هو د. نبيل على فى كتابه الأخير «الثقافة العربية وعصر العولمة»، حيث عرض فى أكثر من موضع من كتابه الضخم، فى السعى لحسم هذه القضية للعيش فى هذا العالم دون أن تتحول مصائرنا إلى مصائر شعوب أخرى لم تستطع الإجابة عن القضية/ السؤال، وهو ما برهن عليه فى عنوانها الثانى «رؤية لمستقبل الخطاب العربى»، وكانت هذه الرؤية للمستقبل بحثًا عن توازن اجتماعى واقتصادى وراء وعى ثقافى يمكننا من العيش فى عالم اليوم.

فعلى الرغم من أن المدخل المعلوماتى هو الذى يسيطر على «الخطاب» الرئيسى فى هذا الكتاب، فإن حتمية البحث عن وسيلة للعيش بكرامة فى هذا العالم، تدفع بنا للبحث عن التغيير والمطالبة بالديمقراطية، والتصدى للبيروقراطية، والحرص على شروط العيش فى هذا العصر تحت شمس تكنولوجيا المعلومات، التى تملأ علينا هذا الزمن «الزمن الغربي»، حتى نكاد لا نرى المرئيات إلا تحت شمس الغرب.

إن البحث عن هذا كله، يكون مرهونًا بالبحث عن تكتل عربى يمكنه التعامل مع التكتل الآخر أيًا كان موقعه فى الشمال..

إن نبيل على يطرح فى الغالب أسئلة تقترب كثيرًا من إجاباتها، فهى أسئلة محكمة، ولأنها ـ كذلك ـ فهى تقربنا من الإجابة أو تشير إلينا بالسير إليها فى طريق مأمون، غير أن الكاتب لم يضع ـ قط ـ تصورات أو إجابات شافية لهذا العصر غير الشفاف، إنه يطرح القضية على سبيل المثال بهذه الحيرة الدالة، يسأل الحاسوب الذى يتحدث فى الثقافة:

ـ ماذا جرى لنا فى وسط هذه الموجة من التكتلات العالمية والإقليمية السياسية والاقتصادية والإعلامية والتكنولوجية، لنعجز حتى الآن عن الوصول إلى صيغة الحد الأدنى لتكتل عربى، لم يعد ـ كما يؤكد الكثيرون ـ من قبيل الحمية القومية، بل مقوم أساسى لإحداث التنمية ومواجهة تحديات العولمة..

ونلاحظ مع الكاتب أنه يتحرج فى ترديد حديث البعض من أننا فى حاجة إلي «عوربة» لا عولمة، وندرك بعد قليل أنه يخرج من الإطار المحدد للعروبة بمعناها الشائع إلى آفاق أبعد.

بيد أننا نعبر هذا الآن، لنصل إلى أسئلة من نوع مغاير وإن تكن فى الموقع نفسه.

إنه يعود إلى طرح الأسئلة التى تحمل إجاباتها، وإن بدت تحمل إشكاليات عميقة، يضيف:

ـ وكيف فشلنا إلى الآن فى إقامة نوع من الحوار الاجتماعى بين حكوماتنا وشعوبها؟

وهل لنا بناء على ذلك أن نصدق ما يتردد على ألسنة البعض من أن حكوماتنا قد باتت فى عصور العولمة أصغر من مواجهة ضغوط الخارج، وأكبر من التعامل مع مشكلات الداخل؟

إننا هنا أمام ملاحظات كثيرة يحاول أن يطرحها هنا، ومن أهمها:

ـ هل «العوربة» هنا هى التقاليد العربية والماضى والتراث والعقيدة.. إلخ؟

ـ وهل «العولمة» هنا هى ضياع هيبة الحكومات العربية أو إضعافها؟

غير أن هذه الأسئلة تقترب بنا أكثر من الإجابة، أو هى تتضمن إجاباتها كما أسلفنا.

(3)

إن الإجابات هنا تتناثر فى الكتاب كله، فالعنوان يحتوى على دلالاته، فالعوربة هنا التى تحمل قيم العقيدة، والتى تمثل مرحلة سابقة للوصول إلى العقيدة، هى لا تتعارض أبدًا مع ضرورة العيش مع مثل هذه «العولمة» التى نحيا معها الآن، ورغم أن اللجاج زاد كثيرًا عبر آلاف من المؤتمرات التى تعقد منذ بدايات التسعينيات حول العولمة، ورغم أن البحث مستمر عن الدفاع مرة عن «العوربة» ومرة عن «العولمة»، ومرة عن التواصل بين الاثنتين.

والواقع أننا لا يمكن أن نبنى الأمة العربية (الدول العربية) فى غيبة معطيات هذه «العولمة» بوجهها الإيجابى: الوعى بقيمنا وعقيدتنا، والتنمية والتعامل مع اقتصاد السوق بوعى وباتفاق متكافئ مع الطرف الآخر، وتوطين التكنولوجيا المتقدمة.. إلى غير ذلك قط، رغم ما يتردد من شعارات ومشاجرات فارغة اليوم.

إن الكاتب هنا يلاحظ البعض فى هذه المنطقة لا يجد الخلاص إلا فى الملاذ الروحى والصحوة الإيمانية فقط، وهو ما يشير الى رفض العولمة مع توق لحلم مثالى أو «طوبائي»، وكان الإنسان لا بد أن يضع نفسه على أحد الطريقين: إما العولمة أو العوربة، لا طريق ثالث بينهما.

وكان الرفض لهذا الاتجاه أو ذاك هو رفض يهبنا «الخلاص» للعيش فى هذا العصر.

ومع أن هذا الموقف عرفناه منذ القرن الماضى، والذى يتمثل فى ثنائية: القديم والجديد مع فارق الزمن وفائض الاكتشافات التقنية الرقمية، فإننا ما زلنا حتى الآن نردد هذه الثنائية فى حيرة لا نحسم شيئًا.

والملاحظ هنا أن صاحب هذا الجهد يسعى ليؤكد (فى محاولة للإجابة

الآن..) أن العولمة باتت واقعًا لا مفر من التعامل معه، فليست هى بالفجر البازغ، ولا بالفخ الخادع، وعلى عاتقنا تقع مسئولية العيش فى ظل ما تفرضه من قيود وما تتيحه من فرص، ولن يتأتى لنا ذلك إلا إذا تفهمنا بعمق شديد علاقة منظومة الثقافة بمنظومة تكنولوجيا المعلومات، خاصة محليًّا.

وعلى هذا نصل إلى أنه لا يجب الفصل قط بين ما هو جديد وما هو قديم.

والوعى هنا يعنى الإقبال على علوم العصر وليس الغياب عنها.

ويعنى الحرص على قيمنا التى تحثنا على الإقبال على هذا العصر وليس الفرار منه.

والوعى هنا أن نرفض مع الكاتب مقولة إن علينا أن نفكر عالميًّا ونتصرف محليًّا، لكن هذا الفصل غير دقيق للتعامل مع هذا العصر، إذ يجب أن نفكر عالميا ومحليًّا ونتصرف عالميًّا ومحليًّا معًا، وبهذا، فإننا لا نعود إلى القوقع القديم، ولا نذوب فى البحر الحديث.

وعلى هذا النحو، فإن تعبير عولمة Globalization الذى يعنى طرفًا واحدًا من الثنائية، يجب أن يتحول عولمة محلية Glocalism أو لا عولمة ولا عروبة فقط، وهذا التعبير الأخير يمكن أن نوافق عليه هنا، فلا يمكن أن نصبح مشدوهين إلى الخلف فقط، أو مبهورين بالأمام فقط، وإنما يجب أن نكون فى تكويننا العصرى حاصل قيم القديم وواقع الجديد فى آن واحد فى بداية الألفية الثالثة..

«دوت.نت» والقمة العربية

أولاً

أكثر ما دفعنا لكتابة هذه السطور ما أعلن عنه أخيرًا من أنه سيعقد قريبًا منتدى أو تجمع أطلق عليه «القمة العربية للتكنولوجيا»..

وإن ـ هكذا أعلن أيضًا ـ ذلك هو استجابة لتوصيات الدول العربية فى عمان العام الماضى بضرورة اقامة منتدى الأعمال العربى لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات للحاق بالثورة العلمية فى العالم، وتعويضًا عن تفتت الثروة العربية على المستوى الاقتصادى، ولم يبق غير اللحاق بركب التقنية والثورة المعلوماتية.

وإن ـ هكذا أيضًا وأيضًا ـ ذلك كان تذكيرا بتأسيس ما سمى تأسيس الاتحاد العربى لتكنولوجيا المعلومات داخل مجلس الوحدة الاقتصادية (وهو اتحاد غير حكومى).

هذا وغيره دفعنى لتساؤلات كثيرة تلح علىّ منذ زمن بعيد:

- هل سيكون لدينا قمة عربية ـ حقًا ـ لتكنولوجيا المعلومات؟
- وهل سيتم ذلك على المستوى العربى العام (لا الخاص)؟
- وهل سيطول هذا الوعى الاقتصادى فضلاً عن السياسى؟

إن هذه الأسئلة تطرح ونحن نبتلع المرارة التى طالت فكدنا نحسبها واقعًا لأكثر من نصف قرن على دخولنا التحدى مع الغرب، سواء أكان فى الولايات المتحدة ـ بقواها التكنولوجيا العملاقة أو مع إسرائيل بقواها التكنولوجية العدوانية.

بل إن ما أعلن أثار فينا هذا الواقع الميلودرامى للبحث الضائع عن الوحدة السياسية ـ الغائبة ـ والوحدة الاقتصادية ـ الغائبة أيضًا.

وهو ما يثير مشاعر الألم التى نحياها الآن ويجدد دوائر الأمل التى لا نراها تكبر وتتسع إلا فى أحلامنا.

فلنتابع ـ معًا ـ ما نسمع عنه أكثر قبل أن نراجع ما هبط منه إلى أرض الواقع.

(2)

إن الواقع أمامنا ليس جديدًا ومن يتابع الأحوال العربية الميلودرامية فى الفترة الأخيرة يلاحظ استمرار الإحباطات التى نواجهها من القمم العربية التى تحدث من آن لآخر.

قبلها ظللنا نردد لسنوات كلامًا كثيرًا عن القمم الاقتصادية وضرورة استبدال بالوحدة السياسية ـ ما داموا يريدون أن يرونا أنها من رابع المستحيلات ـ الوحدة الاقتصادية.

ولا نريد أن نتحدث طويلاً عن ضرورة قيام وحدة اقتصادية دعت إليها جامعة الدول العربية و «كل» اللقاءات والقمم السابقة، فحتى الوحدة الاقتصادية لم تقم، وحتى العمل بشكل واقعى بين بعض الاقطار (كالاتحاد المغاربى أو مجلس التعاون الخليجى) لم يحقق واقعًا إيجابيًّا حقيقيًّا يتطور بتوسيع الدائرة، بل إننا ـ أكثر من هذا ـ لم نستطع إنجاز ما يسمى بالوحدة

الاقتصادية عبر «الدولة الإقليم» بين دولتين لإحراز شيء من الاتفاق الاقتصادى فى مواجهة الآخر.

ليس هذا تشاؤما وإنما هو «حالة» تعيشها أمتنا العربية عبر أقطارها التى تزيد على العشرين قطرًا نعم تزيد على العشرين قطرًا، ولا تملك - حتى - من وسائل التقنية الحديثة والوسائل الرقمية ما تستطيع أن تواصل به «المقاومة» والتصدى لعمليات الإبادة فى الجغرافيا أو اللغة.

إن تخلفنا على المستوى التكنولوجى حقيقة لا تحتاج إلى أرقام، والأرقام كثيرة بين أيدينا، كما أن تمزقنا على المستوى الجغرافى واللغوى لا يحتاج إلى برهان، والواقع القاسى المرير يحيط بنا من كل جانب حتى محاولاتنا الدائبة فى مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصال تصيبنا بخيبة مريرة والأمثلة هنا كثيرة.

والأمثلة لا تحتاج إلى مراجعة الأمثلة لا تحتاج أن نعاند، فالأمر أخطر من هذا كله.

وهو ما ينقلنا إلى النظر إلى عدة مشاهد قاتمة فى هذا الواقع العربى الآن.

فمن يتابع الشبكة العربية يلاحظ أنه مع تصاعد الحملة الشرسة ضد أهلنا فى فلسطين، فإن النبرة تعلو فى كل موقع بمعزل عن مواقع الدول الأخرى، ولا بأس من أن نسمع فيها عن «الهاكرز» العرب التى تحارب معاركها ولكن متفرقة ولا يوجد اتفاق عربى واحد بينهم، كما لا يمكن أن نعثر على اتفاق أو تعاون مشترك بين كل موقع عربى فى قطر وغيره فى قطر واحد، رغم كثرة المواقع العربية ولكن تناثرها كثيف، رغم أن الحدث الدامى بيننا جميعًا واحد.

وبمراجعة الصحف التى تصدر من سنوات، ومضاهاتها بالمواقع على

الشبكة العربية (لا العالمية)، فسوف نجد مشروعات تقام فى كل دولة وكأنها منفصلة تمام الانفصال عن الأخرى.

حتى ما بقى لنا- الوحدة الثقافية أو الرقمية لم يعد لنا..

وهو ما نتمهل عنده أكثر لخطورته.

(3)

وهو ما نراه عبر عدة مشاهد شتى..

انظر على سبيل المثال الإعلان عن هذا الرقم السحرى فى أحد المواقع التى تتحدث عن «حكومة دبى الإليكترونية» أقيمت فى منتصف عام 2000، فسوف نجدها حكومة إليكترونية قطرية ليست لها أية علاقة بغيرها من الأقطار العربية، اللهم بالجانب القطرى حيث يصاحبها شركة تجاريكوم COM.TIJSRI، وحيث تشترى منها فى الداخل.

وهذا يعنى أن التركيز اليوم لا يغادر اثنين: الحكومة الإليكترونية والتجارة الإليكترونية، وحتى التركيز على هذين لا يغادر الإنجليزية، وهى اللغة الوحيدة التى تستخدم فى هذا المجال.

وأيضًا مركز المعلومات الوطنى الأردنى الذى أنشئ فى التسعينيات، كأحد مراكز البحث العلمى والتقنية ولكن فى إطار القطرية الخالصة.

وأيضًا حيث تعلن وزارة التنمية المحلية المصرية ـ على سبيل المثال ـ عن مثل هذه الحكومة ولا تكاد تخرج عن الهدف السابق.

وإن تلازم مع هذا من آن لآخر كلام متناثر عن التعاون بين قطر عربى وقطر عربى آخر فى حين أن كل حكومة تعمل بمعزل عن غيرها من الحكومات العربية، صحيح أن التطور التقنى فى بلد مثل قطر وصل إلى درجة عالية، غير أن الذى يلفت النظر أنه تطور لا يخرج عن هذا القطر إلى

سواه من الأقطار العربية الأخرى فى تعاون يقترب بنا من الوحدات الإقليمية المتعاونة فى إطار ما يسمى فى الجغرافيا «بالاقليم الواحد» الذى يضم أكثر من قطر ويكون منتظرًا لدمج أقطار غيره فى مشروع عربى تقني/ ثقافى واحد.

وبدهى هنا أن الوعى بالتقنية العربية لا يقلل من الوعى بالتقنية القطرية، فكما أننا لا نستطيع أن نتحدث عن وعى قومى دون أن يسبقه وعى إقليمى، وأن الوعى العربى لا يلغى الوعى الوطنى، كذلك فإن الوعى بالتقنية الدقيقة فى كل قطر أمر لا بد منه للوصول إلى تقنية أشمل تمتد إلى الوطن العربى.

ولا يمكن أن نحقق وعيًا تقنيًا عربيًّا عاليًا فى غيبة وعى قطرى، وإنما يجب التنبه إلى أن تحقيق التقدم التقنى العربى يسبقه الوعى القطرى ويؤكده ويدعمه إلى حد بعيد اأنظر على سبيل المثال مقالات د. على السلمى فى الأهرام فى الفترة السابقة).

ربما كانت الوحدة التقنية على المستوى العربى تتردد كثيرًا على المستوى التجاري، وهو ما يعود بنا إلى أمرين متصلين أشد الاتصال، إن الحديث عن صناعة المعلومات والبرمجيات فى الصحف العربية ترتبط برجال الأعمال، فالجانب التجارى الرأسمالى الشخصى الذى أصبح يستحوذ على الاقتصاد الذى تصنعه الدولة باسم القطاع الخاص، وفى جبهة رجال الأعمال الذين لا يرتبطون بالدولة كثيرًا اللهم فى مجال المصلحة المباشرة. وهى دائمًا مصلحة ذاتية نرجسية انتهازية تذهب إلى تل أبيب أو إلى واشنطن أو أى مكان توجد فيه مصلحتها التجارية. وهو ما يرتبط بالعامل الآخر، وهو ما يتمثل (حين نتحدث عن صناعة المعلومات والبرمجيات) حين نجد أن الوعى بهذه الصناعة إنما يرتبط عالميًّا باستحواذ الشركات العالمية على حجم السوق

المحلية فى كل قطر على حدة، حتى إن الإحصاءات تشير إلى أن استحواذ الشركات العالمية يصل إلى 95% من حجم السوق المحلية، وهذا يهدد ـ بالتبعية ـ الدور الوطنى فى الاقتصاد لصالح حسابات «العولمة» فى شركاتها ومبيعاتها التى ترتبط بالسوق العالمية فى عصر الرأسمالية الشرسة.

إن الشركات الوطنية أصبحت الآن تواجه بقوى أكبر وأخطر منها، فمن الممكن لكل دولة أن تمتلك مقومات صناعة قوية، غير أن الوصول إلي صيغة «الفعل» العربية بعيد كل البعد، فاحتياجات السوق أهم من التعريب، والتوكيل الذى يأتى من الغرب له من الشروط الصعبة التى تحول بيننا وبين الاستقلال الوطنى فى إطار عربى متكاتف.. هناك بعض الجهود فى هذا الصدد، غير أنها تدور فى إطار العولمة الغربية ولا تستطيع أن تجاوزها، وبعيدًا عن الوعى القومى العربى وما زلنا بعيدًا عنه.

وهنا نصل ثانية إلى «القمة العربية» المقترحة فى مجال التكنولوجيا، فإن النظرة العجلى لمحاورها المقترحة لا تشير إلى كثير من الأمل، فهى لا تسعى فى الغالب إلا لتحقيق هذا الجانب العام (لا الاقتصادى العميق) كان تتحدث أحد هذه المحاور عن ربط الدول العربية بمركز اتصالات موحد، وهو المعروف «بالكول سنتر» يتلقى جميع الشكاوى الخاصة بالأعطال التليفونية.

ربما سمعنا عن تنمية المشروعات العربية تتبناها مجموعة عربية، غير أننا سرعان ما نعرف أن ذلك يكون بقصد تنمية التجارة وتسويقها محليًّا أو عربيًّا أو عالميًّا، ولا بأس من الحديث عن إنشاء دليل على الانترنت ولكن «لشركات القطاع الخاص» فقط.

ولا بأس من أن نسمع ـ فى هذا المجال ـ عن كلام جميل يرتبط بضرورة ربط رؤية قطاع الأعمال العربى فيما يتعلق بالقضايا المطروحة على المستوى

القومى العربي المطروحة وتنمية وتوسيع السوق العربية فى مجال التكنولوجيا والعمل على استخدام التطبيقات العربية.. وما إلى ذلك.

بيد أن أهم ما يطرح هنا هل حقًّا ستتحول أهداف القمة الآتية إلى وعى يترجم عبر الشراكة والاتحادات العربية فى عالم الاقتصاد والقضايا الحكومية العربية فى علاقتها ببعضها البعض ثم علاقاتها بغيرها، فلندع القمة العربية للتكنولوجيا.. ونقترب من جديد إلى الواقع.

دوت.نت..والهوية العربية

ثانيًا

.. رأينا كيف غاب حلم الوحدة العربية ـ حتى ـ على المستوى التقنى (بعد غياب على المستويات الأخرى: كالسياسى والاقتصادى.. إلخ)، ورأينا أن مظاهر هذا الغياب ما زالت قائمة، خاصة فى أهم عناصر الهوية وأخطرها، على الإطلاق، فى مجال اللغة العربية.

إن غياب اللغة العربية قائم ومؤكد على جميع النطاقات المعلوماتية والتكنولوجية، خاصة فى عالم الشبكة (مواقع الإنترنت) بشكل يؤلم الوعى العربى الذى نفتقده كثيرًا كأمة عربية فى مواجهة هذا العالم الذى سعى ـ عبر قطاعاته المتقدمة ـ إلى توحيد أدوات استخدام اللغة (خاصة الإنجليزية)، ويسرع هو ـ أو غيره ـ لتوحيد أكثر مثل هذه النطاقات والعناوين فى غيبة وعى عربى بضرورة التسرع إلى استخدام العربية فى الشبكة، على الأقل ـ على المستوى العربى المعاصر، فمن المؤكد أننا لا نستطيع استخدام العربية على الشبكة العالمية أو أرغام الآخرين لذلك اللواقع المؤلم الذى نعيش فيه على المستوى العربى، ومن ثم، فإنه لا يبقى لنا غير التسريع لاستخدام العربية فى «عناوين» مواقع الإنترنت، بما يشير إلى التوحيد فى المعايير العربية

للغة التى تسهم كثيّرا فى تأكيد الهوية وتسرع بالوعى العربى على المستوى التكنولوجى.

وهو هنا يطرح أمامنا وعيًا غائبًا، وفى الوقت نفسه سعيًا لتحويل الوعى الغائب إلى حضور مؤكد.

فلنتمهل عند الوعى الغائب.

عند غياب الوعى بالعربية تحديدا.

والعربية هى أهم عناصر الهوية العربية، على الإطلاق.

(2)

والوعى الغائب يمكن التعرف عليه ببساطة شديدة حين نتهيأ للجلوس أمام جهاز الإنترنت، فإذا أسماء النطاقات (عناوين مواقع الإنترنت) بالإنجليزية الخالصة، بدءًا من تحديد اسم الموقع وصولاً إلى تحديد الشركة أو الجهة المؤسسة المتجهة إليها.

ولا أستطيع ـ رغم الضغط النفسى ـ أن أترك هنا بين يدى القارئ الكريم نماذج وأمثلة كثيرة تؤذى المشاعر التى يقال إنها تتلقى لغة الشعر بكل ما فى الشعر من رقة وعذوبة فائقتين.

إننا نجد توزع اللغة بين لهجات، وما يعكسه هذا من أقطار وحسب، كما لا نجد تفتت الأقطار العربية إلى أقطار ومواطن ليس بينها أية علاقة وحسب.

وإنما الأمر يجاوز هذا كله إلى رطانات ولهجات وطرق غريبة لا نعرف كيف نصنفها فى الموقع الواحد، حتى إن حلم القراءة بالعربية يتبدد، فإذا بنا أمام كابوس، أحاول معه أن أتغلب على ثقل أجفانى وبرودة قلبى لأفهم ما

يقال.. فأعجز عن فهم أى شىء من هذه العربية التى تكتب أمامنا بحروف عربية.

ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

ما زلنا نتحدث عما يكتب هنا أو هناك بالعربية، أو بالحروف العربية، أما حين يتحول الأمر بمهزلة أخرى نقرن فيها المعنى العربى بحروف ومصطلحات لاتينية، فإن الأمر يصل إلى أقصاه هنا، ماذا يحدث؟

ولماذا لا يكتب لنا هذا العربى (العربى) بلغة ذويه؟ ولمن يكتب؟ لمن يوجه خطابه؟ أقول لمحدثى المشدوه مما يرى، ربما كانت هناك لغة عالمية أخرى لم نعد نعرفها نحن المثقفين المتحذلقين، فيحك رأسه، ويعدل مقعده، ويحاول النظر أكثر فيما يكتب أمامه دون أن يفهم شيئًا ويرتد النظر خاسئًا، والعقل معتلاً مجهدًا إلى موقع آخر.

(3)

وترتد الذائقة العربية على أصحابها، لنكتفى بها لنعود أدراجنا إلى موقع آخر.. فلا يمضى وقت طويل إلا ويعود صوت محدثى عاليًا:

ـ وهل تعرف اللغة التى يتحدث بها العرب عبر الشبكة مع أنفسهم؟

ـ أليست هى العربية؟

أسئلة ويعود إلى الحديث كانه لا يسمعنى:

ـ تستطيع أن تتابع اللغة العربية (العربية) التى تتردد الآن فى المواقع العربية التى نتعامل بها ونعرفها جميعًا.. إنك فى المغرب العربى أمام لغة غريبة علينا وهو ما نجده إلى حد كبير فى أغلب الأقطار العربية، خاصة من بين الشباب.. فإذا اقتربنا من هذه اللغة العربية فى بلد محدد ـ وليكن فى لبنان ـ فسوف نجد قواعد غريبة متبعة انبثقت من عقول الشباب العربى هناك

وأعلن عنها فى كل الشبكات التى تتصل بعلاقة ما بهذه اللغة أو ترتبط بأصحابها..

إننا أمام خلط للعربية أو «هواية» للخلط على حساب اللغة يستحدث أصحابها مصطلحات لغوية أصبحت هى المعجم الجديد أو اللغة الجديدة التى يتعاملون بها عوضًا عن العربية فيما بينهم، ربما بحجة اختصار الوقت أو ربما لزعمهم ـ وأعجب مثلنا ـ لأنهم يؤكدون سعة معرفتهم وتعمقهم بآليات الويب، ومن ثم فهم أصحاب مواقف تقنية متقدمة تظهر أكثر ما يظهر فى الكتابة..

إنها لغات كثيرة تكتب باسم العربية.. ولعل من أهمها لغة التحادث الإليكترونى المعروفة بلغة التشاتينج.

وتأتى هذه اللغة لتستخدم فى أقطار عربية كثيرة ـ على سبيل المثال لبنان ـ لتبتكر فيها أحرف وحروف تكتب بالأجنبية وتلفظ بالعربية دلالة على حرف أو كلمة عربية لا ترجمة لها أصلاً فى اللغة الأجنبية.

ونستطيع أن نتعرف على أمثلة مخيفة لهذه اللغة الآن، إذ يمكن التحديق فى لغة التحادث الإليكترونى بها لنلاحظ ـ على سبيل المثال ـ رقم 3 يستخدم بدلاً من حرف العين (هل هذا معقول؟) أو يمكن استخدام فاصلة الإدغام المعروفة بالفرنسيةApostroph لتقوم بدور الهمزة فى العربية الفصحى (هل هذا معقول؟).. ونستطيع أن نشير إلى عشرات الأمثلة التى تفسد أمامنا العربية وتتحول عبر ممارسات ليست لها أية علاقة بالعربية إلى لغة للتعامل باللسان العربى وبين العرب.

الأكثر من هذا ـ كما يشير البعض فأن من يصعب عليه التحدث بالعربية (المفرنسة) فى بلد كبيروت أو المغرب أو العربية (المأمركة) فى بلد كالسودان، فإنه يستطيع اللجوء مباشرة إلى اللغة الأم الفرنسية أو الإنجليزية التى تتردى تمامًا أما ضعف الجيل الجديد لإجادته هذه اللغة أو تلك..

وهو ما يصل بنا إلى غياب العربية فى اللغة المستخدمة بين العرب باللجوء إلى هذه اللغات الكثيرة التى انتشرت عبر الشبكات العالمية، فلا إتقان للغة الأم (العربية) ولا كتابة صحيحة للغة الآخرى ـ وهو ما يخرج بنا من اللغة الأم ـ بشكل يؤكد أن الضعف لم يقتصر على اللغة العربية وحسب، وإنما امتد إلى اللغة الأجنبية الأخرى التى يجب التعامل معها ـ عصريًا ـ بجدية لا استخدام الحروف اللاتينية منها فى التفاهم بالعربية منا..

وحتى إذا كانت هذه اللغات التى انتشرت عبر التحادث الإليكترونى للتحرر من العربية هى وسيلة سهلة للتعامل، فإنها وسيلة تحول ـ بالقطع ـ بين أبناء اللغة ـ ليس فى التجاور وحسب، وإنما فى التفكير أيضًا، فلم نعد نفكر بطريقة واحدة، ولم نعد نحرص على التعامل بلغتنا (هويتنا) بالقدر الذى يحفظ لنا كياننا فى هذا العالم الغربى، فإذا جاوزنا هذه النطاقات إلى الداخل، لروعنا فى المواقع العربية بوجه خاص، فاللغة العربية غير مستقيمة بأية حال، إنها تكتب ـ حين نستخدم الحروف العربية ـ بغيات الأملاء الصحيح، تزخر بالتعريفات المختلفة لدى شباب لا يعرفون من لغتهم العربية إلا ما يردد بين شباب الجامعة ممن أصبحوا يتعاملون فيما بينهم بعربية لا نعرف عنها شيئًا، إنها لغة غريبة عنا (حوشية)، لا تمتلئ بالأملاء القبيح فقط، وإنما باستبدال الألفاظ العادية ألفاظًا غريبة ملتفة مغيرة مستبدلة مما يعجب المرء أمامه..

وهو ما نجده بشكل أكثر وضوحًا فى هذه اللغة التى تجرى فى المواقع التى يتم فيها الحوارات بين الشباب، كما تظهر فى رسائل (الإميل) بشكل أو ذاك، ممن يزعم أنه يكتب شعرًا فصيحًا، فإذا بنا أمام كلمات ليست لها أية علاقة بالعربية، دعك من الفصحى وضرورتها.. أعود لأردد مع البعض هى العربية هنا لغة بغير قواعد؟

وأسأل مع د. محمد حملاوى الذى قضى وقتًا غير قليل لفحص ـ لا فهم ـ ما يحدث أمامنا، ثم أردد معه عناوين فقط نحاول أن نفهم بها ما يحدث:

ـ أين أخلاقيات اللغة والثقافة؟

ـ ثم أين المسئولية المجتمعية للمتعاملين مع اللغة والتقنيات؟

ونقترب أكثر مما أمامنا فنسأل ونجيب عن «الالف المقصورة والياء»، فالمعروف أن ياء آخر الكلمة تأخذ صورة الألف المقصورة، وهو أمر أصبح لغويًا والإجبار على غير ذلك غير جائز..

ـ ثم ـ وهذا أمر آخر ـ أين الفارق هنا بين الهاء والتاء المربوطة؟

ونصل للحيرة إلى أقصاها حين نردد وعيوننا على الويب:

ـ اليس كل شكل من الأشكال متفردًا لا يقوم غيره مكانه؟

نترك الأسئلة، فإجاباتها بدهية تمامًا، وهو ـ بالتبعية ـ من أصل اللغة وضرورتها، فالحيرة تحيط بنا من كل جانب وتصل الحيرة إلى أقصاها حين نجد فى هذا الموقع أو ذاك ممن يطلقون على أنفسهم أو على مواقعهم ما يسمى «بالقصيدة الشعبية»..

وهذه القصيدة نجدها تردد بغموض وغرابة شديدين بين شباب المشرق العربى..

وبعد، ألا نجد أن العربية الآن تعمل بالسلب، وتزيد من المسافات بين أبناء الهوية الواحدة.. أن أكثر ما نصاب فى هويتنا هى مصيبتنا فى لغتنا العربية..

هل نستطيع أن نقول بعد هذا، بعد غياب العربية أو غياب الهوية، أننا ماضون إلى الحلم القومى والوحدة العربية..؟

هل نستطيع؟

ثالثًا

ما كدت أكتب عن غياب العربية أو تغييبها من الشبكة العالمية (الإنترنت).. حتى لفت نظرى ردود أفعال متوالية تأتى ليس من الأفراد فقط، وإنما من المؤسسات التى تعتمد ـ فى أغلبها ـ على تكنولوجيا المعلومات، خاصة فى استخدام قدراتها وإصداراتها فى تكنولوجيا المعلومات، وفى برهنة البعض على أن هناك جهودًا ـ وإن كانت نادرة ـ تسعى حثيثًا للحيلولة دون سقوط العربية التى هى أهم عناصر الهوية، ومن هنا فقد أرى أمامى طرفان أحدهما يغضب من غياب اللغة والعبث بمكونات الأمة، والآخر يعتب لغياب الاهتمام بجهود التطوير والبرمجة وإن كانت ضعيفة..

وعلى هذا النحو وجدت نفسى بين نوعين من الردود: رد يسعى إلى الحديث عن غياب اللغة، والآخر يسعى إلى الجهود التكنولوجية التى تبذل لها. أحدهما هذا المثقف الخبير والآخر هو التكنو ـ مثقف، بيد أننا قبل أن نسهب حول هذا المثقف أو ذاك، لنتعرف أولاً على بعض ماجاءنا بالفاكس أو الإيميل أو باللقاء المباشر لنقترب أكثر من بعض هذه الردود.. ونفكر معًا بصوت عال..

(2)

كانت البداية هذه الرسائل المكتوبة المرسلة التى تحمل غضبًا حادًّا من تغيب العربية من هذه الشبكة العنكبوتية، وهو تغيب وصل إلى أقصاه، دفع البعض ـ كما سنرى ـ إلى اتهام أولئك الذين يهملون لغتنا أنهم يصبحون ـ

هكذا جاء الوصف التالى.. أقرب إلى قوارب الرجوب الذى دفع أكثر من أربعمائة فدائى إلى، وتصل الحيرة إلى أقصاها حين يضيف هنا:

دون أن يدرى البعض منًّا أى قارب يستقلون..

والواقع أن المعنى القاسى لإهمال العربية أو المصير القاسى الذى ندفع إليه فى حالة غياب أو تغييب العربية كان الصوت الأكثر وضوحًا فى هذه الأصوات التى علت بين كومة الأوراق أمامى، وهكذا تنفلت من بين أيدينا الهوية وهو معنى ردد أكثر، وتختلط الثقافة بالسياسة بالمصير الواحد.. وهو معنى أصبح سائدًا وهو معنى أصبح أقرب إلى الوعى المذعور - إذا جاز التعبير - لدى من كتب إلينا، أن الكثيرين أشاروا إلى العصر الماضى الذى كادوا يحاربون من المحتل الانجليزى حين أصدر الإنجليز قرارا عام 1889 بأن تكون لغة التعليم فى المدارس المصرية هى الإنجليزية وكاد يهدد هذا بكارثة لولا وعى مثقفينا وسياسيينا، حيث بادر أعضاء الجمعية التشريعية إلى الغضب فأسرعوا باقتراح يطالبون فيه بإرجاع العربية كلغة تعليم فى المدارس المصرية، وتم هذا بالفعل، وكان ذلك فى الماضى أما الحاضر فى عهد الحاسوب فإن الأمر اختلف كثيرًا نقرأ من رسالة لأستاذ هندسة الحاسبات بهندسة الأزهر:

لنعد إلى عصر الحاسوب الذى أتى إلينا بكل إمكاناته الذى لا يدانيه فيها عصر آخر ولم نستوعبه بل كان لنا عصرا للمتعة والتسلية لا للعمل والعلم، أشير فى هذا إلى أغلب تعاملاتنا مع هذا العصر الذى يحلو لنا أن نشارك فيه من باب النظر لا غير رغم أننا لا نعدم الحيلة للمشاركة فيه بفاعلية، لغتنا العربية لا نبذل لها غالبًا جهدًا إلا فيما ندر، ونتباهى بأننا نحتسى من موائد اللئام، لن أشير إلى تفوق اللغة العربية التى لكل حرف منها صوت واحد عكس اللغات التى يتهافت البعض على التقاط كلمات منها وليس تعلمها،

والتى توجد بها أصوات لا حروف لها بل تركيبة حروف، والتى تنطق فيها بعض الحروف بعدة أصوات. لقد انتقلت لنا على شبكة الإنترنت مختلف الممارسات الهابطة للعديد من شبابنا ولكن ما زالت هذه الشبكة تحمل فى طياتها العديد من الإيجابيات التى أدعو شبابنا، وأبناءنا إلى أن ينهلوا منها النافع والمفيد لغويًا أو علميًّا.

ما زالت اللغة العربية إحدى آليات مساهمتنا فى عصر الحاسوب، ولكن كما يقول المثل الفرنسى إن الظلم لا يولد ثورة بل إن ما يولد الثورة هو الإحساس بالظلم، للأسف لا يشعر أغلبنا بأن عليه جهدًا مجتمعيًّا تجاه أمتنا وتجاه هويتنا وأولها اللغة التى لم يبق رابط للعرب يربطهم سواها، بعد أن كادت تتداعى أغلب الروابط الأخرى منفذين ولو عن غير وعى ما اتفق عليه السيدان سايكس وبيكو من رسم بالمسطرة لخريطة الدول العربية، والذى يدعمه بعض بنى جلدتنا من خلال العناوين غير الصحيحة لغويًّا لأسماء الكتب المدرسية الحكومية، ألا يسير هذا فى نفس توجه المسخ الذى نجده على شبكة الإنترنت الذى لا هو عربى ولا هو إنجليزى وليته يكون أيًّا منهما، كثيرة هى الأمثلة وليس آخرها الأرقام الغربية التى درجنا على استعمالها، بدلاً من أرقامنا العربية الأصيلة متحدين قرار مجمع اللغة العربية المصرى وقرار اتحاد المجامع للغوية العربية الذى يدعو دول المغرب العربى للعودة لاستعمال، أرقامنا الأصيلة وهجر الأرقام الغربية لقد كانت أرقامنا العربية (9876543210) هى ما تمسك به جميع العرب شرقًا وغربًا، وقت أن كان الدفاع عن الهوية إحد أولويات محاربة المحتل بعد أن خرج المحتل نهارًا ترك لنا سايكس فى بعض الأقطار وبيكو فى بعضها الآخر.

ولكن هل من أمل فى أن نستعيد هويتنا العربية بعدما كدنا نتنازل عنها؟ نعم هناك أمل فى العمل وأكاد أشعر أن اللفظين الأمل والعمل مترادفان بما يبذله المخلصون من أمتنا غير مبالين بالمعاول التى فى أيدى العملاء

والخونة، الذين يحاولون أن يجهزوا على أمتنا وقبلها على هويتنا. إن تعريب الأمة قضية قومية ومشروع حضارى فى نفس الوقت نفسه، فالعربية قضية إصلاحية لا تنفصل عن إصلاح التعليم والثقافة والإنتاج بمستوياتها المختلفة، وأرى أننا يجب أن نلزم أنفسنا بالقيام بدور إيجابى حتى لا تتحول كتاباتنا إلى هراء وهل من ممارسة يومية تبين سواء الشخص مع نفسه أوضح من ممارساته اللغوية، أعلينا من ثم أن نبدأ بأنفسنا بتكثيف تعاملاتنا باللغة العربية بهدف تعريب الشارع العربى، وأن نكثف كتاباتنا العلمية بالعربية، وأن نقوم بنشر أبحاثنا بالعربية بهدف سيادة اللغة العربية على المؤتمرات العلمية، بدلاً من أن نكتب أبحاثنا عن اللغة العربية بلغات أوروبية؟! أبعد هذا علينا أن نؤكد على عنصر المبادأة بأن يبدأ كل فرد بنفسه؟ ولندر أن قناعة الأفراد وجهاد الجماعات العلمية يمكن أن تتغلب على أية مصاعب يمكن أن تصادفنا فى مسيرة إنهاض الأمة.

أشكر لكم تبصيركم لنا جميعًا بهوية الأمة التى تتفلت من بين أيدينا دون أن ندرى أملاً ألا تجرفنا الرياح إلى ركوب قوارب الرجوب الذى قدم أكثر من أربعمائة فدائى إلى.. دون أن يدرى البعض منا وليس الكل أى قارب يستقلون.

د.محمد الحملاوي

بيد أن أصواتًا أخرى تكون أقل فهى أقل تشاؤمًا يمثلها ممثلو بعض مواقع الإنترنت العربية، إنها لا تتحدث عن الرجوب أو قوارب الموت أو حيرتنا فى أى قارب نستقل، فإن هناك مواقع عربية لا تعد على اليد الواحدة، لكنها تسعى فى بذل جهد كبير فى البوابات العربية التى تدشن على الشبكة هنا وهناك، والتى رغم بعض ما يؤخذ عليها، إلا أنها نجحت فى إعادة توزيع الخريطة الثقافية والمعلوماتية للعالم العربى على الشبكة إلى حد بعيد، وبذلك أصبح لدينا نواة معلوماتية يمكن إذا أحسن التخطيط والتوجيه والتمويل الواعى

أن تعيد الكرة فى عالم المعرفة.

إن هذه الأصوات تتحدث عن كيانات ما على شبكة الإنترنت.

وتتحدث عن جهود مضنية للترجمة، وتتحدث عن جهود فعالة فى المجال المعلوماتى على الشبكة.

يقول سيد مرعى، وهو ممثل أحد هذه المواقع العربية: إنه صحيح أن هذا الكيان العربى لا يجابه الكيانات الأجنبية على الشبكة، ولكن صحيح أيضا أنه ملأ فراغًا كبيرًا كان يعيشه الشباب العربى، وبالتالى وجههم نحو ثقافتنا العربية وأوجدوا وعاء جديدًا من أوعية نقل المعارف والثقافات العربية على الإنترنت، وكيف لا وقد قامت هذه الكيانات العربية على شبكة الإنترنت ببذل جهود مضنية من ترجمة للغات التعامل مع الإنترنت وبرمجة بالعربية وغير ذلك من مهارات التعامل معها، ومن ثم كانت المواقع العربية إلى حد ما متميزة وفعَّالة وإضافة حقيقية إلى المجال المعلوماتى على الشبكة.

ومن أجل هذا كان لا بد من شكر هذه الجهود ومطالبتنا بالمزيد من التطوير السريع، فالطريق ما لازال طويلاً خاصة وأننا ما زلنا نحبو الرشد المعلوماتى بعد أن تعدينا مرحلة المهد التقنى، ومع ذلك فإننا متفائلون رغم وجود العديد من العقبات والتحديات مثل التمويل والتفكير والاتجاهات واللهجات العربية المختلفة بل والمبتكرة، وكلنا أمل فى أن يندثر هؤلاء المغربون الذين يزاحمون ويعطلون كل هذه الجهود من أجل التهريج على الإنترنت وأقصد بهم الشباب غير الواعين الذين يتحدثون اللغة العربية، والذين يتحدثون بهذه الطريقة على مواقع الدردشة وساحات الحوار والبريد الإلكترونى، وهؤلاء يمكن أن نطلق عليهم «العرب المستغربة»، فلاهم أجادوا اللغة الإنجليزية وتحدثوا بها ولا هم أنصفوا اللغة العربية وتعاملوا بها ليجبروا العالم على احترامها.

تنتهى الرسائل لكنها تحمل أسئلة معلقة:

* أية جهود التى يتحدث عنها بعض ممثلى مواقع الإنترنت، إنها قليلة، ثم إنها لا تحمل «وعيًا» واحدًا موحدًا لتأكيد اللغة العربية أو لنقل المعارف والثقافات بشكل يمكن أن يقال عنه إننا فى طريق حماية العربية إن الجهود القليلة تكاد تتلاشى أمام الطوفان المستمر.

* إن ما نجده من محاولات إيجابية لمواقع بسيطة ما زالت تفتقد الممارسة الحقيقية، فمازلنا رغم هذه الجهود القليلة جدًّا أمام لغة نحتاج الكثير من الوعى والقصد النبيل لممارسة الهوية، فى عصر تسعى العولمة فيه القومية بشكل أفقى لا رأسى.

هل نقول إنه رغم كل هذه الجهود فما زلنا نفتقد إستراتيجية عربية تؤدى بنا إلى تأكيد الثقافة والمعرفة العربية وتأكيد الكيان العربى فى عصر الكيانات الكبرى.

وبعد هل لاحظنا خلال هذه الأحداث تلك العلاقة بين غياب العربية وغياب الوعى الوطنى الذى أسهم أربعمائة فدائى إلى الهلاك، إنها العلاقة الوثيقة بين الثقافة والسياسة، وهو ما يدعونا ـ لا أعرف للمرة الكم ـ إلى لفت النظر إلى المصير الذى يمكن أن تنتهى إليه حين «تنقلت» العربية من بين أيدينا وتنتقل العربية بنا إلى المجهول.

الشبكة الدولية والأمن العربى!!

رابعًا

ما زلنا عند الأخطار التى يمثلها غياب الوعى التقنى أو الواقع التقنى، وأثرها على مستوى غياب التقنية فى حد ذاتها أو فيما تعكسه من تغييب الهوية ممثلة فى اللغة العربية. ومع ذلك، فإن أمامنا أخطارًا أخرى كثيرة

نواجهها فى غيبة الوعى أو الوحدة على المستوى السياسى أو الاجتماعى أو ـ حتى ـ الهوية..

وتمتد دائرة الأخطار لتصل إلى أقطاب بعيدة فى دائرة الألفية الثالثة..

وربما كان أهمها اليوم هو غياب الوجه الأمنى القومى.

ونكرر أننا سوف نجاوز أهم الشروة البدهية من الوعى لغياب المشروع السياسى أو الفكرى لنتمهل أكثر عند العامل الأمنى..

إن فقداننا لأهم عناصر القوة العربية الآن - عبورًا من التأثير السياسى أو الاقتصادى أو السياسى أو الإعلامى.. إلخ - يظل العامل الأمنى الذى يتمثل فى افتقادنا للوعى الامنى فى عالم اليوم، وهو ما يمر بنا عبر عدة ملاحظات مررنا على بعضها بسرعة، ولكننا نمر هنا عليها ببطء أكثر لما تمثله من فقدان للوعى المستقبل بالحاضر.

(2)

ولا نحتاج لرأى الخبراء لتأكيد غياب الأمن العربى فى التقنية المعاصرة. إن أمامنا العناصر الشائعة المعروفة التى تؤكد تبعيتنا للغير حين نراجع قدراتنا وإمكاناتنا على الشبكة العالمية، فنجد غياب التعريب بين أمتنا العربية، إذ نفتقد هنا كثيرًا من هذه العناصر:

- تعريب أنظمة التشغيل
- تعريب المحتوى.
- تعريب الأدوات والبرامج.
- تعريب أسماء المواقع.

وبالجملة، فنحن نفتقد التعريب فى التعامل بين أقطارنا، خاصة فى الأجهزة الأمنية.

وكى لا نغيب فى إطار ضرورة الأمن والمعلوماتية وغياب الحد الأدنى للحفاظ على معلوماتنا، فسوف نتمهل أكثر عند جانب التعاون الأمنى بين الأقطار العربية، نقصد الجانب الحربى فى التعاون بين أقطارنا العربية.

ويلاحظ المتخصص العسكرى فى هذا الخصوص ـ أن حلف (الأطلنطى الناتو) ـ على سبيل المثال - يستخدم أرقى تكنولوجيا وصلت إليها أية دولة غربية، ومن ثم، فإن السماح لأية دولة فيه للوصول إلى الدرجة القصوى فى هذا السبيل ممهد ومسموح به إلى أى حد، ومع ذلك، فإن لدينا اتفاقية دفاع مشترك ولدى دول عديدة كثيرة أنواعًا مختلفة من الأسلحة والمعدات ومع ذلك يتعذر على أى دولة عربية آن تحصل على آى معلومات عن هذه الأسلحة والمعدات قد تكون مفيدة لها فى أى صدام مع التهديد التى تواجهه كل الأمة العربية، التعاون فى التقنية والعمل على الاستفادة منها بشكل جماعى يحول بيننا وبين تحقيق الأمن العربى..

هنا مثال آخر نشير إليه، يقول المشير أبو غزالة (الاتحاد الإماراتية 4 مايو 2002) إن أحد العيوب التى اكتشفت خلال حرب الخليج عاصفة الصحراء ما أطلق عليه العسكريون «التبادلية العملياتية» بسبب التنوع الكبير فى التسليح، وبدأت الدول الغربية حل هذه المسألة، فسمعنا عن المقاتلة الأوروبية وغيرها، هل يوجد بين الدول العربية أى مستوى من «التبادلية العملياتية»؟ لا توجد بل لا وجود لها حتى فى بعض التكتلات العربية، خاصة أن التهديد الذى تتعرض له ـ حتى يفرض حل الموقف الحالى ـ سيستمر لفترة طويلة ولن ينتهى إلا إذا توافرت لنا قدرات الردع المناسبة.

ويؤكد هنا المتخصص أننا لا نتكلم لغة عسكرية واحدة بل نستخدم مصطلحات وخرائط عسكرية مختلفة، فكيف يمكن أن يتحقق تعاون كامل

فى أى عمل عسكرى بدهى أن اللغة العسكرية هنا تتعامل مع التقنيات التكنولوجية على أعلى مستوى وبدهى أيضًا أن اللغة العسكرية تشير بأسى إلى افتقادها على مستوى اتفاقية الدفاع المشترك بالجامعة العربية. فوجودها ـ حتى ـ على هذا المستوى، لا تعنى شيئًا؛ ذلك لأن تفسيرها الصحيح ـ فى وجود التعاون العسكرى التكنولوجى ـ يعنى أن أى عدوان على أية دولة عربية هو عدوان على كل الدول العربية، ومع ذلك، فقد لاحظنا أن أكثر من عدوان حدث على هذا البلد العربى أو ذلك دون أن نسرع إلى اتخاذ موقف ينم عن الوعى بالوحدة القومية أو الوعى الأمنى.

وغنى عن الذكر أن نتحدث عن بدهيات خالصة من الوعى بالاتحاد العربى ومرتبطة به أيضًا مثل أن المقارنة العددية بيننا ـ جميع العرب تجاوز المائتى مليون نسمة ـ وعدو لا يجاوز الملايين الستة كإسرائيل لا تحتاج للحديث عن العدد وإنما عن العتاد أو ـ بدرجة أصح ـ عن نوعية العتاد التكنولوجى ودرجة الوعى باستخدامه، فما يسمى بعامل النوعية يجعلنا ندرك ـ وهنا نسمع العسكريين ثانية ـ أن مقارنة الدبابة تى 54 بالدبابة م ـ 60\3 مثلاً لا يمكن أن تكون هناك مقارنة طبيعية لتلاشى التعادل فى التقنية واستخدامها، كما أننا لا نستطيع أن نتحدث عن مقارنة مقاتلة ميج 21 بطائرةإف ـ15، فوضعنا فى الأعتبار البون التكنولوجى الشاسع بينهما يجعلنا نتأكد أن المقارنة غير صالحة لنؤكدها بأية حال.

وهو ما يعود بنا ثانية الى الفارق الشاسع بين استخداماتنا التقنية المتواضعة واستخدام الغرب التقنى الشاسع، والذى فى الوقت نفسه يحرص عليه، فماذا يعنى أن يطور السلاح الإسرائيلى بشكل لا يحدث للسلاح العربى، وماذا يعنى دخول العديد من الشركات العالمية الغربية (الخاصة بتطور السلاح..) في مشروعات مشتركة مع إسرائيل دون أن نمنح مثل هذه الأمور أهمية.

الأكثر من هذا، ماذا يعنى أن الأدوات التكنولوجية التى نستخدمها كأقطار عربية - فضلاً عن اختلافاتها المتباينة فى الاسماء والنطاقات ـ لا تقترب من بعضها فى التعبير التقنى فى أبسط استخدام جهاز كالإنترنت على سبيل المثال وهو ما نعود إليه ثانية حين نشير إلى عدم التعريب الكافى لأدوات النضال الحربى ضد كتل غربية ما زالت تتعامل معنا بمنطق الكتل كما أشرنا.

إن تأخرًا فى تطور الجهود التكنولوجية العربية يعبر عن تأخر فى تطوير الجهود العسكرية العربية على مستوى الأمن العربى..

وهو ما يعود بنا إلى النطاقات المدنية العادية، إذ ينبغى التنبيه إلى ضرورة التنسيق بين الجهود العربية (أى بين كل قطر عربى وقطر عربى آخر)، والجهود العربية والجهات الغربية الصديقة لنا (أى بين الكتلة العربية والكتلة الأخرى المغايرة لنا).. لوضع ضوابط ومعايير ثابتة تتوافق مع المعايير الدولية المعروفة، حيث إن الرغبة باستخدام لغات محلية غير الإنجليزية هى عامة وتهم جميع أصحاب لغات العالم الحية.

إن الخبراء يقولون هنا إن المساعدة لتحقيق ذلك هناك محاولات فردية منها «الائتلاف العربى لأسماء مواقع الإنترنت) لجنة لغوية تعمل على تحقيق عدة أهداف منها:

ـ وضع المقاييس لتعريف مجموعة الحروف العربية المسموح باستخدامها فى كتابة أسماء النطاقات العربية، وتنظيم خادمات أسماء النطاقات الرئيسية الخاصة باللغة العربية والتنبه على أهمية وضع المقاييس والتوصيات من قبل الجهات المحايدة وعدم تركها للجهات المنتجة، والتى هى عادة ما تضع حلولاً خاصة وغير مفتوحة و أيضا التنبيه للجهات المسئولة عن إصدار المقاييس وأنظمة وسياسات نظام أسماء النطاق الدولى على الإنترنت هى منظمة أيكان.

ويمكن الإفادة فى هذا من عديد من المنظمات والمؤسسات التى تأسست لهذا، منها الائتلاف العربى لأسماء مواقع الإنترنت.

وهو ما يعنى أن ضرورة الوعى بالأمن القومى يسبقه الوعى بضرورة استيعاب التقنية المعاصرة الغربية، وهو ما لا يحرص عليه الغرب بأية حال، حتى إن أسماء الطلبة العرب من المبعوثين إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة الأخيرة لا يخول لهم التخصص أو تعليم التقنية المتقدمة بأية حال، كما أنه لا يبذل جهد كبير فى الجانب الآخر ـ الغربى ـ فى تصدير التقنيات المتقدمة لنا بأية حال.

وهو ما يجعلنا هنا ندعو الى بدايات «تعريب» الانظمة التقنية بأى شكل بدءًا من تعريب النطاقات، بحيث تكون متوافقة مع المقاييس والمعايير الغربية وغير مختلفة عنها، والبعد عما يعوق هذا التعريب كالبعد عن التشكيل فى أسماء النطاقات وعدم استخدام ما يحول بيننا وبين استيعابنا للتطور الغربى فى هذا الصدد بتتبع المواصفات والمقاييس العالمية وفى الوقت نفسه التقريب بين معاييرنا العربية بأية حال، وما قالت به حالة الحداثة فى العصر الحديث أو التطوير فى الجمع بين التحديث والتراث يكون ديدنا هنا.

يجب ألا نبتعد عن المعايير الغربية، وفى الوقت نفسه يجب ألا نبعد بين معاييرنا العربية للوصول إلى الأمن العربى فى هذا العصر.

بيد أن هذا يحتاج إلى اجتهاد أكثر لتطوير العربية و «أخلاقيات» اللغة لدينا.. وما إلى ذلك.

الشبكة.. و«إستراتيجية عربية» !!

خامسًا

منذ أن نشرنا هنا عن تخثر حلم الوحدة العربية وتحوله إلى كابوس، خاصة.. على المستوى التقنى، ومنذ أن عرضنا ـ فى كتابات سابقة ـ غياب

هذا الحلم على عديد من المستويات: اللغة، الهوية، الأمن القومى بحثًا عن «استراتيجية عربية» تسعى لتحقيق هذا الحلم (قبل تحولاته المعتمة..)، وطيلة هذه الفترة انهالت علينا العديد من الرسائل البريدية أو عبر الشبكة أو على شكل فاكسات من عديد من الأقطار.. وقد طالت الرسائل شتى هذه المستويات..

ولكثرة الرسائل وتعدد اتجاهاتها فى هذا الصدد، سنتوقف عند آخر هذه الرسائل، لنرى، إلى أى مدى ما زال حلم الوحدة العربية يداعب فكر الكثير منا، غير أن تحول هذا الفكر إلى «فعل» يظل دائما فى طور الواقع ولا يتخطاه..

وربما لهذا السبب ـ عدم تحول الفكر إلى فعل ـ فى البحث عن «استراتيجية عربية»، آثرنا أن نعرض لهذه الرسالة التى تأتينا من أكبر منظمة عربية معنية بقضية الوحدة بين الشعوب العربية، فهى من جامعة الدول العربية، وهى من بين أهم المجالس فيها «مجلس الوحدة الاقتصادية العربية ـ الأمانة العامة»، فقد كتب إلينا الأمين العام لهذا المجلس رسالة ضافية.

وقبل أن نعقب على ما جاء بهذه الرسالة نضعها بين يدى القارئ الكريم..

جاء فى رسالة الأمين العام ما يلى:

طالعت باهتمام بالغ وتقدير كبير ما نشر فى جريدة الأهرام يوم الاثنين الموافق2/ 9/ 2002، تحت عنوان الشبكة والبحث عن «إستراتيجية عربية»، وكان سؤالكم المهم هل يمكن البحث عن إستراتيجية عربية قبل أن يفوت الأوان؟

وأود فى هذا الشأن بصفتى أمينًا عامًّا لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية توضيح بعض النقاط:

أولاً: أصدر مجلس الوحدة الاقتصادية العربية فى دورته الوزارية، والتى عقدت فى العاصمة العراقية بغداد خلال شهر يونيو لعام2001 قرارا رقم 1150، والذى نص على تبنى إستراتيجية للتكامل الاقتصادى العربى خلال العقدين القادمين2000 ـ2020، تضمنت عدة محاور يأتى فى مقدمتها، النهوض بالتكامل الاقتصادى العربى فى المرحلة الحالية لاستيعاب التغيرات العالمية والإقليمية ومواجهة التكتلات الاقتصادية العملاقة والآثار السلبية لاتفاقية الجات.

وركز المحور الثانى على ضرورة دعم التنمية العربية المشتركة والعمل على تقريب مستوياتها، وركزت باقى محاور الإستراتيجية التى وافق عليها وزراء الاقتصاد والتجارة العرب بالإجماع على ضرورة استكمال منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى، باعتبارها نواة لإقامة السوق العربية المشتركة، وإقامة اتحاد جمركى عربى، وإقامة منطقة استثمارية عربية، ومنطقة مواطنة عربية، والتى تهدف فى مجملها إلى تهيئة الاقتصاد العربى للتحول إلى مجتمع معلومات واتصال والنهوض بالقدرات التكنولوجية الذاتية وتحقيق الاتساق بين أنشطة وأجهزة العمل الاقتصادى العربى المشترك، وتحويل المنطقة العربية إلى منطقة جاذبة للاستثمارات، وتعريف المستثمر العربى والأجنبى بفرص الاستثمار المتاحة فى الدول العربية الأعضاء بالمجلس عن طريق الخارطة الاستثمارية العربية.

ثانيًا: حول ما ذكرتموه فى مقالكم عن التقدم الإلكترونى العربى، فقد نصت الإستراتيجية على إقامة منطقة تكنولوجية عربية بهدف ربط جميع الأقطار العربية بشبكات تكنولوجية، تساهم فى دعم العناصر المختلفة للإستراتيجية والنهوض بالمؤسسات البحثية العربية، وتحويل الوطن العربى

إلى منطقة إلكترونية تكون أساسًا لبناء مجتمع معلوماتى وتحسن من وضع الوطن العربى وتدعم القدرة التنافسية العربية.

ثالثًا: تضمنت الإستراتيجية عددًا من البرامج الاقتصادية والصناعية والتجارية المشتركة التى تهدف إلى دفع عملية التنمية بصورة مباشرة، وتمكين الدول العربية الأعضاء بالمجلس من النهوض بالعمل الاقتصادى العربى المشترك، والتعاون مع الهيئات والمنظمات والمؤسسات الاقتصادية العربية والإقليمية والدولية. ووفرت الإستراتيجية برامج عمل مساعدة تهدف إلى تطوير شبكات البنية الأساسية المادية والمعرفية، واستكمال مشاريع العمل العربى المشترك فى المجالات الاقتصادية والتجارية والاستثمارية والخدمية.

وأخيرًا أرفق لكم النص الحرفى لهذه الإستراتيجية والبرنامج التنفيذى لها للاطلاع، حالة إذا ما رغبتم فى نشر مزيد من التفاصيل فى هذا الموضوع المهم، لتصبح الصورة مكتملة فى ذهن القارئ العربى والمصرى.

مع خالص شكرى وتقديرى....

د. أحمد أحمد جويلى

الأمين العام

مجلس الوحدة الاقتصادية العربية

وتنتهى الرسالة وتبدأ تداعياتنا أو هذه القراءة الإيجابية التى تثيرنا فيها، مثل هذه الرسائل منذ زمن بعيد عن المجالس العربية التى بدأت الدعوة لهذه الوحدة (الاقتصادية هنا) دون أن تربط الفكر بالفعل أو الحماس الشديد لعيش الحلم الذى يظل حلمًا لا ينقطع، اللهم إلا حين نستعيد التاريخ الذى يعيد نفسه ثانية، فإذا بنا أمام الحلم وقد تحول إلى شىء أشبه

بالمأساة، فالتاريخ كالحلم يبدأ بتقرير ما يعبر به، وحين نحاول استعادة الحلم / التاريخ، فإن المرة الثانية تشهد تحولاً حادًّا:

مفردات الحلم تتحول إلى كابوس، ودراما التاريخ تتحول إلى ميلودراما وهو ما نعثر عليه هنا

ـ إن الأمين العام هنا يذكرنا بهذه «الإستراتيجية» بالدورة الوزارية التى عقدت فى بغداد خلال شهر يونيو، فى حين نعلم جيدًا أن مجلس الجامعة قرر هذه «الوحدة الاقتصادية» فى الأريعينيات، حين أعلن عن قيام جامعة الدول العربية، ومع ذلك، ما زلنا محلك سر حتى الآن.

ـ وما يقال عن الاقتصاد يمكن أن يقال عن المحاور الأخرى: التنمية العربية المشتركة، وعدد من البرامج الاقتصادية والصناعية والتجارية المشتركة.

ـ ويكرر الأمين العام ذكر هذه «الإستراتيجية» التى نصت، وهو ما يهمنا هنا أكثر ـ بالنسبة للتقدم الإليكترونى ـ على إقامة منطقة عربية بهدف ربط جميع الأفكار العربية بشبكة.. إلى غير ذلك مما نقرأه هنا.

ولا يكتفى الأمين العام بهذا، فيرفق لنا العديد من التفاصيل عن أسس البرامج التنفيذية والاقتصادية.. إلخ.

تستفيض الرسالة فى هذه «الاستراتيجية العربية» وإن يكن بشكل رصين، غير أن الرسالة ـ كما جاء فى رسائل أخرى إلينا ـ تغفل الجانب الفعلى، التنظيمى والملزم.

إننا لم نخرج على قراراتنا التى تصاغ فى مؤسسات وامانات لاتزيد على «الحلم» ولا ترتبط بالضرورة، فقضية إلزام أى قطر عربى بتنفيذ ما جاء بهذه الإستراتيجية أو تلك يفتقد تمامًا..

وما يقال عن هذه «الاستراتيجيات» التى نقرأها ونسمع عنها لا تنتبه إلى هذا الجانب السلبى فيها ـ الإلزام ـ فى حين أن الأمر لا يزيد على القاعدة النحوية البسيطة وجملة «المبتدأ والخبر»، فنحن فى كل ما نفعل حتى الآن لا نجاوز المبتدأ، لكنه يظل مبتدأ فى حالة انسياب وانزلاق مستمرتين دون أن يصل إلى الخبر، يظل المبتدأ «الفكر» منفصلا تمامًا عن الخبر «الفعل» وإن سعى للحاق به..

ومايقال عن المبتدأ والخبر يقال عن كثير من قضايانا المعاصرة.

إننا نتحدث كثيرًا عن الاجتياح الإسرائيلى المستمر دون أن نصل إلى الخبر.

ونحن نحذر من الهجوم على العراق الشقيق دون أن نصل إلى الخبر.

ونحن نحذر من اتهامنا بالإرهاب أو الكراهية ـ خاصة عقب 11 سبتمبر ـ دون أن نصل إلى الخبر، إننا فى هذا الفضاء الشاسع لا نعرف غير المبتدأ فى حين تواجهنا على كل المستويات «تكنولوجيا العنف المتطور»، كما يسميها هشام شرابى دون أن نبذل جهدًا حقيقيًّا وواعيًا للتعامل مع هذه القوة الغاشمة، ونحن ما زلنا نتعامل مع الغرب بمنطق كل قطر على حدة، إن هذا القطر يتحدث ـ وحده ـ مع العم سام وهذا القطر يتحدث ـ بعد أن يهمس إلى أخيه، ولكن بنفس المنطق القطرى.

ونفتقد ـ فى الوقت نفسه ـ الوعى بأن هذا الغرب لا ينظر إلينا عبر «كتلة عربية» ـ ولا نقول «قوة عربية» ـ فما زال يتعامل مع كل قطر على حدة.

يمكن أن نجد الآن قطرًا يتحدث عن تخطيط اقتصادى، لكن يظل هذا التخطيط منطويًا على نفسه، فإذا تعلق الأمر بعلاقة هذا القطر بالعالم الغربى ـ بعيدًا عن العالم العربى، فسوف نجد التعاون فى مجالات عديدة يفوقه عن التعامل بينه وبين القطر الشقيق.

بقى أن نسأل بعد هذا كله، هل انتهت رسالة الأمين العام؟

تأتى الإجابة إنها لم تنته بعد، فما زال المبتدأ وحيدًا غريبًا فى هذا الكمون.

وما زالنا نعيش فى هذا الفضاء الشاسع بين المبتدأ والخبر.

غير أننا لم نصل بعد إلى آفاق الخبر، وبعد..

عن الذين يقولون.. وداعًا للعروبة

أولاً

عن الذين يقولون، ويرددون، من سنوات.. وداعًا للعروبة نكتب هذه السطور..

فقد تراوحت الأحكام على العروبة منذ الانفصال السورى 1961 ثم عقب حرب الخليج الثانية بوجه أخص وبعد 11 سبتمبر على وجه الخصوص، ورحنا نسمع، الآن، أحكاما غاية فى القسوة والضراوة حتى خلنا أن المناخ العام أصبح كما يردد عنه أو يصفه البعض ممن حكموا على العروبة بالموت أو الغياب على أحسن الوجوه..

وتعددت الأسئلة التى تحمل إجاباتها، ولعل أهم هذه الأسئلة - لقسوتها - كان سؤال نطرحه.. السؤال الذى يطرح عقب كل أزمة:

- هل نقول: حقا وداعًا للعروبة ؟

وهو سؤال - كما نقول - نعمد إلى طرحه، رغم أن الإجابة عنه لا تكون - بالضرورة - بالإيجاب; كما حاول أن يأتى بها أصحاب صياغة هذا السؤال..

وهو ما يحتاج تمهلاً أكثر لنجيب عن أسئلة يصعب طرحها فى الواقع، لكنه الواقع الصعب الذى يدفعنا دفعًا لتجرع كأس مر المذاق قبل أن نرغم على تجرعه.. فلنحاول..

(2)

هل نقول- حقًّا- وداعًا للعروبة؟

وبداية، فنحن لا نطرح هذا السؤال - بداهة - من منطلق إعادة جرد الحساب لعام مضي 2002، وإنها لأن الواقع الذى نعيش فيه منذ11 سبتمبر يطرح علينا أسئلة مراوغة عن هذه العروبة التى تفجرت منذ نهاية القرن التاسع عشر لتمضى فى تطورها الصاعد إلى خمسينات القرن العشرين، ثم تنال منها الأحداث أو فلنقل- الكوارث - فى نهاية هذا القرن العشرين لتصل الكوارث إلى ذروتها مع حرب الخليج الثانية 1990 1991 ثم لتصل إلى درجة لم تصل إليها فى تاريخها كله مع11 سبتمبر وبعدها..

وبدهى أنه ليس 11 سبتمبر بالقطع هو الذى نال منها وحده، فقد عرفت تعثرات كثيرة خاصة مع الانفصال 1961 ومع تطورات السبعينيات، وصولاً إلي «كامب ديفيد» غير أن حادث مانهاتن كان أكثر الحوادث التى نالت - وتنال - منها، فمناخ «العولمة» الامريكية الآن يسعى - فى أحدث تجلياته - إلى إعادة تصنيف المنطقة العربية عبر خارطة جيو - إستراتيجية جديدة، تستخدم فيها الإدارة الأمريكية وسائل كثيرة لعل من أهمها الآن «تقرير باول» الذى راح يعيد رسم خريطة المنطقة بمنطق الأقاليم وليست الكتلة، وتعدد الثقافات وليس الثقافة الواحدة، وبدأنا نسمع عن تحولات «لابد أن تقع» فى مساحات شاسعة من التعليم والديمقراطية وأداة الحكم، ومن ثم، فقد بدا من المؤكد الآن أن العروبة السياسية لا تطرح ولا - حتى - العروبة الثقافية التى عرفها الفكر العربى دون أن التمثيل الغربى الذى يطرح علينا الآن..

إننا نعيش فى أخطر فترات تاريخنا العربى قاطبة:

فهناك حرب الإبادة فى فلسطين.

وهناك حرب التفتيت التى توشك أن تقع فى العراق أو للعراق.

ثم هناك عمليات الابتزاز التى تمارسها قوى القطبية الواحدة الآن أمام العديد من الأقطار العربية التى تحالفت معها من قبل، حين كان العالم يعرف قطبين وليس قطبًا واحدًا.

وأيضا المخططات التى تقدم ألينا على أنها نوع من الإصلاح، وهى فى الواقع لا تزيد عن كونها أدوات لتضييع الوقت واكتمال سيطرة الصهيونية على ما تبقى من فلسطين، مثل «خارطة الطريق» وأمام أدوات ضغط أخرى بالديمقراطية وتوعد أنها ستدفع لتغيير التعليم وتطوير أداة الحكم وتناوَل حديث الأقليات بشىء كثير من الدلالة (هل ما زلنا نذكر تقرير باول).

فضلاً عن ضغوط أخرى كثيرة على أقطار المنطقة كلها: نعرف هذا فى (ماشاكوس) بين شمال السودان وجنوبه، مرورًا بالجزائر فمصر وصولاً إلى أقطار المشرق العربى كله إلى درجه إقامة الاتفاقات المشتركة بين قوى عالمية وحى أو أحياء عربية على ساحل الخليج العربى.

يحدث هذا كله تحت آليات العولمة وقد تحولت إلى «عسكرة»، فإذا بنا أمام مقررات تفرض وفضائيات تعبر عن أصحابها أو تلتمس البرامج من غيرها. وطوفان كاسح لكثير من القيم واليقين القديم، بدا أمام قوى أخرى أكثر هيمنة - من سابقتها- بهدف بلقنة المنطقة..

الأدهى من هذا كله هو رد الفعل من كثير من أهلنا..

وهو ما نزال معه رغم هذا كله فى موقف الثابت.

ونحب أن نشير هنا إلى الكتابات الكثيرة التى تدعو إلى أن العروبة فى طور الغياب أو الموات، أو حتى ماتت بالفعل..

إن هذه الكتابات كثيرة وتتزايد بشكل يدعو للألم، سواء فى الصحف

التى تصدر خارج الوطن العربى، أو الكتب التى يتراوح نشرها بين باريس ولندن وواشنطن والخليج العربى، ثم هذه الفضائيات (الضالة) فى كل مكان الآن.. فضلاً عن التصريحات والانسحابات من المؤسسات القومية..

نقول إن هذه الكتابات والمرثيات المريبة، على العكس من ذلك، نفترض أنها حسنة النية!!) ـ وأنها إنما تحاول إعادة تقييم الواقع الذى يحتم علينا - أولاً وأخيرًا التمسك بها، على الأقل فى مواجهة الخطر المتزايد ضدنا الآن.

والأكثر من ذلك أن هناك كتابات - على الجانب الآخر - ما زالت تملك قدرًا كبيرًا من الوعى الحاضر، ومن ثم، الدعوة لامتلاك الإرادة من أجل المستقبل، فالبحث عن الذات العربية لا بد أن يصحبه البحث عن أسباب القوة، وأول أسبابها الوعى بضرورة العروبة والفكر القومى الموحد فى مواجهة الغرب الآن.

هل أطلنا فى استعراض الواقع وتأسينا على ردود فعل من بيننا..

(3)

الغريب فى الأمر كله أننا لا نبذل جهدًا كبيرًا لإحياء فكرة العروبة أو القومية العربية أو - حتى - الفكرة العربية لنعمل من خلالها أمام هذا الخطر الداهم الذى يهددنا..

وفى هذا يجب أن نضيف إلى ذلك الكثير مما يحدث حولنا:

لقد رأينا مؤتمر القمة لدول الخليج كيف دعى إليه، ثم كيف افتتح، وكم من الدول العربية حضرت اليه، وكم من القرارات الإيجابية انتهى إليها..

ثم رأينا أن الفضائيات العربية لم تفعل الكثير لإنقاذ العروبة أو الفكرة العربية، فما تزال العديد منها تعمل بمعزل عن الوعى العربى العام، وتحت ضغوط غير ظاهرة، لكنها - بالقطع - ضغوط سلبية.

ثم اننا نسمع من آن لآخر موقف هذا القطر او ذاك بما يتنافى مع ضرورة الوعى العربى المشترك، فهذه دولة صغيرة تتحالف مع دولة كبرى، وهذه دولة أخرى تعلن انفصالها أو سحب عضويتها من جامعة الدول العربية، المهم أن كل هذه السلبيات يمكن العمل ضدها بوعى عربى أو بفكرة عربية واحدة حرصًا على إنقاذ المنطقة وبعيدًا عن الخلافات المتوالية..

ومهما يكن، فإذا أردنا التأكيد على وجود العروبة، لسلمنا أولا بوجود الفكرة العربية - على الأقل - ومن ثم - يجب العمل لها فى إطار مفرداتها من اللغة والثقافة وقبل هذا وبعده المصير.. إلى غير ذلك مما هو معروف، والعمل للفكرة العربية من جديد يحتاج إلى بعض الملاحظات نرى أنها، فى رأينا، لا تخرج عن الآتى:

- التنبه إلى الأخطار التى ستحل بنا لو ظللنا نتعامل مع الواقع بمنطق العروبة السياسية، فما زالتا الخلافات هائلة، وانما يجب- على الأقل - أن نتنبه إلي العروبة الثقافية..

- يجب أن نتنبه (بعد قرنين من التنبه) إلى أن العروبة لازمة لأمتنا العربية بحكم المشترك الثابت بيننا من لغة وثقافة وتاريخ وجغرافيا والمساواة التى يأمر بها الدين أيضًا.

- يجب أن ننبه على لدور التقنية الرقمية والاتصالات فى تأكيد الوعى العروبى، فقد كتبنا كثيرًا عن افتقاد الأمن العربى عبر التكنولوجيا الحديثة، وكررنا كثيرًا أن الوحدة العربية التى يعلن عنها هنا وهناك لا تعدو الدعوة إلى التجارة، أما العوامل المشتركة الثقافية والاجتماعية فلا يهتم بها كثيرًا فى هذا الجانب.

- التنبه أكثر إلى المخططات التى توضع لنا، وآخرها المخططات الأمريكية التى «تخطف» الديمقراطية ثم تحاول تصديرها لنا بعد إعادة

إنتاجها، ومن ثم يجب الاهتمام بالواقع السياسى أكثر، فى حين أن التنبه للمرجعيات التاريخية والدروس المستفادة تاريخيًّا صبح لازمة للوعى بها، ومن ثم، التعامل بها خلال الواقع المستقبل...

- الخلاص من وهم المؤتمرات القممية التى يدعى إليها أو لا يلبى لها، فبدون تكوين رأى عام «سياسي» لن نتمكن من التأكيد على العروبة الثقافية، ومن ثم تغيب أكثر عن الجمهور قضية استعادة العروبة السياسية..

- ثم من يفسر لنا استمرار ردود الأفعال الإليجابية رغم كل شيء، مثل ما حدث فى الأيام الماضية كيف قامت مظاهرة من القاهرة للتضامن مع الشعب العراقى، ثم كيف عقد فى بغداد مؤتمر طارئ للجان التضامن العربي من أجل دعم الشعب الفلسطينى، كما عقدت أخيرًا فى عمان ندوة عن الثقافة العربية (العربية)، وفى الشارقة عقدت ندوة للدفاع عن الفكر العربى أمام تيار العولمة

- وفى هذا لا يخفى علينا الآن المعنى الغاضب ـ الظاهر والمضمر ـ والذى يثار الكثير منه الآن أمام محاولات التغيير فى بعض المناهج التعليمية، بما يتنافى مع الوعى العربى والإسلامى.. وآخرها غضب نواب الكتلة الإسلامية بالكويت..

وهو ما يشير إلى الوعي «الجمعي» بأهمية الدور الذى يمكن أن تلعبه العروبة اليوم فى مواجهة الأخطار المضادة، والتى تضع العروبة (والإسلام) فى مواجهة الغرب (والإرهاب)..

وهو ما يدفعنا للبحث عن أدوار إيجابية للعمل لهذه العروبة..

هل للجامعة العربية دور فى هذا؟

هل للوعى السياسى دور فى هذا؟

هل للمثقفين الغائبين - أو المغيبين - دور فى هذا؟

إن طرح الأسئلة أصبح ضرورة ونحن أمام مستقبل غير واضح، وبين أيدينا عروبة تتسرب لأننا لا ننظر إلى سر ما نملك..

إن تقسيم المنطقة آتٍ في «الاستراتيجية» الغربية دون أن نعى كثيرًا لها، أو نعى ولا نفعل شيئًا..

وقد كان يمكن أن نستعيد هذا التقسيم عبر المخططات القديمة وأبرزها اتفاقية «سايكس بيكو» التى كانت فى بداية القرن الماضى والتى توشك أن تتكرر فى بداية هذا القرن (الشرق أوسطية) أو فى العملية «البلقانية) التى تدبر لنا جهرًا بدون اخفاء او تمويه.

ومع هذا، أو برغم هذا «وتأمل» فإننا أمام من يقول - وما زال يردد فى شماتة -وداعًا للعروبة - مما يدفعنا على الجانب الآخر الى التأكيد على أننا لم نصل بعد منتصف ليل العروبة، ومن ثم، فإن الوصول يترتب عليه اليقظة وإنارة الطريق.. ولا يتوفر هذا بدون المكونات الأساسية فى الوطن العربى.

ونعتقد- بل نؤمن- أن هذه المكونات بين أيدينا فقط، يجب التنبه إليها، والعمل بها..

'وداعًا للعروبة'.. والخطر الداخلى

ثانيًا

.. فور نشر مقالتنا عن الذين يقولون وداعًا للعروبة لاحظنا ردود أفعال مغايرة ومتفاوتة تماما لما سعينا إليه هنا، ففى حين كنت أشير إلى خطر غياب «العروبة» فى مواجهة القوى الغربية، كانت الرسائل القادمة تشير ـ من جانب آخر ـ إلى خطر التحدث عن الآخر «الغرب» فى حين أنه يجب الإشارة إلى الآخر «فى الداخل»، عدم وعينا بالقدر الكافى لما يحدث بالداخل مقارنة لمايحدث فى الخارج.

وبادئ ذى بدء، فقد جاء عن تركيزنا على قوى الغرب من أنها تهتبل فترة «الارهاب» فتحاول النيل منا. وحول أننا نعيش فى أخطر فترات تاريخنا العربى قاطبة، خاصة عمليات الابتزاز التى تمارسها قوى القطبية الواحدة الآن أمام العديد من الأقطار العربية التى تحالفت معها من قبل حين كان العالم يعرف قطبين لا قطبًا واحدًا.

واسهبنا حول المخططات التى تقدم إلينا على أنها نوع من الإصلاح، وهى فى الواقع لا تزيد على كونها أدوات لتضييع الوقت واكتمالاً لسيطرة الصهيونية على ما تبقى من فلسطين «خارطة الطريق» وأمام أدوات ضغط أخرى تعظ بالديموقراطية وتوعد أنها ستدفع لتغيير التعليم وتطوير أداة الحكم وتناول حديث الأقليات بشىء كثير من الدلالة (تقرير باول).

فضلاً عن ضغوط أخرى كثيرة على أقطار المنطقة كلها: نعرف هذا فى ماشاكوس بين شمال السودان وجنوبه، مرورًا بالجزائر فمصر وصولاً إلى أقطار المشرق العربى كله إلى درجة إقامة الاتفاقات المشتركة بين قوى عالمية وحى من أحياء ساحل الخليج العربى.

يحدث هذا كله تحت آليات العولمة وقد تحولت إلي «عسكرة»، فإذا بنا أمام مقررات تفرض وفضائيات تعبر عن أصحابها أو تلتمس البرامج من غيرها. وطوفان كاسح لكثير من القيم واليقين القديم، بدا أمام قوى أخرى أكثر هيمنة ـ من سابقتها- بهدف بلقنة المنطقة، نقول إن تركيزنا الأول كان عن ـ وحول ـ الغرب الذى أسهم فى كثير مما نحن فيه.

كانت إشاراتى المتوالية، إذن، عن الخطر الخارجى، وكانت الإشارات الآتية مغايرة أو ـ بشكل أدق ـ تعيد ترتيب هذه الأخطار حسب أهميتها بتعبير جديد، إنه الخطر الداخلى هذه المرة.

هذه ملاحظات عامة أستأذن القارئ الكريم أن نصل إليها عبر بعض

هذه الرسائل (بالنص) كما جاءتنى، قبل أن نستبدل بالملاحظات بعض التعقبات التى تاتى هنا ليس على سبيل الخلاف أو الاختلاف وإنما التفكير بصوت..

فلنشر إلى بعض هذه التعقيبات قبل أن نجاوزها إلى ما بعدها..

(2)

إننى أكتشف الآن أن هناك رأيًا آخر لم نلتفت إليه بالقدر الآخر، وهو رأى يعبر عن نفسه كيفما يشاء وتسيطر عليه عدة عوامل، وينصرف فيه الرأى إلى أمرين:

- إما حول غياب الوعى العلمى أو الاجتماعى فى داخل كل قطر، وإما حول غياب الوعى التقنى بين هذا القطر أو ذاك.

وكلها أسباب أو بواعث تشير إلى الداخل أكثر من الخارج أو إلى نظرية المؤامرة، ففى رسالة قرأت (وانا أنقل بالحرف الوحد):

إلى.....

قرأت مقالكم «عن الذين يقولون وداعا للعروبة» أهرام 6 نوفمبر 2002 و.. باختصار، مصر هى القاطرة أصيبت بالعطب وذلك:

التعليم والبحث العلمى فى أسوأ حال، ولسنا فى حاجة إلى دليل وشرح، وأنت الأكثر دراية منى (أعمل فى البحث العلمى منذ أكثر من 38 سنة) نناقش الحجاب (أرى أنه حرية شخصية) وتفرد لها صفحات الصحف التى هى ملك لى ولك وننسى الفساد وسرقة البنوك وإن أصلحت ما سبق تكون العروبة بخير إذا كانت القاطرة بخير........................

د.محمد شريف

ومن رسالة أخرى عبرت الهم العلمى والاجتماعى إلى التقنى العربى قرأت:

إلي أن تكنيك القومية العربية الإليكترونية فى الزمن الرقمى مغيبة، وذلك لا يحتاج لإسهاب وتشهد عليه حواء الفطرية وحواء المنسوخة، لكن ما يحز فى النفس أن وسائل الاتصال التى وجدت لتجعل الكوكب داخل قرية صغيرة فشلت فى توحيد 22 دولة داخل خيمة إليكترونية معها دينار أو درهم أو ريال أو جنيه إليكترونى.. و(و).. ويمكن أن نلاحظ فى الندوة الإقليمية للأعمال الإليكترونية للمنطقة العربية التى عقدت أخيرًا كم كان الوعى على المستوى النخبوى رفيعًا بين الاخوة العرب، وكم كانت الفروق والهوات بين أداء الحكومات العربية الإليكترونية.. إنه الخطر الداخلى هذه المرة.. كم كانت المسافة طويلة لالتقاء تكاملى عربى معلوماتى مرسوم له أن يصاغ بداية من تونس عام 2005.

أسأل هنا: إذن كيف سيتم تواشج فكرة الحكومات الإليكترونية، وكيف سيتم البوح بسر حكومة إليكترونية عربية موحدة وليست حكومات تمثل الشعب العربى المغلوب؟!.. فما الفائدة من عقد ندوات؟ وما الفائدة من حديث عن العروبة إذا كنا فى الداخل غافلين عما يحدث لنا؟ وهل ما يحدث حقًّا بين أقطارنا فى صالح الوعى القومى؟.. أسئلة لا نجد لها إجابة حين نظر إلى الداخل.. داخل أقطارنا وليس إلى الخارج وحسب..

....

أحمد محمد يوسف

ولا تنتهى التعقيبات، فلدينا منها الكثير، مما سنشير إليه فيما بعد غير أن التفكير معًا بصوت عال لا ينتهى..

(2)

لقد لاحظت هذا السيل المنهمر إلىَّ من ردود الأفعال التى تراوحت بين الرسائل البريدية والإليكترونية والفاكسات.. إلى غير ذلك، إن رجل الشارع لا يرتاح للإشارة إلى قوى الغرب فى عصر «عسكرة» العالم وحسب، وإنما يضيف إليها، وربما يسبقها بخطر آخر على العروبة هو الخطر الداخلى..

غير أن ردود الأفعال أضافت، وربما قدمت الخطر الداخلى أيضا، بل لا أبالغ إذا قلت إن «كل» ردود الأفعال تحددت حول الخطر الداخلى أكثر منه الخطر الخارجى..

صحيح أن البعض يتحدث عن الخطر الخارجى، والبعض الآخر يحاول أن يسبق هذا كله بوضع «اقتراحات» أو حلول بشكل يكسر حد التشاؤم، غير ان النظر إلى ما يحدث لنا فى كل قطر، وبيننا فى كل قطر، هو أكثر ما بدا وضوحًا.

وهو ما لفت نظرى بالفعل، ودفعنى لاعادة النظر ليس إلى ما أشرت إليه وحسب، وإنما إلى إعادة النظر إلى السائد بيننا ليس الغرب وحده هو المسئول، حدثت نفسي، وإنما نحن ـ أيضا ـ فى المقام الأول وما لفت نظرى أكثر فى هذا الصدد، أننى وإن كنت قد أشرت إلى الخطر الداخلى أيضًا، فإن الإشارة إلى هذا الخطر الداخلى يكون مسئولا وحده ـ لدى كل من كتب إلينا ـ عن الحالة التى أصبحت فيها العروبة الآن.

﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾ .. هى الآية الكريمة التى ترددت عبر الخطاب العام هنا.

وما لفت نظرى أيضا، أن الرسائل التى جاءتنى لم تات من مثقفين تقليديين، أو رددت هذه الأفكار التى تعرفنا عليها فى الدراسات العلمية فى مراكز الأبحاث والدراسات العربية، وإنما كانت تصوب إلى مباشرة من

«رجل الشارع»، الرجل العادى الذى تعرف على الكوارث الحقيقية التى نالت منذ نصف قرن أو يزيد، وكانوا هم أكثر من عانى منها ودفعوا ثمنها كثيرًا..

لقد جاءتنى رسائل من عديد من الطلبة، ومن عديدمن العمال فى مناطق ومنشآت شتى، كما كانت هناك رسالة من صيدلى آثر أن يترك اسمه هكذا «س س» وآخر يوقع اسمه بدون تحديد المهنة أو العمل الذى يقوم بممارسته، ولاحظت أن أكثر من رسالة اختتمت بعبارة لها معنى واحد وإن تعددت التعابير من مثل هذه السطور التى أنهى بها البعض رسالته وهو يوقع (س.س)، يقول:

وبعد يا سيدى.. أعتذر عن الإطالة وأشكر لكم كتاباتكم العميقة الوافية المستوفية، ولكن قبل أن أختم رسالتى إليكم أوجه نظركم إلى أننى لست أرهابيًّا ولا متطرفًا ولا معتوهًا أو يمينيًّا أو يساريًّا.. إلخ هذا الهراء.. كما أننى لا أنتمى لاى حزب من أحزاب مصر العامرة بهم أو قل الخربة بهم..أنا يا سيدى مثل آلاف بل ملايين المغلوبين المقهورين ولا صوت ولا حيلة و....

إلى آخر هذه التعابير البسيطة النابعة من قلب الإنسان العادى الذى يمثل الأغلبية فى بلادنا اليوم..

وآخر يرى أن المثقفين يعرفون كل شيء، ومن ثم، فهم لا يحتاجون الاستطراد، فبعد أن يشير إلى أهم ما يعتريه من ألم لغياب العروبة يقول لك أتحدث باختصار لأنك مثقف لست فى حاجة للشرح من مثلى..

وكدت أقول له ـ وأنا لا أراه ـ يا سيدى إن المثقف هو الذى يحس بنبض الجمهور، الرجل العاجية، وليس من بين الجالسين فى الأبراج العاجية، وليس إلى المنتمين اليوم لنظام واحد أو لأنظمة «متعددة الجنسيات»..

تنتهى هذه «العينات» من الرسائل، ولا ينتهى ما تؤكد عليه أنه ليس المهم أن نعود للتاريخ لنراقب تطور الفكرة العربية ولا للحاضر لنواكب عداء العدو الخارجى، وإنما ـ وهو ما تعلمت منه هنا ـ التنبه أكثر وأكثر إلى العدو الداخلى، ليس فى العروبة وحسب، وإنما فى أشياء أخرى كثيرة آن لنا ان نتنبه إليها..

غير أن «وداع العروبة» أو «موتها» ـ هكذا ـ كما جاءت فى كتابات أخرى بين يدى يحتاج منا وقفة أخرى..

«العروبة».. ومعرض الكتاب

ثالثًا

كدت أنصرف عن قضية العروبة وعن الذين يقولون وهم العروبة ـ كما تتبعنا فى المرات السابقة ـ لولا ما دار فى معرض الكتاب الدولى هذا العام..

وبشكل أدق، كنت مزمعًا للانصراف إلى شىء آخر أكثر إيجابية من القضايا الوهمية التى يروجون لها رغم خطورتها، مثل إثارة قضية كان يجب أن تكون محسومة فى الضمير العربى، لولا أننا أصبحنا نعيش الآن فى كثير من القضايا الوهمية، أو القضايا التى ترتدى زى القضايا الوهمية وتتسرب إلينا فتصبغ القضايا الحيوية بكثير من الوهم والزيف، فإذا بنا نتحدث حديثنا معادًا بعيدًا عن المستقبل وما يجب أن نكون فيه..

أقول كنت على وشك الفرار من ما هو كائن إلى ما يجب أن يكون، خاصة أن تناولنا لكثير من قضايانا الآن بكثير من العنف، ولولا أن الكثير من الرسائل البريدية والإليكترونية كانت تدعو إلى الخطر الداخلى الذى تعانيه أقطارنا دون أن تتنبه إلى الخطر الخارجى الذى يكاد يعصف (بوجودنا) العربى ذاته.. وهنا لاحظت إشارة الرئيس فى خطابه الأخير إلى

القضية بشىء كثير من الوعى أمام عدد كبير من المثقفين العرب وإلى المثقفين المصريين وحسب.. لم يكن معرض الكتاب الدولى هذا العام ـ مثل كل الأعوام السابقة ـ غير تعبير عن الوعى العربى (العربى) وليس القطرى بأية حال، ومن ثم فإلى جانب ظواهر كثيرة نلاحظ تأكيدها فى المظاهرات التى تعبر عن نفسها، والمنظمات التى تؤكد أهمية الواقع العربى فى تأكيده على الانتماء الواحد.. إلخ، فإن معرض الكتاب يتحول إلى منبر ديمقراطى يعبر فيه الإنسان العربى عما يريد، وهو دور لم يتوقف عند حدود الوطن ـ بتعبير الرئيس ـ وإنما ـ ونحن هنا ننقل بالنص ـ.. امتد لآفاق عربية ليكون بمثابة ملتقى سنوى للمفكرين العرب، مؤكدًا بذلك ريادة مصر التاريخية فى صياغة الملامح الرئيسية للحضارة العربية، فقد استطاعت مصر تاريخيًّا أن تكون حالة حضارية وثقافية خاصة ومتفردة، أثرت الحياة الثقافية العربية وأثرت فيها، وشكلت مصر مناخًا مثاليًّا لجميع المفكرين والمصلحين والمثقفين المصريين..

وعلى هذا، فإن الجمعة الماضى شهد هذا الجمع الكبير من المثقفين المصريين خاصة والعرب بوجه أخص الذين جاءوا من شتى أنحاء العالم العربى ليقوم الرئيس العربى فى مصر بتكريمهم من البحرين ولبنان والكويت وسوريا وليبيا والسودان والإمارات.. فضلاً عن المنظمات والهيئات العربية الأخرى.

وليتقدم برهان جديد على الوعى بالعروبة.. وهو ما دعانا الآن للعودة إلى هذه القضية التى تنال فى تناولها قدرًا غير بسيط من العنف.

فلنقترب من حديث العنف وحديث الوهم ـ وما أكثر أحاديث أهل بيزنطة ـ لنرى إلى أى حد تتفاوت أساليب التعبير وطرائقها قبل أن نصل إلى ما بعدها.

(2)

التعبير الأول هو التعبير العنيف..

وهو تعبير آثرنا العود إليه وأنا أعيد تصنيف كل هذا الكم من الردود والرسائل فألاحظ انها تتحدد ـ رغم ألوان الطيف ـ فى قطبين رئيسيين:

ـ إما تأييد العروبة انطلاقًا من العمق الثقافى فى اللغة والدين والتاريخ.. إلخ انطلاقًا من الواقع الحى.

ـ وأما العنف فى التعبير على العروبة، انطلاقًا من المقولة التى ترددت بشكل مكثف وكلها لا تخرج عن الوهم أو الغفلة حين نستخدم التعبيرات الدمثة بدلاً من التعبيرات الغثة العنيفة التى لاحقتنا..

وهذه الملاحظة (إما أقصى اليمين أو أقصى اليسار) كانت لافتة للنظر لدىَّ بشكل دال، فمن يراقب حياتنا الفكرية اليوم، سوف يجد أن التعرض لكثير من القضايا لا يخرج فى الغالب عن الرأى والنقيض له الأبيض الشفاف والأسود القاتم.

إما أن تكون معى، فتتحدث عن الحتم العروبى الإيجابى الذى لا بد أن نتمسك به بدون حوار أو جدل وإما أن تكون ضدى، فتتحدث عن الوهم العربى السلبى الذى لا بد أن تكون حذرًا منه بدون لف أو دوران، وفى الغالب فإن صوت العنف فى الحوار وتوزيع الاتهامات يكون أعلى من صوت الإقناع أو الاقتناع، هكذا تدور معاركنا أو فلنقل حواراتنا التى تتحول إلى معارك على صفحات الصحف أو عبر نوافذ الويب أو ـ حتى ـ فى منابرنا الكلامية هنا أو هناك.

يحدث هذا كله، ونراقبه، فى حين أن موقفنا العربى المبدد إزاء ما يحدث اليوم لا يعلو إلى مرتبة النظر بحيدة وموضوعية إلى خطورة هذه الفترة التى نحياها..

وهو ما نضرب معه بعض الأمثلة قبل أن نخرج ـ بعد ذلك ـ من دائرة الوهم الذى يتحول إلى مشادات تصل إلى درجة التجريح أو الاتهامات بالغفلة فى أحسن الأحوال..

إن أمامنا رسائل كثيرة تشير إلى العنف وتدل عليه، ربما كان من أهمها رسالة وقع عليها صاحبها محمد البدرى عبر البريد الإليكترونى، ولن نتوقف كثيرًا عند الرسالة الطويلة التى تصل إلى أربع صفحات، وإنما عند مقدمتها، حيث تلخص هذه المقدمة ما يريد الكاتب أن يقوله، بهذه الطريقة التى أثرها، فهو يكتب عنوانه الأول موت العروب ـ هكذا ـ ثم إنه يستخدم بعد ذلك الألفاظ بطريقة توحى بكثير من العنف فى التعبير إلى درجة بعيدة..

ومع أن التعبير هنا عنيف، فسوف نذكره لتأكيد هذه الحالة التى نشير إليها، انه يستبدل ببيت الشاعر المعروف ببيتًا آخر قريب منه فى أغلب الألفاظ عدا لفظة يصل بها إلى قمة التعبير الجاف الصارم العنيف، يقول:

لكل داء دواء إلا العروبة أعيت من يداويها

وعلى هذا النحو، فإلى جانب عدم توفيقه فى الوزن الشعرى، فإن ما يهمنا هنا هذه الدرجة التى يستبدل فيها بلفظة العروبة لفظة الحماقة، بما يشير إلى المنحى الذى يلخص الخطاب العام فى رسالته الطويلة.. وكما نكتفى بذكر ملاحظة عامة بدأ بها هذا الكاتب رسالته، كذلك نشير إلى الجانب الآخر، الكاتب الذى يحمل وعيًا أكبر، ويحاول عبر رسالته أو تعبيراته المكتوبة أو المنطوقة التعبير الذى يذهب إلى التأييد لا التجريد من طريقة التعبير المعنوى الرقيق..

وهو فى هذا كله يتنبه إلى الخطر الخارجى أكثر منه إلى الدافع الذاتى أو الخطر الداخلى، وهى فئة مغايرة فى انطلاقها للفئة الأولى.

(3)

ومن هذه الفئة الأخير شغلنا بالحوارات الطويلة مع عدد كبير من الكتَّاب والمثقفين، بعضهم كتب من رسالة طويلة: إن الهجمة الأمريكية موجهة إلى ثوابت هذه الأمة العربية، ولأنها تريد نزع ما يملكه العرب من إمكانيات لدعم العروبة سواء المادية والثقافية وغيرها بحجة ما يسمى بالإرهاب، هذا بالرغم مما أعلنه الرئيس مبارك فى برلين سبتمبر 2001 بأن الإرهاب لن يتوقف ما لم يتحقق حل عادل للقضية الفلسطينية، وما زالت أمريكا مصرة على ضرب العراق وبعدها خطوات أخرى لتفتيت الأمة العربية حيث أصبح تقسيم المنطقة واضحًا أمام الإستراتيجية الأمريكية ومن جانب آخر فأنا أتفق مع الكاتب بأن أصحاب وداعًا للعروبة هم فى مقدمة من يسعون إلى تحطيم الوعى العربى ومحاولة النيل من المستقبل.

ولنتساءل معًا هل تناسى أصحاب هذه الدعوة المسمومة ما قدمته العروبة من حضارات وثقافات ساعدت الغرب على التقدم، وهل تناسوا معاركنا القومية فى انتصارات صلاح الدين ثم مواجهتنا الحملة على العرب والتى هزمت على الحدود المصرية بفضل الوعى العربى الإسلامى؟.

ـ وهل تناست أمريكا دروس التاريخ للنازية والتى اعتمدت على تحقيق أهدافها على العدوان المسلح؟ وهل تناسوا ما تحقق من انتصار فى أكتوبر وتحطيم خط بارليف الذى كانت تتباهى به إسرائيل وتم ذلك بعبقرية الإنسان العربى فى مصر.

ـ وما هو سر الكراهية لأمريكا فى كل منطقة فى العالم، لعل ذلك يرجع إلى ازدواجية المعايير للقرار أو من خلال فقدان الثقة فيما تدعيه بالنسبة لحقوق الإنسان وديمقراطيتها أو لنكرانها لحقوق الشعب الفلسطينى المدعم بالشرعية الدولية؟

ـ وهل لا تعلم أمريكا أنها بضربها للعراق ـ بدون مبرر ـ وتدمير الشعب الفلسطينى وما تخططه لتقسيم العالم العربى كلها عوامل قد تزيد من عمليات ما يسمى بالإرهاب؟ رغم علمها أن شعبنا العربى لن يجد وسيلة أخرى سوى مقاومة هذا الاحتلال، والذى كفلتها ميثاق الأمم المتحدة والقوانين الدولية؟ هذا علاوة على أن التحدى العربى دائمًا لا يظهر إلا بالإحساس بالظلم والعدوان، والذى سيترتب على هذه المخططات الغربية، وبالتالى فمطلوب الآن تجمع العرب؛ لأن هذه الهجمة الجديدة وبأسلحتها الحديثة سوف تفوق كل ما تم فى البلقان وأفغانستان، كما سوف تصيب بها شعوب المنطقة بالدمار الشامل.

ولتقديرنا للسلام والعدل فلماذا تتناسى أمريكا مطالبة العرب والرئيس مبارك فى نوفمبر 2002 بتطبيق ذات المعايير التى يجرى تطبيقها فى العراق حاليًّا على إسرائيل، حيث يعلم الجميع أن لديها ترسانة من السلاح النووى، والولايات المتحدة مطالبة بذلك طالما أنها تتصدى لعملية نزع أسلحة الدمار الشامل فى المنطقة، وتضيف إلى ذلك الاستغراب الدولى باستمرار التهديدات على العراق، وفى نفس الوقت نفسه تقرر أمريكا معاملة كوريا الشمالية والتى تمتلك القدرة على إنتاج أسلحة الدمار الشامل بالحلول الدبلوماسية..

ولماذا لا تكون هذه الحلول الدبلوماسية هى المخرج للحفاظ على مصالح أمريكا فى المنطقة العربية، بدلاً من دخولها فى ترتيبات لا يعرف مخاطرها المقبلة على الجميع..

ـ وهل تناست أمريكا ما حذر منه العالم البريطانى فى أوائل يناير 2003 السير جوزيف روتيلات والحائز على جائزة نوبل للسلام عام 1995، من أن الرئيس الأمريكى جورج بوش يضع العالم على مسار سيفضى إلى كارثة

نووية، وكما نشرت صحية الجارديان تصريحاته فى 9 من يناير الجارى بأن إدارة بوش والتى اختطفتها الصقور تطور سياساتها، وذلك باعتبار أن الأسلحة النووية سلاح شرير بالنسبة للأمن العالمى إذا كانت فى حوزة بعض الدول أو الجماعات، وسلاح طيب إذا كان فى حوزة الولايات المتحدة، كما أوضح أن الولايات المتحدة تتبنى حاليًّا سياسة نووية خطيرة للغاية، وتستند فى جوهرها إلى الاحتفاظ بالترسانة النووية ليس فحسب كسلاح يتم اللجوء إليه كملاذ أو كرادع ضد هجوم نووى، وإنما كأداة عادية لاستخدامه فى حل الصراعات، هذا بالرغم مما تعلمه من نتائج مدمرة لهذا السلاح كما حدث فى اليابان.

ـ هل بعد أقوال هؤلاء العلماء، يستطيع الرئيس الأمريكى أن يتحمل الآثار السلبية للفوضى الدولية والتهديدات لكل أمريكى وغربى سواء فى الداخل أو الخارج؟ وذلك بفعل المقاومة المتوقعة للاحتلال من جانب الجماهير الإسلامية والعربية، وذلك بفعل شرعية المقاومة للدفاع عن النفس والذى كفلته القوانين الدولية، والعجيب، لماذا لا تقاوم أمريكا إرهاب الدولة الصهيونية والتى تقوم بالقتل والتدمير للشعب الفلسطينى؟ فأين ما تسميه بحقوق الإنسان التى تتبناها فى المنطقة العربية وما تدعيه على الساحة الدولية؟.

ـ كل هذه التساؤلات مطلوبة للحوار مع أمريكا وفى الوقت نفسه يتدعم بها الوعى العربى وذلك من أجل الدفاع عن العروبة ومستقبلها، وما يدفعنا إلى ذلك لأن أصحاب العروبة ـ أقدم الحضارات ـ والتى استفادت منها الإنسانية وحتى الدول الغربية نفسها.

السفير د. فاروق الصادق

وعلى هذا النحو، فإن الوهم ـ وهم العروبة ـ أريد به باطل، وهو ما

يجعلنا نقول بوضوح شديد إن من يتحدث عن هذا الوهم أمام كل هذه الأخطار التى تنال منا جميعًا إنما ـ على حد تعبير الكثير ممن التقيت بهم من شتى الأقطار العربية ـ وفى مقدمتهم السورى د. عز الدين دياب ـ هو وهم فى عقول الناس الذين يقولون هذا، وهم أصحاب الردة فى العالم العربى.
فلا يجب أن ننسى أن هذه العروبة هى التى أجهضت الحلف الأطلسى وحلف بغداد وعرفناها فى حرب الجزائر والمظاهرات اليوم فى المغرب والبحرين وسوريا ومصر لما يحدث ضد إرادة المنطقة العربية كلها.. وبقية أحداث التاريخ وكتابة معروفة..

لقد بدا واضحًا الآن أن قضية وهم العروبة إنما هى جزء من قضية أشمل، هى قضية البقاء أو الصيرورة إلى مصير الهنود الحمر، وما يحدث الآن ليس غير تعبير عن المد والجزر فى حركة التاريخ وقيم الصراع فقط، المد القومى يطعن من كل مكان، وحاجتنا إلى التنبيه إلى الخطر الخارجى إذن تفوق أى أمر آخر، وإلا فمن يقول لنا الآن: لماذا ضرب المد الإسلامى فى المغرب العربى..(هل يقول لنا أحد كيف تتردد صيحة التحذير من آن لآخر فى الصحف الأمريكية خاصة فى الحقبة الأخيرة؟).

إن العروبة لا تتعارض مع قيم ثقافية كثيرة نعيشها، بل إنها تتكون من هذه القيم الثقافية التى هى ـ القيم الثقافية ـ لا تتعارض مع السياسة العربية بأية حال.

فقط، لا بد من نزع غضب اللحظة الراهنة والتمترس خلف العروبة التى هى الكتلة الحيوية التى تمكننا ـ حين تتماسك ـ من البقاء فى العالم الذى لا يبقى فيه غير صاحب الإرادة المتمسك بالكتلة الواحدة، وهى عندنا: العروبة، والمتماسك بالوعى والمعرفة، وهو عندنا التنبه إلى أهمية حقيقة أن العروبة هى مفتاح تماسكنا خاصة، ثم بقاؤنا فى هذا العالم على وجه الخصوص.

وهو ما جعلنا نتنبه إلى العبارات التى احتواها خطاب الرئيس من مثل الريادة العربية وهويتنا العربية والقضايا الثقافية التى تنصرف من ناحية إلى مصر العربية ومن ناحية إلى العالم، وهو ما يدفعنا لاستحضار الحقيقة القائمة والثابتة من أن الدور المصرى ـ العربى هو ما يجب التنبه إليه ليس على الصعيد المحلى والإقليمى، ولكن أيضًا على الصعيدين العالمى والدولى.

وهى تعبيرات السيد الرئيس التى تؤكد عمق الوعى الحضارى العربى فى الدائرة العالمية.. وليس حديث العنف أو الوهم بأى شكل.. وليس حديث الردة التى استسلمنا إلى ما نحن فيه اليوم.

سأل إدوارد سعيد منذ أيام: كيف لمنطقة يسكنها 300 مليون عربى أن تنتظر بهذه السلبية انهيال الضربات والانتظار دون إطلاق صيحات جماعية للمقاومة والاحتجاج والطرح القوى البديل؟ هل تلاشت الإرادة العربية؟.

ونسأل بدورنا: أما زال بيننا من يتحدث عن وهم العروبة..؟

وما زال فى الفم ماء كثير.

المتنبى.. يظهر فى بغداد!!

أولاً

ما زلت أذكر هذا الصباح البعيد

ذلك الصباح حين وقفت أمام ضريح المتنبى فى قضاء النعمانية..

ذكرنى الرفيق أن هذا الضريح على بساطته يتم العمل فيه منذ شيد فى نهاية السبعينيات. كان المبنى بسيطًا.. سألت الرجل الواقف بصمت قرب الباب:

- متى أقيم هذا الضريح ؟ أجاب:

- أقيم - كرمزبسيط - منذ زمن بعيد، لكن تشييده الرسمى بدأ تحديدًا فى عام1978 م

- لكنى أرى حوله ساحة كبيرة توشك أن تتطور

- بالفعل، هناك تطوير وإن كان بطيئًا يتمثل فى هذه الساحة الكبيرة من الحجر، ساحة ضخمة مبلطة، ويمتد التبليط إلى شارع عام (نعمانية زبيدة) يربط بالضريح، وهناك إضافات أخرى..

- ثم أترى هذه الخطوط على الشارع العام هناك.

- بالفعل هناك تصميم لقاعة كبرى للاحتفالات ودار للاستراحة ودور

للضيوف، ومرفق ثقافى وسياحى.. مضيت إلى بغداد- عبر 170 كيلو من محافظة واصل إلى بغداد.

وحين عدت بعدها بسنوات، وكان هذا فى بداية التسعينيات، إلى بغداد منذ وقت قصير وجدت تطويرًا كبيرًا قام به الفنانون العراقيون لم أستطع إغفاله..

وقفت بجانب الضريح والبناء الذى أصبح يحيطه سياج حديدى، وأن أشخص إلى بعيد، إلى القرن الرابع، حيث جاء المتنبى من هذه البلاد، حين خرج من الكوفة لأول مرة إلى بغداد..

حين ظهر المتنبى فى بغداد..

** فلما كان عام 319 هـ دخل بغداد

ظهر الشاعر العربى الكبير فى بغداد هذا العام.

كان البوهيون قد سيطروا على بغداد، وكانت هذه الفترة فترة اضطراب شديد فى العاصمة العراقية طيلة القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وما لبث أن هاجم البلاد الروم..

ثم ارتكبوا هؤلاء الكثير من الفظائع واقترفوا الكثير من صورالاعتداء على المناطق المقدسة فى الأرض العربية هنا، وهى صورة تتكرر كثيرًا فى تاريخ بغداد لمرات عديدة..

وهو ما يذكرنا بما يحدث هذه الأيام حين راحت القوات الأنجلو أمريكية تهجم على النجف..ازدادت كثافة دخان اسود متلاطم الأطراف- كما تنقل وكالات الانباء - هذا الفضاء الذى يقع فيه ضريح الإمام على، خاصة هذه القبة المطلية بالذهب..

«لقد دفعت الفرقة الأمريكية الشرسة بقواتها الضخمة لتهاجم النجف وترمى بصواريخ عديدة من نوع جى بى يو 12 - على هذه المنطقة».

كان الصراع يعيد نفسه من جديد بين العرب والعجم، أو بين العرب والروم (أو بين العرب وأعدائهم الذين يتوالون منذ قرون بعيدة، ويحملون من الأسماء التى تتباين أو تختلف، فى حين أن دورهم كان واحدًا هو القضاء على هذه المنطقة..).

من أقصى الأرض جاء الغزاة الآن من أولاد العم سام، ليهجموا ويدمروا كل شىء هنا فى بلادنا..ليدمروا كل شىء ويحفزوا أبناء الأرض على الغضب والمقاومة...

وهو ما يعود بى ثانية إلى الوقت الذى ظهر فيه المتنبى فى بغداد.. كان الصراع فى أعماق المتنبى بين عروبته واستيلاء العجم، بل ومحاولة الروم فيما بعد على أرض العرب..

ومن هنا، فإن الصراع فى دخيلته كان بين كونه عربيًّا، وبين هؤلاء الغزاة الذين يريدون بعسف شديد الاستيلاء على بلاد العرب..

بل كان الصراع بين الشاعر العربى وبين جملة الحكام الفاسدين فى عصره أولاً، ثم تعرض المنطقة العربية - فى زمن فساد حكام البلاد وضعفهم - إلى وحشية عدد كبير من الأعداء كالعجم والروم والترك والديلم ثم المغول والتتار فيما بعد، فى هذه الفترة المضطربة من تاريخنا..

وهو ما يفسر أنه لم يستطع أن يقيم طويلاً بين الكوفة وبغداد ليغادرهما إلى أرض الشام - إلى عربى شديد المراس هو سيف الدولة الذى عاش معه بين عامى 336 و 346 (هـ).

والواقع أن ظهور المتنبى فى بغداد - رغم رحيله منها إلى الشام ومصر وعودته إليها ثانية - إنما كان يحمل رمز وجوده فى العاصمة العربية، إذ كان يعبِّر عن الواقع العربى، وكأنه فى هذه العاصمة..

والفترة التى عاش فيها فى بغداد كانت فترة الغضب علي «حالة» العرب

من الديلم الذين حاولوا الاستيلاء على ملك العرب، فقد رأى أن هؤلاء القوم - أى الديلم «آذنوا ببوار» لحالتهم الهمجية، ومن ثم فإنه لم يجد هذا المناخ الذى يريحه كشاعر عربى وهو القائل قبل أن يفكر فى الخروج:

خليلى ما هذا مناخًا لمثلنا فشدا عليها وارحلا بنهار

ومتابعة أحوال المتنبى فى هذا الوقت ترينا أنه عاش بين العراق والشام فترة التوسع الأجنبى فى البلاد، ومتابعة موقف قائد عربى شجاع وتصديه للروم مثل سيف الدولة الحمدانى، ترينا أنه سعى إلى إنقاذ المنطقة العربية من الأخطار الخارجية والداخلية..

لقد عاش المتنبى كثيرًا من غزوات الروم للبلاد وتألم لها كثيرًا، وهاجر من بعض البلاد إلى غيرها لهذا الهوان، ثم رحل إلى بلاد أخرى ليرى شجاعة قائد عربى لتصديه لهم..

كان قد أدرك أنه بحاجة إلى حاكم عربى يسعى إلى توحيد البلاد العربية، وهو ما وجده فى سيف الدولة الذى استطاع أن يزيح الإخشيديين، ويزيل سلطان الموالى وداعية الفاطميين وكان سعيه الدائم الدائب ليجمع العرب فى فكرة تقول: إنه لا مناص من الاتحاد للنصر ضد الأعداء.

كان الواقع يؤكد فى هذا الوقت، كما هو اليوم، أن الوحدة فى الداخل هى الخلاص الوحيد للنصر على الروم فى الخارج، والوحدة فى الداخل تعنى الوحدة الحقيقية على قلب رجل واحد، والوعى الحقيقى على قلب رجل واحد ضد هؤلاء الذين يعيشون بيننا، بينما يمثلون الطابور الخامس ـ غير المعروفين ـ أو الطابور الأول ـ (المعروفين).

وعلى هذا النحو، كانت العلاقة بين المتنبى وسيف الدولة، وكان المتنبى واعيًا أشد الوعى بضرورة العود لتحرير بغداد مما تلاقيه، وفى الوقت نفسه

واعيًا مما يجد فى العراق من اعداء ليسوا من الروم وإنما هم ـ كما نلاحظ ونكرر ونجتر ـ من بين أهلها.

* * *

إنهم «روم» آخرون تزيوا بالزى العربى واللسان العربى، لكن حقيقتهم أنهم يريدون الاستئثار بالحكم، ومن ثم يصبحو فى استبدادهم وتخاذلهم معًا، مثالاً للروم فى الداخل، ولهذا، فإنه يسأل سيف الدولة الذى شغل طويلاً بقتال الروم أن يعود لحرب هؤلاء الخونة فى الداخل..

لم يكن الخطر فى روم الخارج قط، فقد عرف أنهم الأعداء، الذين يسعون للنيل من العرب، لكن الخطر الأكبر- والتكرار مقصود هنا ـ .. كان من روم الداخل - هؤلاء الذين يسعون للنيل من أهلها، وهو ما يصوره أبو الطيب حين خاطب سيف الدولة قائلا، أملاً منه العودة بعد الانتصار على روم الخارج، وتأمل معى عبارات الشاعر العربى للقائد العربى:

أنت طول الحياة للروم غاز... فمتي (الوعد) أن يكون القفول؟

وهنا يفسر المتنبى الأمر حين يصرح فى البيت الأول بأن سيف الدولة كان قد وعده أن يقفل من غزو الروم الذين يهددون أطراف الشام، ويعد العدة لغزو غيره.. وأراد منه العود للعراق «ويميل عليه»، ويزيل عنه سلطان الموالى والأعاجم.

والمعروف ان القائد العربى كان يسعى الى تحقيق شىء من الوحدة العربية، أو جمع أشتات الأقطار العربية فى نظام واحد، ومن ثم، فقد سعى بالفعل لتحقيق هذا الأمر حين تخلص من الاخشيديين فى الشام ودفع بهم إلى الرملة، ثم كانت معركته بعد ذلك فى المشرق العربى كله، حين سعى للقضاء على الموالى أو إبعادهم عن هذه الأقطار العربية التى أصبحت ممزقة، فقد كان حرصهم على البقاء فى الدويلات اكثر من حرصهم على رفعتها

ووحدتها ضد العدو الخارجى، كما سعى لتأكيد وجود الخلافة العباسية للخلاص من حكم الفاطميين الذين راحوا يستأثرون بمناطق معينة فى الوطن العربى (رغم أنه علوى المذهب)..

وعلى هذا نفهم أن سيف الدولة كان قد وعد المتنبى بالعود بعد هزيمة الروم فى الخارج إلى التهيؤ لرد روم الداخل، أى يعود إلى العراق ليحرر هذا القطر العربى الأبى من سلطان الأعاجم (الروم) والموالى (الروم الجدد).

وأمام محاولات القائد الرمز، توحيد هذه الأقطار بعد انفراطها، كان رد الفعل عنيفًا ممن يحكمونها ويستأثرون بالسيطرة عليها، وهو يفسر كيف أنهم ـ فى سبيل بقائهم ـ كان من الممكن أن يفعلوا أى شىء للحرص على الملك أكثر من الحرص على العقيدة أو كرامة الأمة..

ومن ثم، فإن المتنبى - كما يلاحظ البعض - جعل القائمين بالحكم والمستولين على السلطان فى العراق، وما وربما أكثر شراسة من روم الخارج، فهؤلاء لما وقفوا على عزيمة سيف الدولة فى إزالتهم عن العراق، أوعزوالى ملك الروم أن يقاتله، اذ أوقعوا فى قلبه وفكره بمكرهم ودهائهم أن سيف الدولة الذى كان يمد سلطانه على الشام يومًا بعد يوم، انما يريد بذلك أن يزيل الملك من بين يديه ويغلبه على بلاده، وبذلك يتم لهم مايريدون من صرف سيف الدولة عن حربهم، وانصرافه إلى حرب الروم، ويكون ذلك استهلاكًا لقوته، حتى إذا ما أراد أن يميل عليهم، يكون قد فقد صفوة المحاربين معه فى قتال الروم، فلا يصيب إذ ذاك فى حربهم وقتالهم ظفرًا ولا نصرًا.

* أمس الأول ألقيت كل الصحف بعيدا جدًا وأنا أصيح مع المتنبى:

وسوى الروم خلف ظهرك روم.....

....

ثانيًا

.. عدت من قضاء النعمانية إلى بغداد، ورغم أن هذا كان يعنى قطع مسافة تصل إلى 170 كيلو من بغداد، فإن قطع هذه المسافة كان يعنى ضرورة التعرف على قبر الشاعر العربى الكبير، الغريب، على حد تعبيره الشعرى.

أذكر هذا المشهد الآن وأنا أشعر بالرهبة الشديدة، والتى تكثفت لدىَّ بحالة أشبه «بالاغتراب» أو «الغربة» التى أحس بها الفتى العربى - المتنبى - فى زمنه.. رغم مضى قرون على ظهوره ببغداد أول مرة (القرن الرابع)، ففى زمنه كان لا بد أن يشعر الشاعر، الفتى، الآتى من الكوفة إلى عاصمة الرشيد بهذه الغربة مرة، ثم الفتى العائد إلى بغداد مرة أخرى من الولايات العربية: اللاذقية وبعلبك ودمشق وطبرية وحمص ودمشق وحلب وأنطاكية ومصر قبل أن يعود إلى بغداد..

العالم العربى حينئذ كان قد أسلم شاعرنا - رغم الطموح والجموح - إلي «حالة» الاغتراب هذه، وهى الحالة التى تنتابنى الآن - زمن سيطرة القوات الانجلو امريكية على بغداد - بعد كل هذه القرون..إنها «الحالة» التى تستدعينى أو استدعيها هنا، والآن، بألم شديد.

هل هو المتنبى، أم هو المثقف العربى الآن.. ؟

هل هو التاريخ الذى يتكرر، ونجتر ما يحدث فيه من جديد ؟

هل التاريخ - بالفعل - لا يعيد نفسه ؟ إذن، وهى الإجابة البدهية التى تسلمنا إلى السؤال الأوضح..إذن، فلماذا ترزح بغداد الآن تحت سيطرة الغرب ؟

لنتمهل عند السؤال الأول - المثقف المتنبى زمن الاغتراب- قبل أن نعود إلى زمن الاغتراب العربى الآن..

* * *

الاغتراب عند المتنبى هو حالة الاغتراب Alienation التى وجد المثقف العربى نفسه فيها، وهى حالة نجد لها تعريفات كثيرة فى أدبيات علم النفس والفلسفة، غير أن أقرب تعريف لها يظل ـ لدينا ـ تعريف أبو حيان التوحيدى باختصار هو من إذا قال لم يسمعوا قوله.. ومن هنا يصل إلى التعريف بطريق أسرع حين يرى أن أغرب الغرباء هو من صار غريبًا فى وطنه لا يسمع إليه أو أحد يتنبه له.. ويبدو لى أن هذا المثقف العربى الآن هو هذا الغريب العربي، وأعنى هذا العربى فى أى قطر عربى، حيث كانت «الولايات العربية» فى القرون الهجرية الأولى وأصبحت «الأقطار العربية» فى عصرنا، وإذا كانت المنطقة العربية عرفت التماسك إلى حد ما إبان الفترة الإسلامية - رغم تعدد الانفصال ـ فإن هذه الحالة أصبحت واقعًا يعترف به عقب الحرب العالمية الثانية وعقب اتفاقية سايكس - بيكو بين الدول الأوروبية، إذ ظل التشظى والتعدد يعمق معناه طيلة القرن العشرين حتى وصل إلى أقصاه اليوم.. ظلت الهزائم تتعدد وتتكرر إلى أن وصلنا بعد نكبة فلسطين إلى سقوط بغداد، إلى.. والمستقبل بيننا..

ورغم أن حالة «الاغتراب» هذه نجدها على مستوى فردى أو جمعى، فإن المتنبى شهد الاثنين وعاناهما.. فقد كان ما يجمع الاثنين هو غياب الوعى العربى وسط محيط الآخر الطامع الاستعمارى، سواء أكانوا الروم فى عصره أم الروم فى عصرنا، تتعدد التسميات وتتحدد النهاية التى نئول إليها.. ويظل الواقع ـ كما هو ـ يتكرر.. وهو ما يعود بنا للشاعر العربى الغريب أو أغرب الغرباء فى لغة التوحيدى..

إن الغربة تبدو فى أول الأمر غربة وجودية فردية، المثقف يشعر بالآخرين وقد اختلفوا عنه، واختلف عنهم، إنه يعانى الهوان لكونه وحيدًا يحاول التغيير، أو يحاوله حين يعبِّر عما فى دخيلته كمثقف واع دون أن يتنبه الآخرون من أهله ومن وطنه قيمته، فتتجسد قيمة الوحدة والغربة وتصل إلى أقصاها:

وهكذا كنت فى أهلى وفى وطنى إن النفيس غريب حيثما كانا

محسد الفضل مكذوبًا على أثرى ألقى الكمى ويلقانى إذا حانا

ومع ذلك، فإنه يؤثر أن يظل فى فرديته واعيًا لقيمة الكرامة والحرية، مؤثرًا الابتعاد عما يهينه. هذه الحالة حين يقول إنه خلق المغترب الوفا فى وحدته مع الآخرين لكنه مع الحشد مضطر أن ينبذ الذلة والهوان والأذى متطلعًا إلى العزة، وإلا فالبديل هو الموت وهو ما نسمع معه قوله:

واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الأجسام

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام

ويردد بيت الشعر الذى يعبر عن وعى الإنسان بما هو مقدم عليه من حيث الطبيعة التى جبل عليها أو الوعى الذى حدده لنفسه، فيصبح بيت الشعر الخالد: من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

ضاق ذرعًا بأن أضيق به ذرعًا زمانى واستكرمتنى الكرام

واقفًا تحت أخمص قدر نفسى واقفا تحت أخمص الأنام

ويلاحظ مجاهد عبد المنعم مجاهد فى كتابه المهم عن «المتنبى والاغتراب» أن هذه ليست نظرة الاستعلاء والتكبر كما يبدو لأول وهلة، بل هى نظرة الرفض لتشيؤ الإنسان.. فإذا تشيأ بعض الناس فان مكانهم الطبيعى الذى يجب أن يوجدوا فيه هو أسفل قدر المغتربين الباحثين عن الكمال الإنسانى،

ولهذا يستحيل هذا الاستعلاء الظاهرى إلى مسافة يقيمها هذا المغترب بينه وبين هؤلاء المتشيئين.. يعلو عليه.. يسمو فوقهم.. لكنه يظل فى كل هذا المتوحد الحزين..

وعلى هذا النحو، نستطيع أن نراجع تحولات المتنبى لنفهم كيف تتغير حالة الاغتراب إلى تحولات مرهفة، إنه يأتى من مكانه الأول (الكوفة) إلى عاصمة الخلافة: بغداد عازمًا على التغيير; غير أن الواقع يسلمه إلى حالة من السام والحيرة، التى تسلمه - مع كبرياء المثقف ـ إلى حالة من اليأس والعبث، فيحيا حالة الاجترار والتمنى التى هى أقرب إلى الحزن الشديد.

وعلى هذا النحو، يصل المتنبى إلى أقصى درجات اليأس والحزن للمصير الذى ينتهى إليه هذا المثقف الآتى من بعيد إلى وطنه الكبير ساعيًا إلى التغيير، تغيير الواقع الذى هو جزء من حياته، فإذا بهذا الواقع ينقلب به ليضيع - حتى ـ أحلامه فى العيش، حتى أنه فى لحظة اليأس يتمنى أن يعود إلى الوراء..

على أن الحالة «الوجودية» بالاغتراب تتحول مع الوعى إلى حالة «جمعية» أيضًا.. إنه الشاعر العربى الذى يسعى فى البلاد، فيحس بالغربة، لكنها الغربة التى لا تتوقف عند الذات وإنما تتخطاها إلى العام، ومن هنا، نرى أنه يعيش فى زمن الغربة العربى لا زمنه الذاتى.

إنها الغربة التى تستحوذ على كل ملكاته، وكل آليات التغيير لديه، ومن ثم تتبدد خلايا الذات إلى الواقع العربى كله، إنه فى سبيل التغيير لا يجد مناصًا من التنقل، أو الترحال هنا وهناك ساعيا إلى التغيير، ناعيا هذا التخاذل الذى يعيش فيه العرب..

إنه ينتقل من الذات ـ المثقف الغريب ـ إلى العام ـ العربى الغريب فى هذا

العالم الذى لا يرحم أو يحترم غير القوى، فتكون القوة مرادفة للحق، ويكون ضعف النفوس موصولاً بالذل والهوان..

وهنا تتحدد أكثر حالة المتنبى «المثقف» فى هذا العصر الذى نحياه الآن..

وهى الحالة التى نجد فيه الكثير من المثقفين الآن فى وطننا العربى..

إن الحس الطاغى بالاغتراب يسلم صاحبه الى السأم والضيق، ومن ثم، يخلق هذا المثقف عالمه الذى يعيش فيه، إما أنه يصمت، وإما أنه يهاجر، وإما أنه يظل فى مكانه مترددًا ماذا يفعل فى هذا العالم الذى يهدد وعيه، ومن ثم تتعدد المواقف كما نراها بين الصامت أو المهمش أو المنفى ويضاف إليها- بعد سقوط بغداد المثقف- المعارض للهيمنة الأمريكية والمعتدل الذى ما زال - رغم غياب السلطة - مؤيدًا لها ثم هناك المثقف الواعى الذى يأمل فى بدلية عهد جديد، ثم هذا المثقف المحترق فى الداخل بكل هذه الهزائم ولا مانع أن نجد فى هذا كله المثقف الغائب مما تتعدد أنماط المثقف لكنها تتحدد فى حالة الاغتراب الحادة، وهي «حالة» المثقف العراقي - كما عرفته بشكل شخصى داخل العراق وخارجه فى هذه الفترة العصيبة من تاريخنا العربى.. هذا حال المثقف العراقى على الأقل كما عرفته سواء فى المنفى الذى اختاره أو الوطن الذى اضطر إلى اختياره.. وهو هو المثقف الذى نتعرف عليه بعد سقوط بغداد.

* * *

الغريب أن حالة الاغتراب عند المتنبي اقترنت بحالة الشهرة التى طبقت الآفاق، وهنا تذكرت الضريح الذى تركته ورائى، قاعدة مغلقة على هيئة قوسين متعاكسين وملتصقين ببعضهما، ويرتفع الضريح عن القاعدة أقل من المتر، وعلى القاعدة سبعة أضلاع شيدت بشكل جميل وطراز فريد يبلغ ارتفاع كل ضلع سبعة أمتار فيها تستند إلى هذه الأضلاع قبة دائرية الشكل

على شكل خوذة أو ترس يظلل الضريح ويمنع الشمس من الوصول إليه ويحيط بالبناء سياج حديدى مكتوب عليه:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى

وأسمعت كلماتى من به صمم

وفى تاوقت نفسه كنت أردد بيت الشعر الذى ما زال يعيش بيننا أو نعيش به حتى اليوم: ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان، إنه غضب الشاعر وغربته إزاء تخاذل الزمن العربى وممثليه..

وهو ما نتوقف عنده ـ أكثر ـ فيما بعد

ثالثًا

قبل أن أصل إلى بغداد كان المتنبى المثقف الغريب وصل قبلى بأكثر من عشرة قرون (القرن الرابع الهجرى)، ومع ذلك، فإن الواقع الذى انتهت إليه بغداد فى زمنه يظل هو الواقع الذى تنتهى إليه بغداد الآن.

إنه زمن الروم الغزاة اليوم..

هذا هو أكثر ما يلح علىَّ ويلفت النظر إليه.

إن القوات الأمريكية (وحلفاءها..) التى تتحدث عنهم يقيمون الآن فى الزمن العربى، زمن الفتى الغريب، فرغم وعيه الحاد كان يعيش (حالة) الهوان الحاد، من ثم، أسلمته، الغربة، إلى حالة من «الاغتراب» المهين الذى وجد نفسه فيه..

وحالة الاغتراب ـ كما سنرى ـ ستتحول إلى واقع «جمعي» وليست حالة ذاتية وحسب فى هذا الزمن العربى.. ومع أن مفردات علم التاريخ الحديث تؤكد على أن التاريخ لا يعيد نفسه، فإننا ـ على العكس من قوانين التاريخ ـ

نجتر هذا الزمن القديم، ونعيش فيه وإن أضيف إليه فارق التقدم التكنولوجى المخيف الذى تركنا خصومنا يعملون فيه ويصلون به إلى آفاق أرقى منا، ومن ثم أصبحنا فى موقف لا نحسد عليه..

لقد أضيف إلى «اغتراب» المتنبى على المستوى الذاتى «اغتراب» المتنبى على المستوى العربى، حتى إننا لا نكاد نفصل بين الاثنين، حيث يقف المثقف العربى الآن وسط الهوان سواء أكان داخل بغداد أو خارجها، داخل العالم العربى أو خارجه فى الهوة الدائمة أو الهوة الرقمية..

إننا فى الطريق إلى بغداد ما زلنا نستروح من شعر هذا المثقف المغترب لا يزال نعيش فيه رغم مضى القرون..

وهو ما يتوقف بنا عند المتنبى (المثقف) فى هذا الزمن العربى الذى تساوى فيه الصمت والخضوع والهوان إلى درجة مفجعة..

انه المثقف العربى (العربى) سواء أكان فى القرن الرابع الهجرى أو القرن الواحد والعشرين.. العدو واحد والموقف واحد وموقف بغداد واحد..

إنه لا يجد فى عالم العرب مكانًا يجد فيه الانسان كرامته أو يبحث فيه عن الانسان النبيل، ومن هنا، فإنه يتساءل كثيرًا:

أما فى هذه الدنيا مكان يسر بأهله الجار المقيم

ولا يلبث أن يمضى ليتحدث عن تشابه الحر والعبد (العبدى)، فلا يجد فارقًا وهو يستبدل بالسؤال جوابًا ويعود ليستبدل بالجواب السؤال ثانية:

تشابهت البهائم والعبدى علينا والموالى والصميم

وما أدرى أذا داء حديث أصاب الناس أم داء قديم

ولا يلبث أن يتصدى لما يريد الوصول إليه، فالكلام العام هنا لا بد أن يدل على أصحابه، إنه يصل بسرعة من غربة الذات إلى غربة العرب، وهذه

الغربة الجديدة تظل نوعًا من الاستسلام لا التأمل الفاعل، إن الغربة عن العصر تعنى الغربة عن الذات أولاً، وهى تعنى ـ فى الآن نفسه ـ الغربة عن روح العصر وقيمه ووجهه الجديد، وهو الفارق الذى يتحدد فى التقدم الرقمى الهائل فى جانب والتخلف النائم فى جانب، وهو ما يتضح معه الفارق المهم بين الخنوع والعمل للخلاص منه، ومن هنا نفهم كيف يصيح فى أكثر من مرة مشيرًا إلى هؤلاء العرب من الضعفاء والعملاء والمتخاذلين:

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام

ويزخر هذا الواقع المؤسى فى بداية الالفية الثالثة (نحن نعيش فى الزمن الأنجلو أمريكي الغربى) بهذه التغييرات المؤسية المتردية المغيبة فى الوجودية على المستوى العربى كله ونستطيع فى عديد من قصائد المتنبى أن نرصد العديد من المفردات الدالة على هذه التغييرات التى تصاب بها الأمة العربية وحالة أولياء الأمر فيهم، إننا نعثر على مفردات تباين بين الأسماء والأفعال لكنها تدل ـ فى السياق الأخير ـ على حالة الاختلاط المزرى الذى نعيش فيه (لا أدب لا حسب لا عهودلا ذمم داء العبيد ناس صغار جوعان زورا) وتتباين عنده المفردات التى تشير أكثر إلى الهوان العام (ثعالب عرب ملوكها عجم لرعاديد نواطير عبد السوء) وديوان المتنبى زاخر بمثل هذه المفردات الدالة على تدهور أمة العرب بشكل مستمر..

بيد أن هذه الحالة - لدى مثقف واع غاضب - مثل المتنبى تتطور من الغضب إلى التمرد الحاد.. وهو تمرد يبدأ من الواقع ويتواصل عبر ولاة الأمر ويصل إلى أقصاه فى العمل على التغيير والدعوة له..

إن العيش فى هذه الحالة من الهوان لا ترضيه، ومن ثم، فإن النقيض- الموت تحت السيوف - هو المقابل الوحيد الذى يرتاح إليه، يقول فى قصيدة من أبيات ثلاثة ملخصًا رد الفعل لهذا الهوان كله:

إلى أى حين أنت فى زى محرم

وحتى متى فى شقوة وإلى كم

وإلا تمت تحت السيوف مكرما تمت وتقاس الذى غير مكرم

فثب واثقًا بالله وثبة ماجد

يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم.

وعلى هذا فإنه ينتقل من وصف (حاله) إلى (حال) الأمة - وهما وجهان لحالة واحدة الخزى الذى نعيش فيه، متمردًا على هذا كله داعيًا إلى النهوض للعمل وللعيش إما بكرامة، وإلا فالموت أولى وأقرب إلى الوعى العربى.

وهنا، فإنه الفعل لا يتوقف عند هذا الشاعر أو ذاك، أو هذا الإنسان المفرد أو غيره، وإنما الأمة كلها حيث ولاة الأمور..

وهو فى جميع الحالات يعود من أن لآخر إلى قيم التغيير بالتمرد والعنف والثورة، إن المجد والرفعة عند الشاعر لا يكون فى زمن التخاذل والهوان إلا بالتمرد والعنف والتغيير..

ومن هنا، نلحظ أن شعره فى الفترة الأخيرة من حياته سواء داخل بغداد أو خارجها، زاخر بهذه المعانى: التمرد على الهوان، فالتغيير لا يتم بالكتابة، أو الدعوة للتغيير ـ هكذا ـ بالرفق، وإنما التحول من الكلام إلى الفعل إنما يظل هو القيمة الباقية للتغيير من حالة الجمود التى ألفناها، والنكبات التى تتوالى ولا تتوقف، لا يكون إلا بالعمل (الفعل) وليس بالكلام والحديث عن الماضى والسكون إليه، إنه يكون بمواجهة ولاة الأمر، وهو وان اتخذ جانب الثورة، فلأن الواقع كان من التردى بحيث لا يدفع إلا إلى الغضب الذى يسلم إلى أى وسيلة للتغيير:

ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا

ومن عصى من ملوك العرب والعجم

فان أجابوا فما قصدى بها لهم

وإن تولوا، فما أرضى لها بهم

وأجاب عمن يسأله عن معنى التغيير والبلوغ إلى المجد بقوله:

ولا تحسبن المجد زقا وقينة

فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

وتضريب أعناق الملوك وإن ترى

لك الهبوات السود والعسكر المجر

بل إنه أجاب عمن يسأله عن معنى الفخار بقوله:

لا افتخار إلا لمن لا يضام مدرك أو محارب لا ينام..

وأجاب عمن يسأله عن الحلم فيرى أن الحلم قيمة لاغية غبية فى مواجهة العنت والظلم، ومن ثم، يدفعه هذا إلى الوصول إلى أسرار التغيير، يقول:

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه.. إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم

وعلى هذا النحو، فإن الغربة تدفعه - على المستوى العربى- إلى رفض القيم النبيلة فى مواجهة الظلم، فلا يمكن أن يكون التعامل مع ولاة الأمور من الطغاة أو الظالمين من الطامعين فى ثرواتنا أو أرضنا إلا بالأسلوب الذى يردعهم..

وعلى هذا النحو، فرغم أن شعر المتنبى يستخدم ضمير المتكلم فى الغالب، فهو ينسحب إلى رفض الظلم العام سواء أكان من الداخل أو الخارج..

ويلاحظ البعض أن فى هذه الفترة ضعفت النعرة العربية فابتعد العرب عن السياسة، وأصبح للموالى مكانة القيادة والصدارة فى البناء الاجتماعى. ولم يعد التباهى بالانتساب للعرب والعروبة كما كان من قبل، خاصة بعد أن انتقل العرب بغيرهم من الأجانب والعامة..

وهى الفترة الماضية الحاضرة من التاريخ.

ففى حين تتكالب علينا الأمم، فإن الملوك العجم الذين يتولون أمرنا بشكل مباشر أو غير مباشر تخلق حالة «الغربة» الحادة التى يعيش فيه الإنسان سواء على المستوى الفردى أو الجمعى، إنه يقول فى زمنه وكأنه يقول فى زمننا هذا البيت الشائع:

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم

والعجم هنا يكونون بالضرورة ـ من الروم «الغربيين» بشكل عام ـ والمعنى الآن يصبح معنى حقيقيًا أو رمزيًا، فالعجم هنا لا يأتى من الأجانب، وإنما قد يصبح العجم هم ولاة الأمر الذين يقفون فى صف العجم فيصبحون أكثر عنفًا مثلهم، أو يصبحون أكثر عنفًا منهم فى التعامل مع شعوبهم، إنهم من بين أهلنا، لكنهم يقومون بأدوارهم التى اختاروها فى الداخل أو الخارج..

وعلى هذا النحو، بدت الغربة أو الاغتراب عند المتنبى هى الحالة التى صورها الشاعر العربى سواء على مستوى الرمز (الملوك الأعاجم) أو مستوى التاريخ (الروم..)، وهو ما جعلنى أقف أمام ضريح الشاعر الذى ما زال بيننا، وأنا أردد دائمًا ما قاله منذ قرون طويلة أو ما يقوله الآن، فما زال حاضرًا بيننا:

وسوى الروم خلف ظهرك روم..
فعلى أى جانبيك تميل

إنهم الروم الذين يواجهوننا فى أنحاء الأقطار العربية...

إنهم الروم الجدد السوبر

** وبمناسبة السوبر، لدينا سؤال سوبر جدًّا يلح علينا هنا:

هل ينجح «الجنرالات العلماء» أو «العلماء الجنرالات» فى استنساخ المتنبى العربى الآخر، الذى يعيش بيننا اليوم، متنبى يكون أقرب إلى متنبى العصر السوبر الغربى، كما يريدونه؟

هذا سؤال آخر ندعه لما بعد.

المتنبى.. فى شوارع بغداد

رابعًا

لنعد إلى المتنبى من جديد..

فمتنبى اليوم يثير فينا ما أثاره المتنبى قبل ألف عام أو يزيد.

المتنبى اليوم (المثقف) يواجه ما واجهه متنبى بغداد من قبل، فكما استولى الترك والديلم والقرامطة وغيرهم على بغداد...

ايضا، استولى المغيرون اليوم على بغداد بشكل يفوق بشاعة ما حدث فى الأمس.

وهذا الغزو، فى الأمس أو اليوم، هو الذى يسعى إلى تغيير الإنسان العربى إلى نقيضه.. فإذا كانت المحاولات لتغيير الهوية وانتهاكها تبذل قديمًا تحت حد السيف والتخويف، فإنها تتم اليوم - ما تزال - تحت حد الصدمة والترويع ويستخدم فيها من أساليب الخوف والتواطئ والخيانة والفتن ما يفوق التصور، مما يثير فى الفؤاد المكلوم أسئلة كثيرة.

لنتمهل عند بعض الأسئلة الحائرة قبل أن نصل إلى السؤال الأهم: كيف نجيب عنها.

والإجابة بالقطع تكون بالمقاومة..

ولنعد من جديد إلى السؤال الصعب الذى سبق أن طرحناه:

- هل ينجح «الجنرالات العلماء» أو«العلماء الجنرالات» فى استنساخ المتنبى العربى الآخر الذى يعيش بيننا.. ؟

(2)

الإجابة تكون لديهم أن المتنبى اليوم يجب أن يكون كما يريدون.

متنبى يكون أقرب إلى متنبى اليوم، السوبر الغربى، كمايريدون..

متنبى عصرى، أو متنبى سوبر عصرى (المثقف) كما نعرفه الآن يستخدم فى تغيير تكوينه المناهج التعليمية، بالقدر الذى يتلمس فى ذلك «الميديا» الغربية، وقبل هذا وذاك فإن سلاح التغيير بالسوق الحرة أو، غير الحرة وارد وقائم بالتأكيد.

دار هذا كله بذهنى الآن بمناسبة ما يعلن من أن لآخر من إعلان منهج جديد للتعليم، وإعادة النظر فى النصوص الدينية والمجىء بهذه الديمقراطية «الغربية» التى يجب أن تفرض علينا «هكذا».

وباختصار، إنهم يسعون للعمل على تأكيد قيم العلمنة بعد أن «عسكرت العولمة» بآلياتها فى «كابول» أفغانستان وقبلها «قدس» فلسطين وبعدها العراق ثم - بدرجات متباينة - فى أغلب دول العالم.. قبل غزو العراق وبعده..

غير أن محاولة التغيير هذه تتم - بإحدى وسائلها وأهمها الآن عبر العولمة - بتلمس محاولة تغيير التكوين الوراثى والمخزون الوراثى..

إنهم يحاولون إعادة رسم الخريطة الوراثية لدى المتنبى اليوم يتم بلغة علمية خاصة بهؤلاء الآتين من الغرب.

ويبدو أننا مضطرون للإبحار أكثر فى التغييرات النووية المعدة لنا، عبر ما يسمى «بالحامض النووى»..

وليعذرنى القارئ لهذا الإبحار، فالإشارة إليه هنا تشير إلى خطورة ما يعد لنا، فى وقت يبدو أننا مشغولون فيه بأشياء أخرى وغير واعين ـ بالقدر الكافى ـ لما يدبر لنا بليل أو بنهار - لا فرق..

إن هذه التغييرات المعدة لنا مؤداها أن الحامض النووى (المادة الوراثية) يمكن به إعادة رموز أو أرقام اللغة الخاصة به داخل الجسم البشرى أو بالأحرى داخل العقل البشرى، ويذهب هذا الجهد ليؤثر فى التعليم والتوريث والعادات والتقاليد بل وتغيير البنية البيولوجية - وبالتبعية - الأيديولوجية للعربى الآن (تفاصيل هذا كله معروفة وبعيدًا عن الأغراب والتعقيد، فإنه يتمكن من اللعب بالموروث الإنسانى وتغيير حروفه بالفعل (هناك اكتشافات تم التوصل إليها بهذا الخصوص منذ منتصف القرن الماضي)..

إن هذا الفعل يمكن أن يغير فى خارطة المادة الوراثية العربية بها. إن أهداف الجنرالات العلماء - واحذروا - السعى إلى إحداث التباين بين البشر على أساس فروق جينية تعمل على تغيير القيم العربية التى تكوِّن الهوية وتؤكد الشخصية..

ويقوم هذا الفعل الغربى الآن بالتنبه إلى الجينوم الذى يمثل جميع مكونات جزىء يطلق عليه الدنا «DNA» فى أى كائن حى بما يحتويه من جينات. وتحمل هذه الجينات معلومات لصنع جميع التكوينات المطلوبة واللازمة لجميع الكائنات الحية.

الأكثر من هذا أن هذه التكوينات هى التى تحدد كيف يبدو شكل هذا الكائن الحى فى صورته الخاصة به، كذلك تحدد الكفاءة التى تتم بها الحركة

العضوية والتمثيل، بل إن الدراسات المتقدمة انتهت إلى أن هذه التركيبة الجديدة المتحولة هى التى تتحكم - بالتالى - فى سلوكه..

أعتذر من جديد فى الإغراق فى «الوسيلة» التى يسعى بها «العلماء الجنرالات» فى استنساخ متنبى جديد..

ولكننى - أعى تمامًا- وهو تحذير وجزم معا- فى آن ما يحاولون فعله بنا لن يتحقق حتى لو ادعى أولئك «الشعراء من الأمريكيين الداعون إلى الخير - الحركة الويتمانية».

وهو ما لاحظت معه أن المتنبى فى عصرنا يتنبه إليه أيضًا..

وهو يردد صوت المتنبى بعد عشرة قرون من احتلال بغداد المرة السابقة..

إنهم يصنعون هذا الإنسان العربى الجديد صناعة ترتبط منذ التكوين بالتأثير الغربى أو الإمريكى الخالص..!! المتنبى الذى لا يعرف المقاومة لأنه أصبح جزءًا من «استراتيجية» جارى العمل لها وبها فى القرن الإمريكى..

(3)

وهو مايعود بنا من جديد إلى المتنبى الذى نعرفه..

إن روح المقاومة - رغم كم الحزن والألم فى أعماقه - كانت ساعية إلى التحدى، مؤكدًا أن الفخر الحقيقى لا يكون بالأجداد وإنما بالإدراك والوعى، بالمقاومة والتحدى يأتينا صوت أبى الطيب من بعيد فنسمع:

لا افتخار إلا لمن لا يضام مدرك أو محارب لا ينام

وراح يعى تمامًا أن تولية حاكم من الروم (الغربيين)، أوالروم (الشرقيين)، إنما يظل علامة على الواقع المعكوس، فالمفروض أن يكون الحاكم من جنس المحكوم أو من بنى جلدته، أما أن يأتينا حاكم (بتسميات

كثيرة ليس من بينها الأهل والوطن الحقيقى) فإن ذلك لا يكون متسقًا مع هذا الواقع..

إنه ردد هذا مرات كثيرة انطلاقًا من وعيه العربى.

إنه ربط بين السكون على الحكام من العجم وبين التخاذل والتفريط فى الحق، فالعربى هنا هو الحاكم من بين أهلينا، وليس ممن يحسب علينا ويخدع أهلنا، إنه يقول منطلقًا من وعيه بالحاكم منطلقًا كبيرًا:

وإنما الناس بالملوك ومـــا... تفلح عرب ملوكها عجم

وعلى هذا النحو، فإنه يحذر من هؤلاء الآتين من وراء البحار ليحكمونا هنا، إنه يتوجس ريبة من هؤلاء الأمريكيين الذين يأتون بحاكم لا يمت بعلاقة بنا إلا بالاسم، وحكام يأتون على أنهم يمثلون شعوبنا وهم فى الحقيقة لا يمثلون إلا الغزاة..

وعلى هذا النحو، فإنه يحدد هنا الدرجة التى يجب أن عى فيه الواقع، ومن ثم نستحقه، وهو الواقع الذى نعرف فيه تمامًا حقيقة من جاءوا ليحكمونا..

وكما قلنا، فإن هؤلاء روم وعجم سواء كان اسم احدهم مرة «جارنو» أو فى مرة أخرى «أحمد»، فإن الأمر واحد فى الحالتين، هؤلاء ليسوا من بين أهلنا، ومن ثم يجب ألا يتمكنوا من تمكينهم من رسم «خريطة» جديدة على المستوى النووى أو الخلقى..

وبقدر ما يكون الإنسان واعيًا لمن يحكمه، يكون واعيًا لقيمته الحقيقية..

فالعلاقة بين الحاكم ومن يحكم هى العلاقة بين الوعى وصاحبه، ومن هنا يردد فى قصيدة يوجهها إلى نقد كافور فى حين أنه يقرر حقيقة أن المقاومة من الداخل هى التى تحدد البقاء بغير هوان، وأن السيادة أن لم تأت من أعماق الإنسان لن تأتى أبدًا، نستمع إليه فى هذا الشطر يقول:

سادات كل أناس من نفوسهم ....

هل هناك تأكيد للوعى أكثر من هذا الشطر..

* * *

وبعد لقد امتدت الثورة الإعلامية، التى سبق أن أشرنا إليها إلى أهداف بيولوجية، ومن ثم أيديولوجية لتغيير الوعى وتقطيره بتفاعل سلبى جديد..

غير أن ما يبقى لنشير إليه بشكل خاطف الآن أن «الكتالوج» الأمريكى لا ولن يحدث إلا فى أطر ضيقة..

وهو مارأيناه بالفعل فى أمثال متهافتة..

وبالتالى، فإننا نستطيع القول بكل ثقة: إنه لن تحدث الطفرة المضادة لتغييب الوعى العربى ما دمنا نملك المقاومة.

المقاومة هى الوجه الآخر للتقدم والتغيير.

المقاومة هى صورة المثقف العربى العائد الآن فى شوارع بغداد..

وهل هناك شىء آخر..؟!

العراق.. الحرب، الغزو، المقاومة

أخى جاوز الظالمون المدى..

هذه العبارة هى التى عبَّرت عن الموقف العربى الصامت ـ الغاضب فى كل المدن العربية داخل العراق وخارجه ضد غزو العراق..

وهى العبارة التى ترددت فى كثير من الأقطار العربية هذه الحقبة.. وما زالت حتى ـ بعد أن جاء جارنر، وعرفنا الجلبى والخزرجى..

وانعكست فى قيمة مهمة هى قيمة المقاومة..

ولا نحتاج إلى جهد كبير لندرك قبل الحرب على العراق أو بعده تجلى صور المقاومة التى تعكس خلال الوعى العربى، سواء داخل العراق أو خارجه، الغضبة الشعبية عبر عديد من الصور والمشاهد، مما نجده لدى عدد كبير يقومون بالدور المطلوب منهم (وهو دور ليس واعيًا بالقدر الكافى) أكثر من أصحابه..

كانت صور المقاومة إذن تعبر عن ضيق الشارع العربى بما يحدث أمامه من هذا التحالف الباغى الذى تجاوز المدى.

وكان هذا يعبر عن نفسه فى المواقف الإيجابية أو التلقائية..

إن العلاقة بين العروبة والمقاومة سمة لا يمكن العبور عليها هنا.

ولا يمكن أن نشير إلى قيمتى العروبة والمقاومة دون أن نشير إلى الوعى الشعبى العربى بكل فئاته وتياراته السياسية التى استجابت للنداء العروبى الذى بدا أكثر وضوحًا إزاء تجاوز الغرب للمدى..

إنه وعى الشارع العربى فى تجلياته العفوية.

....

وقد بدا تمامًا أن «العروبة» التى تهاجم بعنف شديد من بين أصحابها وأعدائها نالت كل السهام من الحكومات والفضائيات والمثقفين، ومن ثم غاب معناها الحقيقى بين أنماطها التقليدية، أما العروبة التى نعرفها، فقد بدت عَبر الوعى الشعبى عبر أقطارها، هذه العروبة التى ظهرت بأشكال كثيرة، لعل من أهمها المقاومة الباسلة للشعب العراقى.. فلم نجدها إلا لدى الشعوب العربية فى الشوارع والميادين والندوات و«العامة» فى الشوارع، حيث ترتسم على وجوه المشاة المارين فى أى طريق أو شارع الحس الدامى بما يحدث لنا.

أليست صورة العروبة تتمثل أحسن تمثيل فى المقاومة الشعبية..

وقبل أن نستطرد أكثر عن هذه العروبة، ونتهم كثيرًا بالانحياز لها، نود أن نعرف العروبة التى نراها فى هذه الفترة (لا نعود إلى التاريخ أو المصطلحات)، من أنها ـ أى العروبة ـ هى تلك التى ـ لو أحسنا الوعى بها أو الإفادة منها ـ هى التى تتصدى الآن لمد غربى (هو هذه المرة أنجلو أمريكى)..

ومع أن فكرة العروبة نالت الكثير من الطعنات من محبيها أو كارهيها فإنها تظل دائما الحلم أو الواقع ـ كما يجب أن نراها ـ للخلاص مما نحن فيه، بعيدًا عن تسميات كثيرة نجدها تفرض نفسها على وزراء الإعلام، خاصة فى فترة الغزو الأمريكى لبغداد..

بيد أننا سنترك البرهان على فكرة «العروبة» التى عرضنا لها كثيرًا من قبل، ونشير إلى عدة مشاهد لها فى حرب العراق.

....

كان أكثر ما لفت النظر منذ الأيام الأولى هذه المقاومة العراقية ـ أو بشكل أدق ـ المقاومة الشعبية ضد الغزو الأمريكى، فلا يمكن أن نفصل المقاومة الشعبية العربية ـ برغم الخلافات بينها وبين ديكتاتور انتهى وما زلنا نشير إليها فى ازدواجية غامضة ــ غير مقاومة عربية أكدت أن الصمود العربى هو الشىء الوحيد الباقى للتصدى للغرب الذى لا يكتفى بالغزو والفر وإنما بالغزو والإقامة..

رأينا هذا خلال «الموقف الشيعي» الشجاع فى جنوب العراق، كما وجدناه فى كثيرمن المواقف السنية فى بقية أنحاء الجنوب والغرب من العراق، إزاء العدوان مثل إعلان حركة «أنصار الإسلام» فى كردستان أنها

تتأهب لشن «عمليات استشهادية» وهو ما أعلنه أكثر من فصيل من الشعب العراقى.

كانت المقاومة الشرسة تبدأ من الجنوب، من حيث جاء الغازى، من ميناء أم القصر ومدينة الفاو ثم ميناء البصرة ومدن أخرى أكثر شراسة مثل العمارة والناصرية والدى، انية والشطرة والكوت.. ثم قبل أن يصل الغازى لبغداد استمرت هذه المقاومة بدرجاتها القصوى فى المدن التى تحتضن المراقد الإسلامية المقدسة فى مقدمتها كربلاء والنجف والأقضية وتلك النواحى الكثيرة التابعة لها لدى المسلمين الشيعة فى كل أنحاء العالم وأهمها قبر على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ابن عم النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) وزوج ابنته فاطمة الزهراء فى مدينة النجف وقبر الحسين بن على والعباس فى كربلاء.. إلى غير ذلك من صور المقاومة الباسلة.

معنى ذلك أنه لم يكن هناك فارق ـ أى فارق ـ بين التعددية المذهبية فى مواجهة الحلقة الاستعمارية الأخيرة..

لقد بدا واضحًا أن قبائل البنتاجون لم تلتفت بالقدر الكافى إلى معنى المقاومة فى العراق العربى.

هذه المقاومة التى انتقلت بعد سقوط بغداد إلى الجبهة الشعبوية، وهى مقاومة يمكن القول إن أبرز مظاهر التعبير عنها اليوم هى المظاهرات التى يقوم بها الشعب العراقى ضد الوجود الأنجلو ـ أمريكى (وهى تستمر منذ خرج المصلون إلى الشوارع، فى أول جمعة بعد اجتياح بغداد، يرفعون لافتات تطالب بخروج القوات الأمريكية والإنجليزية، ويصيحون بأصوات يرفضون التفرقة بين الشيعة والسنة (لا سنية ولا شيعة دولتنا إسلامية).. إلى غير ذلك من صور المقاومة الرائعة للشعب الأعزل..

وهذه المعركة الخفية أو الظاهرة إبان الغزو هى التى دفعت بوش ووزير

الدفاع رامسفيلد وعددًا من المسئولين العسكريين.. يبدون العجب والدهشة من هذه المقاومة الباسلة، وهو كان وراءها بالقطع عدم الوعى الكافى بالمقاومة العربية التى ستجدها هذه القوات.. تقول التقارير الأخيرة إن بوش الابن أكد مرارًا أن المقاتلين كانوا أشد بكثير مما توقعنا.

لقد لاحظ لارى كوب المسئول العسكرى الأمريكى السابق ـ بالقدر الذى لاحظه روبرت هيل وزير الدفاع الأسترالى ـ بالقدر الذى لاحظه عدد كبير من المسئولين العسكريين أو المدنيين فى الغرب نفسه أن المقاومة (غير المتوقعة) كانت أكثر ما لحق حركة الغزو الغربى.

ولم تتوقف المقاومة فى بلاد الرافدين وحسب، وإنما امتدت إلى خارجها أيضًا، حيث الشارع العربى وجماهيره تبرهن على وعيها العربى عبر الالتحاق بسرعة بالقوى الداخلية (للمقاومة) ضد هذا التحالف..

....

فى الفترة الأولى للغزو عرفنا خبر مجئ عدد كبير من المقاومين (العرب) ليسهموا فى المقاومة حتى لو وصل الأمر ليكونوا «حواجز بشرية» فى مواجهة الغزو الغربي، وما لبث أن توالى مجيء آلاف من المتطوعين العرب الآخرين من شتى الأقطار العربية معلنين أنهم سيقومون بعمليات انتحارية من أجل العراق العربى. ومن السهل أن نرصد فضاء السفارات العراقية فى الأقطار العربية، حيث كان يزدحم على أبوابها ويحيط بها عدد هائل من المتطوعين المقبلين للحرب فى صفوف القوات العراقية، رغم سياسة الصدمة والترويع التي كانت تعلن عنها وتؤكدها القوات الغازية.

متطوعون من شتى الأقطار العربية صعودًا من المغرب العربى هبوطًا إلى أرض اليمن والصومال...

ونستطيع أن نعثر على مشاهد شعبية كثيرة للمقاومة فى الفئات الشعبية،

سواء وجدت هذه الفضائيات فى فضاءات الإعلام، فرغم كل ما قيل عن تقصير بعض وسائل الإعلام العربى، فإننا عثرنا على صور عديدة للمقاومة، خاصة وعبر المواقع العنكبوتية على الشبكة بوجه أخص، فكثير من هذه المواقع راحت تعرض لصور المقاومة بشكل مباشر، أو بشكل غير مباشر حين راحت تعرض بوضوح شديد لضحايا قبائل البنتاجون من أطفال العراق وضحاياه الكثيرة.

ولم يكن ليمر يوم دون أن ألاحظ ـ على المستوى الشخصى ـ قيام جماعات (الهاكرز) التى تنتمى للغرب بضرب هذا الموقع أو ذاك، وتعطيل هذا الموقع أو ذاك؛ لأنه يعرض للمقاومة العراقية سواء داخل العراق أو خارجه، ورغم أن إحدى شركات التأمين الغربية قدرت عدد المواقع التى هوجمت منذ بداية هذا الغزو للعراق بعشرين ألف موقع.. فإن أكثر المواقع التى كانت تفتقد إنما كانت تشير إلى دلالة واحدة، هي أن هؤلاء القراصنة يستهدفون بالهجوم الإليكترونى هذا الموقع أو ذاك لنشر صور القتلى الأمريكيين أو الأسرى الخائفين منهم، فضلا عما يحمله نشر صور بشعة عراقية خاصة من الأطفال كضحايا لهذا الغزو الهمجى البربرى (لم نجد صور الضحايا العراقيين أو دمائهم فى الإعلام الغربى أبدًا، إنما كانت صور الشجاعة الأمريكية وبعض صور الأسرى بشكل يوحى بالانتصار الأمريكى).

وفى جميع الحالات كانت المقاومة الشعبية أبرز سمات هذا الغزو الذى انتهى إلى ما انتهى إليه خارج وعى الجماهير.

وفى جميع الحالات، فإن ذلك كان يعكس الوجه المباشر لهذه المقاومة العربية للغزو الشرس الوحشى داخل المنطقة العربية، أو خارجها..

بل كان من السهل أن نراقب وجوه الناس العاديين فى الشوارع بعيدًا

عن الهجوم الإلكترونى فى هذه الأجهزة أو بعيدًا من القنوات المنتشرة كالفطر هنا أو هناك، لندرك أن ثمة ندوبًا عميقة من الغضب كانت تتحدد على وجوههم..

الأكثر من ذلك كان من السهل أن نلاحظ العبارات التى راحت تملأ الهواتف النقالة فى عدد كبير من البلاد العربية، خاصة فى المنطقة التى تحيط بالعراق، فقد ملأت هذه الهواتف ـ على سبيل المثال ـ بالنكات التى تشير إلى شجاعة ومقاومة الشعب العربى، بل كان من الممكن مع رصد بعض هذه النكات أو المقولات اللاذعة أن نلاحظ تصاعد قيمة الغضب (المقاومة السلبية) فى هذه الهواتف..

ورغم أننا نتوجس كثيرًا من الشعر الشعبى المنتشر فى دول الخليج والمملكة العربية السعودية، فإننا لاحظنا أن هذا الشعر النبطى ـ كما الشعر العامى فى مصر ـ راح يتحدث عن المقاومة العراقية خلال عبارات وكلمات كانت تردد فى مواقف العراقيين أو أقوالهم..

وربما كان ما يجمع كل هذه المشاهد هو أن صورة المقاومة كانت أبرز ما يشير إلى الواقع الحى لهذا الغزو..

ومهما يكن، فإن قوة التحالف لم تستطع أن تدرك جيدًا أن أحدث الآلات وأعقد المعدات غير التقليدية لا تستطيع أن تهزم شعبًاعربيًّا مقاومًا مثل الشعب العراقى الذى قاوم رغم فارق التقدم العلمى والتخاذل من بعض الرموز العربية من الداخل أو الخارج...

كانت صور الشخصيات البسيطة المصرة على الدفاع عن الكرامة مهما تكن قدرة الأسلحة الذكية!!.. وهو ما يذكرنا بما كانت تفعله قوى الغزو تلك فى فيتنام منذ عقود حين كانت تقوم بالتدمير والغارات بأحدث أسلحة حينئذ وعبر قاذفات الـ بي52 ومقاتلات الشبح إن ـ4 ضد الفلاح الفيتنامى

البسيط، كانت هذه القوى تبيد ما على الأرض تحتها تمامًا، ومع ذلك، كان يظهر البطل المقاوم دائمًا المدافع عن حقه البسيط فى حياة لائقة به..

لم تتعلم قوى الغزو الدرس بعد، فمهما تكن تلك القوى الغربية من دقة وتقدم، تظل إرادة الإنسان أقوى بكثير..

كان من السهل أن نعثر مع المواطن العربى ـ فى أى قطر على روح المقاومة وهى تتمثل، إما فى المقاومة الفعلية داخل العراق أو خارجه فى هذا الترتيل الدال الشهير لعبد الوهاب فى كثير من التعبيرات الهاتفية (النقالة) أو فى المظاهرات أو المؤتمرات الشعبية عبر الأبيات الشعرية والشعبية السائدة:

أخى جاوز الظالمون المدى..

الجامعة العربية.. إلى أين؟

أولاً

ما إن بدأنا البحث عن المثقف العربى (أين؟) حتى توالت علينا ردود كثيرة، ولما كانت قضية «الجامعة العربية» تمزق وجدتننا، سعينا لنرجئ - نستأذن - عند هذه الجامعة قبل أن نعاود البحث عن المثقف، الشقى!!

فأنا أعجب من المهاجمين بعنف - وبغير تبرير - على الجامعة العربية هذه الأيام...

غير أن عجبى يصل إلى أقصاه حين أجد تفرق العديد من الجمعيات والاتحادات والمنظمات والروابط.. إلى غير ذلك من التجمعات التى تلعب دورًا حيويًّا- أو المفروض أن تلعب دورًا حيويًّا - فى هذا المناخ، إذ إن درجة التعاون المثمر الخلاق لا تصل إلى مداها المستجيب لذلك التحدى الذى تمر به أمتنا العربية فى هذه الفترة الصعبة..

وما يقال عن هذه الاتحادات أو التجمعات الثقافية يمكن أن يقال عن كثير من مؤسساتنا المحلية والعربية والفاعلة، غير أن التوقف عند مثال أو أكثر يرينا إلى أى مدى نعطى ظهرنا لبعضنا بعضًا فى الأوقات المصيرية فى وقت نكون اكثر حاجة للترابط والتكاتف فى هذه الفترة.. ليس هذا دفاعًا عن جامعة الدول العربية، ولكنه تأمل حزين لما آلت إليه أنظمتنا العربية والمناخ الذى انتهينا إليه..

وكى لا يكون كلامنا عامًّا فسوف نضرب مثالا واحدًا لتمزق هذا «المناخ» الذى نعيش فيه وردود أفعالنا - الجامعة العربية الآن كمثال - قبل أن نصل إلى إعادة «الدعوة» إلى التنبه لضرورة الوعي «الجمعي» من خلال التجمعات، أو التنظيمات العربية التى لم يبقَ لنا غيرها.

أقول أتعجب جدًّا بالحملة المستمرة الآن على جامعة الدول العربية، ولكن عجبى أكثر من هؤلاء المهاجمين الذين لا يحرصون على ما تبقى من فكرة الوحدة العربية، أستغفر الله من فكرة الوعى العربى أو الفكرة العربية التى يجب أن نرتد إليها فى مثل هذه الظروف الصعبة التى تمر بها هذه المنطقة التى تعانى من أخطر ألوان الغزو الأنجلو - أمريكى على أوطاننا ودون البحث عن الحد الأدنى من الاتفاق فى زمن «اليانكي».

كنا نعزى أنفسنا - رغم الأصوات العالية ضد فكرة الجامعة أو العروبة.. إلخ - أن بيننا حدًّا ما من الاتفاق ما دامت «الجامعة» تعمل بيننا وتحول بين شد الحبل إلى حد التمزق، غير أن ما رأيناه عقب هذا «الغزو» الرجيم لبغداد جعلنا نعجب مما يحدث، فقد وصلت حملات العنف بين بعضنا بعضا إلى درجة غريبة..

والغريب فى الأمر كله أن عنف الهزيمة (سمها نكسة أو نكبة أو انهيارًا..) لا يرتد بنا إلى عنف المقاومة، فرد الفعل لم يعد ليتوازى مع الفعل نفسه، فى حين كان المفروض أن تثمر المأساة التى انتهت بسقوط بغداد شيئًا من الوعى العربى)«الجمعى» وتدفع للتفكير بجدية إلى الكيفية التى نسعى بها لائتلاف نظام عربى جديد..

بل كانت «الحالة» السلبية أقسى مما يمكن تصورها.

ووصلت هذه «الحالة إلى أقصاها» إبان الغزو الغريب للحلفاء (أى حلفاء؟!)، فإذا بنا ونحن نقف على خراب بغداد نعرف أن هذا القطر

العربى يوجه سهامًا شديدة إلى الأمين العام، ويرفض أن يدفع ما عليه من حصص مالية.

وهذا القطر ينضم إليه ماضيًا خلفه معلنا فى موقف مماثل، وذلك بتجميد دفع الالتزامات المالية ما دام موسى على رأس الجامعة هكذا (تقول آخر الأخبار إن الإمارات تسدد حصتها فى موازنة الجامعة).

وقبل هذا وبعده يخرج إلينا من المغرب العربى من يتحدث عن الانسحاب المفاجئ الذى قدم إلى الجامعة ولا يلبث أن يسحب اثنين من أعضاء بعثته الدبلوماسية لدى الجامعة «هكذا» لتجميد العضوية وتقليص المشاركة السياسية، سواء على مستوى المندوبين الدائمين أو وزراء الخارجية مما نسمع معه أن الأمين العام غادر البلاد إلى طرابلس قبل أن تنتقل إلى الجزائر!!! وعلامات التعجب لا تنتهى)..

وما يحز فى القلب أكثر أن عددًا هائلاً من المثقفين خاصة العراقيين منهم (فى خارج العراق حوالى أربعة ملايين عراقى) يتحدثون عن الغزو الأمريكى اليوم وما أحدثه على أنه حدث رائع، وبدلاً من أن نتحدث عن الاستبداد الذى وصل بنا إلى هذا (داخل العراق وخارجه) والمصير الهزيل الذى تعانيه الأجهزة السياسية والثقافية فى بلادنا نعثر على من يؤكد لنا على نبل الهدف الأمريكى، ويكفى أن نقرأ هذا فى عديد من الصحف العربية التى تصدر داخل الأقطار العربية أو خارجها، فإذا استثنينا العديد من الصحف التى تصدر فى الخليج لراعنا هذا الكم المهول من الانبهار بما فعله الأمريكيون والبريطانيون فى العراق، وأكاد لا أصدق أن أحد الكتاب العراقيين يكتب هذا العنوان فى إحدى الصحف العربية التى تصدر من لندن، العنوان يقول «الأمركيون والبريطانيون أبطالا وقتلاهم شهداء عراقيون»، ولا يلبث أن يتحدث بوله وود وهو يقدم الشكر والامتنان

لقوات التحالف (هكذا بالحرف الواحد)، بل لا يتردد أن يدلف بسرعة إلى الخلاف الذى يقع الآن بين بعض الأقطار العربية وعمرو موسى متهمًا إياه، وانظر واعجب، من أنه - أمين الجامعة العربية - هو «بعثى سابق»، وإن لم يكن كذلك فهو اس تغل وظيفته لدعم صدام حسين وتجميل صورته طيلة توليه وظيفته كأمين عام للجامعة العربية.. ولا ينتهى هذا الكلام الغريب الذى يتردد ولا تنتهى حيرتنا فيما يقال..

هل وصل الأمر بكتابنا - وما أكثرهم الآن - بأن يروا ما يفعله الغزو الأنجلو سكسونى فعلاً نبيلاً وأن قتلاهم هم «شهداء» الشعب العراقى وليس شهداء الشعب الأمريكى والبريطانى؟!

نفهم من يتحدث عن الاستبداد، ونتفهم من يتناول الفساد - بالتبعية - وما نجم عنه من «خيانة» كانت نتيجة للواقع الفاسد الذى تغرق فيه أغلب الأقطار العربية، لكننا لا نفهم أبدًاء أن تكون قوات الغزو هى قوات «تحرير» - أى تحرير - أو أن قتلاهم هم شهداء - وتأمل المعانى وراء هذا اللفظ فى الدلالة المطروحة!!

ويصل العجب إلى أقصاه أن نعرف ونقرأ هذا كله فى هذه الفترة...

إن المهاجمين (بالفتحة) - من أبناء الناطقين بالعربية - والمهاجمين (بالضم) من أبناء العم سام، حيث أبدًا الفرصة التى ينتظرها الغرب - وهو أمريكى أو غربى إسرائيلى هنا - لا يتردد فى اهتبال هذه الفرصة لمد نفوذه العسكرى واللوجستى إلى أطراف المنطقة بعد استقرار الأمر له فى العراق، ثم إن هذه الحملة تتحدد الآن على دور جامعة الدول العربية و«الأمانة العامة» بها ويمثلها عمرو موسى، فبدلاً من البحث عن حد أدنى من التضامن العربى فى هذا الزمن، نقوم بالعكس، نفعل على تكريس التجزئة بشكل غير مفهوم دون أن نتنبه بالقدر الكافى إلى قوى الغزو الجديدة التى لا تستهدف العراق

فقط، وإنما كل هذه المنطقة حولها ممن سيطرت عليها إما بالقواعد العسكرية أو بالتهديد الذى يحمل معنى السيطرة العسكرية القادمة بعد تحويل العولمة وآلياتها إلى حصار محكم لدول هذه المنطقة.

ولا نريد الآن أن نسهب أكثر حول هذه المعارك الخائبة الدائرة الآن بين بعض دول الخليج والأمين العام للجامعة العربية أو بين عديد من المثقفين العرب والأمين العام من طرف واحد!!.

غير أن الذى نريد أن نكرره ألا يفرض علينا الغزو العراقى وحالة الانهيار الذى نعيش فيه داخل العراق وخارجه أن نتنبه إلى أن الهجوم الشرس - دون المبرر- على جامعة الدول العربية ليس وقته.. وأولى بنا أن نستعيد الدور المضيء للجامعة.. متى نتنبه لما يجب أن يكون بعيدًا عن المصالح الذاتية أو الأنانيات غير المبررة فى زحف الزحف الغربى من جديد.

بيد أن هذا الهجوم العاتى على مؤسساتنا السياسية والثقافية يمتد من الجامعة العربية إلى عديد من الرموز الأخرى، وهو ما يدفعنا إلى الدعوة إلى التماسك، ورد الهجوم العنيف غير المبرر، والأكثر من هذا، الدعوة إلى مزيد من التعاون المثمر الخلاق بيننا..

وإذا كانت الجامعة لم تستطع أن تحقق هذا الائتلاف السياسى (أو الثقافي) إبان غزو العراق وبعده فلدينا العديد من المؤسسات التى يمكن أن تلعب دورًا ثقافيًا واعيًا خلاقًا إذا استطعنا أن نرى لها دورًا واحدًا لا أدوارا شتى، ووعيًا يعى بخطورة الفترة التى نعيش فيها من منظور واحد لا مناظير شتى..

إن لدينا على أرض الواقع منظمات عربية وصحفًا قومية وشاشات تليفزيونية متزايدة - أرضية وفضائية - ومراكز دراسات بعضها يعمل بجد داخل الأقطار العربية وبعضها عابر للجنسيات بنشاط لا يتوقف ولدينا

لجان ثقافية وجمعيات أهلية وغير أهلية ونقابات متباينة ثم، إن لدينا اتحادات للكتاب تزيد أو تتزايد الآن فى المنطقة العربية..

ثم إن لدينا هذه الجامعة التى لم نستطع إنقاذها فى الماضى أو استنقاذها فى الحاضر، أو - بما يبدو الآن - لن نستطيع إنقاذها فى المستقبل، ليس هذا دفاعًا عن الجامعة العربية، ولكنه تقرير «للحالة» التى انتهينا إليها هنا، فأين الجامعة؟!..

جامعة عربية.. أمْ تنظيمات شبكية؟

ثانيًا

ما إن عدنا إلى الجامعة العربية، فى زمن التردى العربى المهين ـ كما رأينا المرة الماضية ـ حتى تلقينا تعقيبات وردودًا كثيرة، وبرغم قسوة الردود، وعنف التعقيبات، فقد آثرنا نشر بعض هذه التعقيبات لنرى إلى أى حد وصل حس انسان الشارع بالجامعة العربية وزيف المركزية السياسية الجغرافية خاصة فى عصر ظهرت فيه الحيرى أمام عضوية العراق فى هذه الجامعة بحاكمها المدني (الأمريكى) الجديد فى عصر سقطت فيه عنا ـ حتى ـ ورقة التوت الأخيرة! ومعها سقطت التنظيمات التقليدية السياسية، العراق العربى، الذى أصبح الآن ـ أو حتى الآن ـ بحكمه المدنى أو العسكرى الذى يمضى فى فلك العم سام هناك وليس بين أبناء عمومته وإخوته العرب هنا، وحتى الآن..

لنكتفى الآن بنشر رسالة بالبريد الإليكترونى لنرى إلى أى حد أصبح «الحس» العام للإنسان العربى فى حيرة شديدة قبل أن نحاول العبور عنها ومنها إلى هذه «الحالة» التى نعيش فيها، والتى لا بد من الفرار منها كما هى قبيل العود إليها كما نريد.

الفرار من التنظيمات التقليدية إلى التنظيمات الشبكية، التى تعتمد الوعى المعرفى القائم على الوعى الجمعى بالعصر الجديد.

لنقرأ ما جاء لنا فى البريد الإليكترونى:

إلى:

انتهى المشهد الشرق أوسطى مع بدايات الألفية الثالثة بطلاق يبدو بائنًا فيما بين العراق وباقى أمته العربية المزعومة، ولم تكن إسرائيل المزعومة، كما تسميها الأدبيات القومية عامة والناصرية خاصة، طرفًا أو على الأقل شاهد طلاق فيها، وظل المشهد أكثر مأساوية عن ذى قبل عندما لم يتقدم أى من الحكام العرب، الذين أيدوا إزاحة النظام العراقى بقوات أمريكية سرًّا، لتهنئة الشعب العراقى بإرسال برقية مباركة وتبريكات كالتى تعمى أبصارنا فى المناسبات والأعياد فيما بينهم، بل بدأ البعض بالهمس والتصريح على استحياء بأن الحكومة الجديدة يجب أن تكون بإرادة الشعب العراقى، وهو تصريح غريب وضعيف الإسناد عند مراجعة كيفية تشكل ووصول باقى العسكرتارية فى المنطقة، لكن هناك سببًا أقوى يجعل النظم تتمنى أن يطول احتلال القوات الأمريكية وبقاء حاكم أمريكى على رأس السلطة، ليظلوا هم فى كرسى الحكم لطلب الاستقلال وموقف الشهامة المطالب بالتحرر وسرعة الجلاء وتمكين الشعب العراقى من إقامة حكومته أى الرقص على اللحن الفلسطينى.

الزلزال الآتى بعد أن تتشكل الحكومة الجديدة سوف يجفف ماء أى وجه يعرف معنى التصبب عرقًا وخجلاً فى زمن السقوط، فهناك التخوفات التى تخشاها النظم أن يعلن العراق انسحابه من الجامعة بعد تشكل حكومته. فهم على علم يقينى بذلك خاصة بعد طلب أحد المسئولين الأكراد اعتذار الجامعة العربية رسميًّا عما ارتكبته فى حق الشعب العراقى، ولعل السيد

عمرو موسى يعرف على وجه اليقين أيضًا أن التمثيل الجديد للعراق لن يكون من نوعية التمثيلات أو التمثيليات الأخرى، فالحكومة القادمة على أى وجه ليست بديلة لصدام أو البعث إنها النقيض، فهناك وجهان لما تراه أنظمة الجامعة للقادم الجديد ما يجعل شكل المجتمعين فى الجامعة حول مائدتها المستديرة شاذًا، فالفاشيات العربية ومعها حشد من مثقفيها يروجون أن الحكومة الجديدة هى عميلة للغرب وأنها أتت على ظهر الدبابة الأمريكية نهارًا جهارًا.

فإذا كان هذا هو الحال فسيصبح التناطح والتلاسن الذى شهدناه فى قمة شرم الشيخ بين ممثلى السعودية وليبيا، والذى كان سرًا مدفونًا طوال عمر الجامعة هو الأجندة اليومية فى أى لقاء قادم، وعلى أى مستوى تمثيلى لأى اجتماع للجامعة لأن اللعب أصبح على المكشوف وورقة التوت التى حركها قليلاً الأمير السعودى وقائد ثورة الفاتح لنشهد جزءا من العورات العربية قد سقطت تمامًا بعد سقوط بغداد، فالجميع سوف يشهد اجتماعات ربما كانت شواطئ برايتون البريطانية أفضل لها للانعقاد من المبنى الكائن على شاطئ النيل.

أما الوجه الآخر وهو الأكثر إيلاما ما يجعل العرى وارتكاب الفاحشة أقل ضررًا للنظم العربية فى الحياة الدنيا والآخرة، فأن يجلس ممثل العراق معبرًا عن الشعب العراقى وبشكل غير سلطوى قمعى على نفس طاولة الاجتماعات التى أخرجت الصمت المتآمر، طوال عمر الجامعة، على جرائم النظم فى حق الشعب العراقى والصومالى والجزائرى والسودانى وآخرين لا تعلمونهم لكن الله يعلمهم، هنا يكون التصادم الحقيقى بين الشارع العربى ممثلاً فى التمثيل العراقى لدى الجامعة وباقى الأنظمة، وتصبح الجامعة التى تسكن على شاطئ الإله حابى المصرى ساحة للنضال الديمقراطى.

هكذا أنتجت الثقافة العربية السلطوية، وحتى الآن، نظامًا سياسيًا يقطع الصلة مع شعوبها ويعاديها فيخون السياسة والمجتمع، بأن تصبح السياسة اجتماعات لضرب الودع ومناشدة القوى الأخرى القادرة على الفعل فى العالم وليس الاعتماد على القوى الداخلية التى استخدمت كالملح لتغذية الكائن السلطوى، وبغض النظر عمن سيمثل العراق قبل انسحابه المؤكد من الجامعة، فالسيناريوهات السابقة متوقعة، لكن هناك سيناريو ثالثًا يعد مقتلاً ويضع النظم العربية خلف جهاز أشعة أكس السياسية إذا ما مثَّل العراق السيد جارنر أو الحاكم المدنى الجديد، عندها سوف تنقل لنا الفضائيات علنًا ماذا يجرى بين النظم العربية وبين الأمريكيين، فنصيحتى للسيد عمرو موسى أن يتذكر أن الله حليم ستار ويأخذ قرارًا جريئًا بطرد العراق على وجه السرعة وبأثر رجعي ويبررها بأن صدام أهان شعبه واستبد به ولا يجوز له العضوية بالجامعة.

محمد البدرى

وبعد، فأنا مع السيد البدرى فى كل ماقاله، وأكثر، خاصة فيما يتعلق بحالة (العراق) الأمريكى أو الولاية الأمريكية الجديدة!!.

ومع هذا، ورغم هذا، فأنا مضطر أن أزيد، فأقول أيضًا إنه مع كل هذا الهوان الذى نحياه مع العراق، الذى نبحث فيه عن هويته هويتنا.. فإنه لم يبق لنا غير البحث عن مسلك جديد لبقاء عروبتنا، والبحث لا بد، ولا بد أن يصل ليعود بنا إلى كل من أشكال التنظيم العربى الجديد الذى لا يغفل وضع العراق الجديد ويشعل قنديل التغيير والفهم لدينا.

إننا بعد فشل عمليات الاندماج الفيدرالى أو اللافيدرالى التى بحثنا عنها طويلاً، لا بد وأن نسلم بسقوط هذا الحل، سقوط الوحدة السياسية بوضوح. نقول سقوط الوحدة السياسية!!

ومع سقوط السياسة البطريركية أو الثقافة البطريركية التقليدية، فإنه لا يبقى لنا غير البحث عن شكل جديد فى عصر التقنية الرقمية، وهنا نغادر الشكل السياسى إلى شكل آخر، إنه لا يبقى لنا غير شكل «التنظيمات العربية الشبكية» التى تتعامل بها مع الكيانات بمنطق عربى جديد لا تقليدى، معرفى لا سياسى.

لندع أشكال العروبة السياسية والحماسة البعثية التى عشنا فيها طويلاً إذن، ولنعترف اليوم بأننا فشلنا فى تجربة الوحدة الاندماجية، فضلاً عن أننا أصبحنا فى زمن «سكرة العولمة» الإعلامية الإدارية والاقتصادية، والتى لم نعد لنملك فيها غير إنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذا الواقع البشع الذى سيجفف ماء أى وجه يعرف معنى التصبب خجلاً كما نعرف كل يوم بالفعل، كما نعرف ونقرأ.

نقولها بحزن، ونضيف، لأنه لم يعد أمامنا بعد سقوط العالم القديم غير فعل الطلاق البائن بين ما كنا نعتقده وندعو إليه من «الوحدة السياسية» والسعى بجد ودأب إلى «شبكة» الوعى الجديد القائم على هذه التنظيمات العربية «الشبكية» عبر هذا الوعى الجديد القائم على الثقافة واللغة والإمكانات الاقتصادية والمؤسسات (الحكومات) الإليكترونية، ثم إن لدينا بعد ذلك «مجلس الوحدة الاقتصادية العربية»، لكن مع التنبه بشدة إلى أن الشبكة التنظيمية التقنية الجديدة هى الخيار الوحيد أمامنا.

إننا فى حاجة إلى تنظيمات شبكية متضامنة بهذا المعنى تخرج بنا من البطريركية السياسية التقليدية التى ثبت فشلها إلى الوحدة فى الوعى الجمعى عبر هذه الشبكة التى تقوم على التعدد المعرفى، الشبكة التى تعكس التضامن فى الثقافة والوعى والمصير المشترك.

نقول هذا كله بعد أمركة العراق، أو ونحن فى طريق هذه الأمركة.

ثالثًا

ثمة ملاحظة يجب الإشارة إليها قبل أن نواصل عرض قضيتنا هنا.

وهى ملاحظة لفتت نظر البعض وتحفظ عليها البعض الآخر، وهى تتحدد فى وضع حرف ملتبس بين «الجامعة العربية» و«التنظيمات الشبكية» وكأن هذا الحرف يمثل أداة شرط.. وكأننا نفرق بين اثنين ولا نريد الجمع بينهما - لمن قرأ المقال الماضى (جامعة عربية أم تنظيمات شبكية).

- إما أن تكون هناك «الجامعة العربية»

- وإما (وهنا حرف الشرط المريب) تكون «التنظيمات الشبكية»

كما أن (إما) هنا تكون حرف شرط وتفصيل بالمعنى الذى يقرب بين الجامعة ووسيلتها

كما أن (إما) تكون هنا حرف شرط وتوصيل بالمعنى الذى يوصل بين أقطارنا بشكل واع.

والواقع أننا لم نكن فى حالة تفريق أو فصل قط بين ما نريده وما هو واقع، اللهم، إلا فى الربط بين الأداتين..

فكيف يمكن أن نقول بإلغاء الجامعة العربية كما لا يمكن أن نركن للواقع المهين الراهن من أن نترك الجامعة - كما هى - وقد فشلت - على المستوى السياسى - فى عديد من القضايا المصيرية التى تتعرض لها أمتنا العربية منذ قرابة نصف قرن وإنما الأولي - وهنا نصل إلى الطرف الآخر المقابل - أن نقول إن الجامعة العربية التى لا بد وأن نتمسك بها - رغم «كل» المهاترات التى لاقتها وعانت منها فى الفترة الأخيرة لازمة للنظام العربى ولازمة حين ترتبط بمنطق العصر.

أن تستبدل بالوحدة السياسية الوحدة، التنظيمية، الشبكية..

إنها الجامعة العربية التى يجب أن تكون واعية لمنطق العصر وتعمل به.

وهو ما يحتاج إلى تفصيل يجب لفت النظر إليه..

إن الوحدة السياسية لم تعد بقادرة على أن تستجيب لما يحدث للمنظمة العربية، ومن ثم لم يبق لنا غير نوع من أنواع ما يسمى بنمط التحالف أو القوة التحالفيةAlliancepower التى تختار كل دولة من الدول العربية فيه التحالف مع غيرها التى تتشابه معها فى الأهداف التى تتعارض مع القوى الاخرى ذات الأهداف المغايرة ولما كانت الدول العربية لم تستطع تحقيق هذا الشكل من أشكال التحالف السياسى، فإنه لم يبق بل يجب أن نبادر إليه فى جميع الحالات أن نحقق هذا التحالف، ولكن عبر التقنية العربية والمصالح الشبكية التى تحقق مصالح كل دولة، وفى الوقت نفسه تحقق مصالح الدول العربية فى آن واحد..

وعلى الرغم من أهمية الدعوة للتنظيمات الشبكية عبر هذا الطريق.. فإنه قد لفت نظرى - على المستوى الشخصى - أن هذا الطرح وإن كان فى صدورنا نحن المثقفين والمفكرين - وإلى حد ما الاقتصاديين - فإنه لا يقابل بنفس الحماس، فمن يراجع المؤتمرات والندوات واللقاءات التى عقدت فى الحقبة الأخيرة سوف يلاحظ هذا الأمر.. عدم الوعى بأهمية التقنية المعاصرة بالقدر الكافى..

ورغم الاهتمام بهذه التنظيمات العربية عبر «الشبكة» فإننا على العكس من هذا لا نجد اهتمامًا فعليًّا لدى الحكومات على المستوى العربى، وإنما يمكن أن نجد اهتمامًا فائقًا على مستوى كل قطر، رغم أن الاهتمام بالعامل التقنى - غير كاف للعيش فى عالم اليوم.. أما أن تتم الدعوة العربية التى تعقبها المحاولات الفعلية فإن هذا يظل غائبًا على المستوى «الجمعى» العربى..

وهنا يأتى دور الجامعة العربية فنحن نعلم أن هناك إمكانات وقنوات شبكية فى الجامعة العربية، ونحن نعلم أن هنا قطاع الخدمات الأساسية، حيث توجد إدارة مستقلة تعمل كأمانة فنية لمجلس الوزراء العرب للاتصالات والمعلومات.. لكننا لا نعرف أن هناك «شبكة تنظيمية» يمكن أن تعمل خلال المصالح والأهداف القومية عبر هذه التنظيمات، حفاظًا على مستقبل المنطقة العربية وعلى هويتها التى تتعرض هذه الفترة لخطر داهم يستفحل أمره مع مضى الوقت..

إننا حين ندعو إلى مثل هذه التنظيمات ندعو إليها عبر الجامعة العربية وليس خروجا منها ولكن (ولكن) بعد أعادة صياغة أدوات الجامعة وميثاقها.. وما إلى ذلك مما أثير عنها فى الفترة الماضية..

إن استعادة ما حدث «للجامعة» وعن الجامعة السنوات الماضية، وخاصة عقب غزو العراق، يرينا أن هناك الكثير من التحفظات وكثيرًا من السلبيات وكثيرًا من «الظلم» أيضًا الذى تتعرض له الجامعة العربية (العربية) من بين أبنائها، ولسنا فى حاجة لا ستعادة موقف الجامعة فى مؤتمراتها قبل غزو العراق وبعدها، ولسنا فى حاجة لاستعادة المعارك الوهمية التى كانت تقاد ضد الجامعة!! وأمينها!! الذى لا يملك أكثر من فعل أية دولة وإن صغر حجمها وإن كبر ذنبها فيما حدث فى «للعراق»..

ولسنا فى حاجة لاستعادة دعوة الكثير من المفكرين والسياسيين إلى إعادة النظر إلى أطر الجامعة ولجانها وميثاقها.. ومنذ أيام قليلة كان الرئيس سارك يعلن فى طرابلس أنه أمام المشكلات الكثيرة التى نعانى منها كأمة عربية لا بد أن يكون لدينا الإصرار على التقدم للأمام والعمل على تنسيق العمل المشترك معا كأمة عربية.

وهو ما تردد بشكل أو بآخر من كثير من العقلاء فى هذه الأمة..

ولا نريد الإسهاب حول هذا كله فقد عشناه وعايشناه بألم شديد، ومن ثم كان لا بد أن نستعيد «دور الجامعة» عبر استعادة أشكال أخرى من هذه الشبكات المعرفية، بعد أن عانينا طويلاً من تراجع وسقوط الشبكات السياسية وغيابها حتى فى أسوأ الأزمات..

وهو ما يصل بنا إلى، «التنظيمات الشبكية» التى أشرنا إليها والتى رأينا أنه يجب العود إليها لتحقيق قدر واع من الوحدة المعرفية الواعية لمنطق العصر وحاجته وطريقة التعامل معه..

إن المهم هنا أننا فى حين ندعو إلى مثل هذا الوعى المعرفى عبر «شبكة»، فإن الواقع ما زال يدفع بنا إلي «شباك» التخلف والجمود..

وتكفى نظرة واحدة إلى أى من هذه الاجتماعات الإقليمية أو العربية أو العالمية لندرك حجم الهوة الشاسعة بين الوعى العربى بضرورة البحث عن المصالح العربية وهذه «الشبكات التنظيمية» التى تقوم مواكبة التقدم المذهل فى عالم الاتصالات وعصر «العولمة» الامريكية..

وسوف نضرب مثالين أحدهما قريب والآخر بعيد إلى حد ما..

إن العود إلى توصيات ندوة الاتصالات العربية التى عقدت فى القاهرة (3-6 إبريل 1995) نرى أنها تنادى بالآتى:

إنشاء قاعدة بيانات لمصنعى الاتصالات العربية تشتمل على معلومات تخص المصنعين العرب ونوع الإنتاج والسعة والمواصفات المطبقة.

والتأكد من أن نوعية منتجات الاتصالات العربية مطابقة للمواصفات الدولية بغرض الصمود أمام المنافسة الدولية.

ثم الدعوة إلى تأسيس منظمة عربية أو جمعية تضم مصنعى منتجات الاتصالات بغرض الوصول إلى المستوى المرجو من التنسيق والتعاون.

وحث الشركات العربية العاملة فى مجال تصنيع تجهيزات الاتصالات على ما يلى: تبادل الخبرات والزيارات فيما بين الشركات الأعضاء والوصول بالتنسيق الداخلى مع المستفيد الأكبر (أى إدارات الاتصالات العربية) إلى الحد الأمثل، وذلك لتلبية احتياجاته مع ضمان أعلى درجة من الجودة، وتطوير برامج البحث والتنمية، وتعزيز المشاريع العربية المشتركة والاستثمارات فى مجال صناعة الاتصالات.

وأيضًا العمل على تعبئة الخبرات العربية فى مراكز الأبحاث المتخصصة لمختلف صناعات الاتصالات، وتبادل المعلومات بين هذه المراكز والشركات العربية المختلفة المصنعة لمنتجات الاتصالات.. وما إلى ذلك من التوصيات التى تكررت فى كثير من المؤتمرات والاتحادات..

إن العود - على سبيل المثال - إلى أهم ما أثير فى «الملتقى العربى للاتصالات والإنترنت» 2003 الذى انتهى أمس الأول سوف نلاحظ بحزن شديد غياب الحكومات وحضور الشركات..

غياب الدولة وحضور الخصخصة.

وعلى هذا النحو ارتفعت أصوات أصحاب الشركات أكثر من أصوات الحكومات..

وغابت فيه القدرات فى عالم الاتصالات والمعلومات أكثر من حضور المركزية العربية أو - حتى - الدول العربية فى وقت بدا فيه العالم العربى فى عالم فائق التقدم متخلفًا إلى حد بعيد..

إن أعلى الأصوات كانت أصوات ممثلى الشركات التى راحت تطالب - بعيدًا- عن رغبة الوعى العربى الجمعى بفتح الأسواق العالمية - لا العربية - وبدت رنة الاستغراب من الشركات تشير إلى ضعف التعامل مع الشبكة بالنسبة للوطن العربى - بشكل مفزع.

بل أشار البعض صراحة إلى ضعف هذه الشبكات المريع ليس فى المدن العربية وحسب، وإنما فى الريف، حيث بدا ضعف البنية المعلوماتية - على المستوى العربي - أكثر ما يلفت النظر بحزن شديد وغياب الأعمال الفعلية العربية على الشبكة الدولية الإليكترونية (وما إلى ذلك)، مما يشير إلى ضعف آخر ما يمكن أن نتمسك به فى هذا العالم المضطرب من غياب هذه التنظيمات الشبكية، سواء على المستوى التقنى بشكل عام أو على مستوى «اقتصاد المعرفة» بشكل خاص، ثم على مستوى الوعى الجمعى التقنى العربى بشكل أخص.

وبعد، هذه أمثلة - مجرد أمثلة - لغياب مثل هذه «التنظيمات الشبكية» عن الوعى القطرى بل والعربى أيضا نعتذر بعدها عن الاستطراد حولها.

بقى أن نعيد ما سبق وأن رددناه كثيرًا، إننا نعانى من التخلف الشديد فى مجال الاتصالات والمعلوماتية، وإن هذا التخلف ينسحب على كل شىء فى حياتنا بما فيه الجامعة العربية (العربية).

فمتى نتنبه لذلك، ونعمل له..؟

رابعًا

قبل أن أتأهب لكتابة هذه السطور كدت أغير من عنوانها..

كدت أضيف إلى العنوان «الجامعة العربية» ـ « المنظمات الأهلية» لولا أن السياق الذى مضينا فيه منذ البداية.. لا يستقيم، أو يبدو أنه غير مألوف للربط بين الاثنتين:

- جامعة عربية..

- ومنظمات أهلية..

وكنت قد دعوت عبر المقالات الماضية بعد تعرض الجامعة العربية لكثير

من العنت و الاتهامات.. إلى أن نتوقف عن المناداة بالوحدة الاندماجية أو السياسية بين الأقطار العربية، ونستبدل بها «التنظيمات الشبكية» عبر الوعى القائم على الهوية من الثقافة واللغة والمؤسسات الاليكترونية (الحكومية) والإمكانات الاقتصادية.. وما إلى ذلك من أشكال الوعى «الجمعي» فى هذا العصر الذى نحياه.

كما شددت على أن الدعوة إلى هذه التنظيمات لم تكن بمعزل عن الجامعة العربية، خاصة ونحن نعلم أن هناك أمانة للاتصالات فى الجامعة العربية..

إنها دعوة للخروج من جب المركزية السياسية إلى فضاء الشبكية العالمية التى تقوم على التنظيمات الرقمية الحديثة..

وها أنا الآن أعود إلى الهدف نفسه من طريق آخر..

وها أنا الآن أمام البريد الإليكترونى الذى يردد من آن لآخر دعوة التنبه إلى مثل هذه الدعوة التى تقوم على الحداثة، بعد أن عانينا كثيرًا من إشكالات الوحدة السياسية وإشكالات القادة والأمراء والملوك وكتابات الكتاب والمثقفين التى لا تنتهى وتكرر نفسها بشدة خاصة عقب غزو بغداد، فى عالم، لم يعد ليحتمل الخلافات والمعارك الوهمية..

إن العلاقة بين الجامعة العربية والمنظمات الأهلية هى ما لفتت نظرى عبر أكثر من رسالة فى البريد العادى أو البريد الإليكترونى.. هذه العلاقة هنا هى التى حفزتنى لأعود بعين العدسة إلى مكان آخر، وأحاول أن أستعيد الرؤية من منظور جديد..

وها أنا الآن أمام البريد الإليكترونى الذى يردد من آن لآخر دعوة التنبه إلى القطاع الخاص فى رصد العلاقة بين العام والخاص، أو بين الجامعة العربية وبين أصحاب رءوس الأموال من رجال الأعمال..

وقبل أن نستطرد أكثر حول هذه العلاقة وأهميتها، نشير إلى إحدى هذه

الرسائل من مسئول كبير فى عالم التكنولوجيا والاتصالات اليوم، فبعد أن يجمل مقولته الرئيسية فى صدر الرسالة (الجامعة العربية - قطاع عام المنظمات الأهلية «قطاع خاص» راح يجيب عن التساؤل الذى طرح هنا لمرات عديدة..

نقرأ ما جاء بالرسالة:

إلى

سيدي، طبعًا التنظيمات الشبكية.......

لقد جربنا الجامعة العربية لعقد من الزمن تدهور بنا فيه الحال العربى إلى القاع، بحيث لا يمكن السقوط أكثر من ذلك، وفى رأيى ان ذلك سببه الأول والأخير هو عدم الاعتراف بدور المنظمات غير الحكومية وغلق الأبواب فى وجهها خوفًا من حرية الحركة التى تتمتع بها وعدم سيطرة الحكومات عليها، وهو السبب نفسه الذى قد يؤهلها للنجاح.

تلك هى نفس المشكلة الرئيسية لاقتصاديات البلاد العربية التى لو اتبَّعت بوضوح النظام الاقتصادى الحر الذى يسمح للقطاع الخاص بأن يقود مسيرة التنمية لأصبحت الأمة العربية قوة اقتصادية لا تعتمد على النفط فقط فى اقتصادياتها، ولا داعى لكى نخرج خارج نطاق أمتنا العربية للبحث عن الأمثلة الناجحة، فأمامنا تجربة دبى التى تحولت إلى مركز اقتصادى غير مسبوق وكذلك دول أخرى مثل المغرب وتونس والجزائر.

سيدى، أمل الجامعة العربية هو استقطاب المؤسسات الأهلية تنظيمات القطاع الخاص العربى. ولعل مبادرة الأمير خالد الفيصل الممثلة فى مؤسسة الفكر العربى هى محاولة فى هذا الطريق، فلقد زاوجت بين الفكر العربى والرأس مال العربى الوطنى الخاص، والتى ضمت شخصى المتواضع -

مثال جيد وشجاع على المؤسسات الأهلية ودورها فى مثل هذه الظروف الصعبة..

نجيب سويرس

وتنتهى الرسالة ولا ينتهى ما تثيره من ملاحظات مهمة فى هذا الصدد.

(3)

إن الاهتمام بالمنظمات الشبكية.. لايمر - بالقطع - بالمركزية السياسية لأكثر من عشرين دولة عربية، لكنه يمر - بالقطع - بأمانة جامعة الدول العربية ولا يتجاهلها..

وما يجب التنبه إليه الآن أكثر من أى وقت مضى البحث عن مسالك ووسائل جديدة تعيننا للعيش فى عالم اليوم، أو للوعى بطرق العيش فى عالم اليوم، ولعل الإشارة إلى الحداثة بهذا المعنى ما قصده عمرو موسى فى المؤتمر الأخير للبرلمان العربى، حين قال بعد حديث إن الحفاظ على الجامعة العربية لا يكون بمجرد الالتفاف حولها وحمايتها من سهام الإخوة والأعداء على السواء، بل (بتحديثها وجعلها تواكب العصر بمختلف تحدياته)، والتحديث أو الحداثة هنا هو الالتفات إلى العناية بلغة العصر إلى الاقتصاد والتنمية والثقافة.. وما إلى ذلك من العناصر التى نجدها فى شروط الوحدة الأوروبية، ثم نجدها فى وسائل تأكيد الهوية العربية بشكل يحول بيننا وبين السقوط فى الهوية الرقمية التى نكاد نسقط فيها بالفعل..

وعلى هذا لا بد من التنبه: لا بد.. إلى دور الجمعيات أو المؤسسات الأهلية اليوم، قبل أن نفاجأ معا بشروط عسرة للسوق الحرة التى يتحدث عنها العم سام.. وقبل أن نجد أنفسنا - إن لم نكن قد وجدنا بالفعل أنفسنا - فى نفق الشرق أوسطية التى تمضى فى السياق الذى وضع لنا سلفًا..

غير أنه مع ميلنا إلى الإفادة من التنظيمات الأهلية والتنسيق معها فى مجال تأكيد الهوية وتعميق الثقافات تظل أمامنا عدة ملاحظات نتأمل فيها معًا بصوت عال، نشير إلى بعضها:

- إذا كان أصحاب المنظمات الأهلية هم من نسيج النظام الثقافى العربى: فهل يمكن أن تظل هذه العناصر على نفس الأرضية الثقافية فى عصر العولمة، حيث تتعدد هويات الطبقات الاجتماعية، وتتبدد وحدة الفئات التى حرصنا أن تكون ذلك لزمن بعيد خاصة تحت نير (الميديا) الغربية.. ؟

- إذا كان أصحاب المنظمات الأهلية من نفس النسيج الوطنى، فمن يضمن لنا- فى فترات الأزمات الكبرى - أن تظل على نفس النسيج السياسى بالنسبة للقضايا الكبرى التى تمر بها أمتنا، مع الوضع فى الاعتبار أنها فئات أو جماعات وطنية عربية، وأنها - كما هو الحال مع عديد من رجال الأعمال عندنا - تقوم بدور الحارس لكثير من المصالح العربية فى المنطقة ؟

والمعروف أن تعارض المصالح قد يعيد تحديد المواقف السياسية.. وتعديد الاتجاهات.

- ثم ألا يجب الدعوة إلى أن يكون للمنظمات الأهلية «برنامج» واحد يمكن من خلاله التعاون مع آليات الجامعة العربية وترشيد حركتها فى طريق التآلف العربى الواحد ضد العدو المشترك.. ؟

إن الدعوة التى أشارت إليها الرسالة هنا تدفع إلى تبنى المسيرة التى لا تقوم على النفط فقط (دبى كمثال)، غير أن التفاف مثل هذه الجماعات حول الشبكات الإليكترونية وتأكيد دورها يظل مرهونًا بالتوافق مع السلطة المركزية..

- وهو ما يتوقف بنا هنا عند المثال الذى ذكرته الرسالة من أن مؤسسة الفكر العربى للأمير خالد هى من أهم المحاولات التى زاوجت بين الفكر

العربى والرأسمال العربى الخاص، غير أن هذه المؤسسة - وغيرها - تلعب دورًا رائدًا فى مجال التنمية أو التنظيمات الشبكية التى ندعو إليها، وهذا الدور تظل فاعليته متوقفة عند موقف الدولة..

وفى هذا الصدد سألنا ولأكثر من مرة سؤالاً حائرًا هو: لو أنه قام تعارض بين رأس المال (متمثلاً فى مؤسسة فكرية) وراس الدولة (متمثلاً فى المركزية السياسية) فى أية دولة عربية.. إذن، فمن الذى يستطيع أن يحقق أهدافه ؟

وبشكل آخر، هل تنجح أى من هذه المؤسسات - وهى أكثر المؤيدين لقيم الديمقراطية والحرية - فى تأكيد ما تريده فى دولة مركزية - كمصر - تقوم السلطة فيها على النظام الأبوى منذ عصر الرى (عصر مينا) حتى اليوم..

إنها إشكالات عامة جاءت من - وعن - هذه الرسالة.

إشكاليات لا تنكر دور المنظمات الأهلية لكنها - فقط - تطرح بعض التساؤلات التى يجب أن تطرح حين نشير إلى الجامعة العربية والمنظمات الأهلية لتأكيد قيمة التنظيمات الشبكية..

إنها قضية الجامعة العربية والتنظيمات الأهلية

بالقطع ليست الجامعة العربية أم منظمات أهلية..

إن الهدف واحد، والمصير واحد.

عبد الناصر فى ذكراه

أولا : غياب الوثيقة العربية

....ذكرى ميلاده ما زالت تثير فينا أسئلة كثيرة..

ولد عبد الناصر فى بدايات القرن العشرين فى مثل هذه الأيام 15 يناير، وترك أثرًا لا يمكن للمؤرخ المنصف أن يتجاهله (وهل يمكن أن يحدث ذلك ؟)..

إن ذكرى ميلاده ما زالت تثير فينا أسئلة كثيرة..

ولأن الحديث اليوم يطول الوثائق الغائبة أو المغيبة، مما يزيد من اتساع ثقوب الذاكرة، فإن العود إلى هذه الذاكرة الغائبة يلتقى مع بحثنا عن العروبة الغائبة..

وسوف نرجئ الحديث عن هذه العروبة المغيبة إلى تلك الذاكرة المثقوبة لنسأل فى هذه المناسبة: أين شهادة عبد الناصر؟

(2)

أرقنى هذا السؤال كثيرًا

وكنت قد رددته كثيرًا بين نفسى، وكتبت أكثر من مرة، وقلت فى أوقات

كثيرة لعل من آخرها الندوة التى أقيمت بالأهرام أخيرًا حول «الوثائق..» ونشرها الأهرام الدولى.

كان سؤال هذه الندوة أين وثائق الثورة؟

وعدت أردد بشكل أكثر دقة فى هذا المقام:

- أين شهادة الرئيس عبد الناصر ؟ أين شهادة أهم من عاصر ثورة يوليو - على الإطلاق - ؟ أين الشهادة المهمة - والوحيدة - التى لم تقل بعد، خاصة، أن رحل صاحبها، بعد أن صمت ؟

إن الجميع قالوا أفكارهم وشهاداتهم عن ثورة يوليو - الأعداء والأصدقاء - كتاب المذكرات وكتاب الذكريات والكتبة، المؤرخون والهواة، والمتربحون وحتى الفنانات - وغيرهم كثيرون إلا واحدا (كنت أضيف بأسى) إلا واحدًا هو: عبد الناصر نفسه.

إن حياة عبد الناصر - التى هى أحداث مصر: واقعها ومصائرها طيلة الخمسينيات والستينيات غائبة إلى حد بعيد.

ومشروع عبد الناصر الذى رحل من أجله غائب ويغيب بالتقادم رغم الكثير مما قيل فيه وعنه..

حاضر إلى حد بعيد.. رغم القليل مما يقال فيه وعنه.

وإذا كنا قد استمعنا إلى الكثيرين.

وإذا كان الأرشيف البريطانى قد فتح أمامنا.

وإذا كان الأرشيف الأمريكى قد تعرفنا عليه

وإذا كان الأرشيف الروسى أفرج عن الكثير (وبريماكوف ضَمَّنَ بعضه الآن فى آخر كتاب له).

وإذا كان القاصى والدانى قد تحدث كثيرًا عن الأحداث والمواقف

والشخصيات.. إلى آخر ما يصنع حركة التاريخ ويحكم عليها.. إذن، أين هى شهادة جمال عبد الناصر..؟

وظل السؤال معلنًا حتى كانت «حلقة نقاشية» أخرى حضرها عدد كبير من القوميين والناصريين والشهود من عصر عبد الناصر ـ فى أغلبهم ـ ووجدتنى، أنتظر الجميع حتى يدلوا بشهاداتهم ثم أسأل السؤال الذى حيرنى طويلاً بعد أن رحل عبد الناصر فجأة فى سبتمبر 1970، سألت، وأنا أوجه السؤال إلى الجميع حولى:

ـ سمعنا شهادات كثيرة جدًّا، ولم نعرف شهادة أهم شخصية فى ثورة يوليو شهادة عبد الناصر..

لقد قرأت كثيًرا وعرفت ـ وكنت أحد شهود هذه الفترة ـ أن عبد الناصر كان صريحًا إلى أبعد الحدود، وواضحًا إلى أبعد الحدود، وأنه كان ـ فى الوقت نفسه ـ واعيًا للمرحلة التى يعيشها، ومن هنا، فإنه ما كاد ينهى لقاء مع شخصية سياسية كبيرة أو دبلوماسى كبير إلا وكان أول ما يفعله أن يمضى، مباشرة إلى مكتبه أو أقرب مكان ويكتب ـ بعد اللقاء مباشرة ـ كل ما دار ويودعه..

كان واعيًا للتاريخ.

وواعيًا لدوره الحيوى فى التاريخ.

فأين ـ عدت إلى سؤالى قبل أن أتحول إلى غيره ـ.. فأين هذه الشهادة؟

أين شهادة جمال عبد الناصر؟

تحدثنا طويلاً وسمعنا أكثر:

ـ شهادة عبد الناصر، إنها فى محاضر الجلسات التى كان يحضرها فى مجلس الوزراء وفى الاتحاد الاشتراكى وفى وزارة الخارجية وفى المباحثات.. إلخ.

إن محاضر الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى التى نشرها البعض، والتى يقول فيها إنه استطاع الحصول عليها حين أعطاها له فى يده أنور السادات وقال له انشرها.. لا أعرف، هل ما نشر هو النصوص الحقيقية بغض النظر عن تعليقاته الخاصة؟ هل هى النصوص الحقيقية؟ هل حذف منها شيئًا ـ مثلاً ـ الإجابة: لا أعرف؟ لماذا؟ لأن النسخة الأصلية لها لم نعثر عليها بعد فيما يبدو.

ظلت الأسئلة تتوالى ولا تتوقف..

أين محاضر مجلس الوزراء التى كان يرأسها جمال عبد لا ناصر وقت الأزمات؟

أيضًا أين محاضر اللجنة التنفيذية العليا؟

إن هناك محاضر وجلسات عُثر عليها، بالمصادفة، فى مكتبه ـ أى فى مكتب عبد الناصر ـ لكن يظل السؤال قائمًا، ما دمنا لم نعثر إلا على بعض المحاضر، إذن.. أين باقى محاضر مجلس الوزراء الذى كان يحضرها على سبيل المثال، فالمعروف أن عبد الناصر كان يحضر اجتماعات مجلس الوزراء، خاصة فى فترات الأزمات مثلا: اللجنة التنفيذية العليا..

تتوالى الأسئلة ولا تتوقف وتعود للدائرة الشاسعة..:

أين شهادة جمال عبد الناصر وقت الأزمات؟ أين محاضر اللجنة التنفيذية العليا؟

كان جمال عبد الناصر يسجل جميع المباحثات، وكلها كانت محفوظة فى أرشيف سكرتارية الرئيس للمعلومات.. عبد الناصر لم يجر مباحثاته فى مكان مجهول، كل شىء مسجل وموجود، بشهادة القريبين منه..

إذن، كان جمال عبد الناصر موجودًا فى كل الاجتماعات التى كان يحضرها على جميع مستويات الدولة.

وجمال عبد الناصر يؤكد مشروعه ويسجله فى كل الاجتماعات التى يحضرها وسياسة عبد الناصر كانت واحدة فى والسر والعلن، لم يكن هناك أى شىء مخف أو شبه علنى، لا، كانت هناك فقط أشياء لا تعلن لدواعى الأمن، لكنها ـ بالقطع ـ كانت موجودة ومكتوبة ومدونة فى هذه المحاضر.. كل شىء كان موجودًا وموثقًا.. ولهذا نسأل للمرة الألف الآن أين هذه المحاضر إذن؟

(3)

تنتهى أسئلة الحاضرين ولا ينتهى البحث عن شهادته.

ولا تنتهى هذه المحاولة منا هنا، والآن، لمحاولة رد الاعتبار لعبد الناصر بعد نصف قرن من قيام ثورة يوليو وأكثر من ثلث قرن على رحيله.

الأسئلة قائمة رغم غياب الوثائق، وغياب الحافز الفردى فى وقت يتعرض فيه عبد الناصر لنازع الخلط والخطإ والمؤامرة..

أما الخلط، فهو لغياب المصادر والوثائق.

وأما الخطأ لغياب الحيدة والوعى..

وأما المؤامرة؛ لأن العنصرية الغربية الإسرائيلية تبذل كل جهد لغياب الوجه الوطنى العربى المقاوم لجمال بعد الناصر، ولا تزال..

لقد قال عبد الناصر قبل رحيله بشهر واحد: إنهم ـ الغرب ـ لن يسمحوا بوجودى مرة أخرى.

وقالت المصادر الغربية الخفية منها والمعروفة بعد رحيله لن نسمح بعودة عبد الناصر مرة أخرى..

ولهذا، ولغيره، كانت هذه المحاولة هنا والآن لنستعيد الوعى والمشروع

العربى فى زمن غياب الوثيقة!! وغياب الوعى العربى!! وغياب الدافع الغربى عنا!!

لم يعد السؤال فى هذا هو «كيف» حدث ما حدث؟

أو «لماذا» حدث ما حدث؟

وإنما ماذا نفعل فى ضوء التاريخ ـ لنعرف ماذا سيحدث فى المستقبل؟

أصبح الماضى ـ فيما نرى ـ هو الدافع الكبير لتحريك الفكر «المضارع» وإدارك «الوعي» الحاضر لأجل امتلاك الإرادة من أجل «المستقبل».

ولأن عبد الناصر جزء من خيوط الماضى، فإنه ـ فى ضوء المضارع ـ يظل نسيجًا حيًّا من الوعى بالحاضر، ومن ثم، الوعى «بمشروعه» هو الوعى باكتمال النسيج فى امتداد المستقبل.

عبد الناصر ما زال بيننا..

ورغم أن هذه المحاولة ليست الأولى (انظر كتابنا: المثقفون وعبد الناصر).. فإننا حاولنا هنا أن نستعيد الوعى بعبد الناصر عبر عدد من القضايا الحية، ما زالت حية، وأذكر أن كل أسئلتى التى تثير القضايا لغياب الوثائق كانت ـ فى الأصل ـ أبحاثًا ومجالاً لأطروحات بين كاتب هذه السطور وبين عدد كبير من الجماهير العربية ـ ليس المثقفين فقط ـ بين باريس ومدريد، كما طرحت بعضها الآخر بين تونس والأردن..

وفى جميع الحالات استفدت بالوعى عن عبد الناصر العربى (وليس المصرى فقط).. وأقول العربى، لأن عبد الناصر كان واعيًا للبعد العربى وعيًا حادًّا رغم الهزائم التى شارك فيها العدو والصديق..

وأعترف أننى استفدت كثيرًا من المطارحات والحوارات، سواء مع

«شهود» عصر عبد الناصر قبل ربع قرن، أو الجماهير العربية خارج مصر وداخلها.

كما يجب أن أعترف أننى وإن جهدت طويلاً للحصول على الوثيقة لتأكيد دور ثورة يوليو، فقد نجحت كثيرًا فى الحصول على كثير من الشهادات ـ المصادر الحية ـ ومن شتى التيارات، وهى شهادات ـ كما نرى ـ غاب بعضها، وما زال البعض الآن بيننا.. غير أن السؤال حول شهادة عبد الناصر لم يتوقف..

ومع مرور الوقت، ومع غياب الشهادات كانت تزداد ثقوب الذاكرة وتتسع..

خاصة أن البعض قد حاول استعايدة مشروع عبد الناصر فى عصر العولمة.. أى بعد نصف قرن من رحيله، ومن ثم، تحررت من كثير من حجاب المعاصرة وإن لم أستطع أن أتحرر من أسئلة قائمة محيرة..

وفى جميع الحالات فإننى أقول ـ كما قلت ـ منذ قرابة ربع قرن ـ سعيت كثيرًا إلى الحيدة فى الكتابة عن ثورة يوليو خاصة وعن عبد الناصر على وجه أخص، غير أنه مع يقينى أن الحيدة محض وهم فى العلوم الإنسانية، فإننى أزعم أننى جهدت أن أكون محايدًا بالدرجة الأولى.

ولكننى ما زلت أسأل نفسى ـ كما فعلت من قبل ـ هل امتلكت ـ بالفعل ـ إجابات لأسئلة كثيرة معلقة بسبب غياب شهادة عبد الناصر؟

أسأل نفسى وأنا ما زلت أجيب أننى أزعم أننى أحرص على الحيدة، ولكن، أى حيدة فى عصر الغرب الأمريكى الآن، الذى يحاول أن يطوى دافعًا تاريخيًّا قويًّا بالقضاء على المقاومة العربية، سواء فى نابلس أو البحرين أو القاهرة أو الدار البيضاء.. على طول الوطن العربى.

أى حيدة والغرب الآن يسعى للتعامل معنا كأقطار تعانى التفكك وتغييب الفكر القومى العربى ونحن فى أشد الحاجة إليه وإلى أهم رموزه؟

لا أريد أن أستطرد أكثر فى مؤامرة الغرب وعسكرة العالم عقب 11 سبتمبر..

كما لا أريد أن أستطرد أكثر ـ وهو ما يجب التنبه إليه أكثر ـ عن مؤامراتنا ضد ذاتنا، ضد تغيب أو تغييب وثائقنا، ذاكرتنا الحية، وإنما أردت أو سعيت للبحث عن الشهادة الغائبة الوثيقة، لرد اعتبار عبد الناصر الذى وجدناه لدى أبنائنا فى الشوارع العربية، وفى بعض الفضائيات غير المدجنة.. وفى بعض وسائل الإعلام التى تركت «صورة» عبد الناصر وفى الشوارع حينما وجدنا صورة عبد الناصر بين الجماهير خاصة بعد سبتمبر.. إبان الأزمات الكبرى فى عالمنا العربى..

ما زالت الشهادة غائبة والذاكرة العربية مثقوبة..

ما زلنا نبحث عن الشهادة الوحيدة ـ فى ذكرى ميلاده..

ثانيًا: عبدالناصر.. وغياب الوعى القومى

ما زلنا نواجه غضبًا كبيرًا بعد رحيله.

مازلنا نواجه غضبا، بل عنفًا يمثل «ردة» ليس على الفكر السياسى لمشروع عبد الناصر فقط، وانما على الثقافة العربية نفسها، على اعتبار أن الفكر القومى ـ فى إطاره الثقافى ـ ما زال هو الإطار الوحيد الباقى ـ دون شوفونية أو مبالغة.. هو الوحيد الباقى لمواجهة كل هذه النكبات والزلازل التى تتوالى علينا منذ هزيمة 67 وإلى سقوط بغداد مرورًا بعديد من النكسات والنكبات والزلازل..

ما زالت ثقافة الوعى العربى - الثقافة القومية -.. غائبة عنا وكأننا لم

نتعلم قط مما يمر بنا، بدا غيابها المقيت الآن فى هذه الهجمات العنيفة ضد كل ما هو قومى عربى، سواء فى عديد من الأقطار العربية وبوجه خاص من بغداد، وكان رد الفعل العنيف الذى نتج عن مأساة سقوط مدينة السلام هو السائد الآن على اعتبار أنه المعادل الموضوعى لما يمكن أن نكون فيه..

أى بدلاً من تحقيق الحرية والاستقلال أصبحنا نعانى نوبات الألم عقب سقوط بغداد، والمجازر والتضييق فى الأرض المحتلة ما زالت مستمرة قبل سقوط المدينة أو بعدها..

هذا كله، وغيره، ما يثير الإنسان العربى فى هذه الفترة العصيبة من تاريخنا حيث نحيا هذه الذكرى - مرور 33 عامًا على رحيل عبدالناصر - حيث يتصادف أمس 28 سبتمبر..

* * *

فى هذه المناسبة، نحن أمام تحولات كثيرة، تحول «الحلم» الناصرى القومى إبان تطوره فى الخمسينيات والستينات - على المستوى السياسى - ثم تحول «ثقافة العروبة» قبل ذلك وبعده إلى هذا الخراب الداخلى الذى دهم الإنسان العربى عقب السقوط الأخير.

ولهذا فنحن أمام هذه «الصدمة» التى جعلتنا أمام رد فعل سلبى فى عديد من أقطارنا أصبحت تمثل خطرًا عاتيًا على مستقبلنا كله، ففى حين تتوالى قلاع الوعى العربى من كل قطر إلى آخر، فاذا بنا نغفل أو نتغافل أنه لا طريق آخر أمامنا للعيش فى عالم اليوم، اللهم، بإعادة النظر فى التجربة العروبية سواء فى تاريخ القرن العشرين أو فى تاريخ الدول الأوروبية فى القرن نفسه حتى اليوم..

وعلى هذا النحو، فنحن مطالبون فى هذه الظروف بأن نتنبه لعديد من العلامات التى لا مناص منها إذا أردنا أن نلملم إرادتنا ووعينا السائد،

ونسعى - بالفكر القومى - أو بالثقافة القومية - لنعود إلى ميدان البقاء فى هذا العالم قبل أن يكتمل «المشروع» الغربى الشرير بتمزق المنطقة وتحولها إلى كانتونات أو جمهوريات للموز والبطيخ والعنب.. إلخ.

ومن هنا، فإن أمامنا عدة ملاحظات غير عابرة لابد من التنبه لها أكثر، وبرغم أن هذه الملاحظات كانت تعيش بيننا، أو كنا نعيش فيها، فإنها ما زالت قائمة، يحولها السقوط إلى علامات يجب العود إليها والتفكر بها من جديد فى عالم ميليودرامى رديء:

أولا - لا بد أن نتنبه إلى أن ما يحدث هنا وحولنا من غضب من العروبة، وخاصة من أبناء العراق، إنما هو رد فعل غاضب لما حدث، وليس توجيهًا بالاتهام الصحيح والحقيقى للإدارة العربية أو الثقافة العربية فى تطوراتها الأولى، فالعراق دولة عربية تنتمى إلى المحيط الكبير..

إننا يجب ألا تفزعنا هذه الصيحات التى تأتى من العراق أو خارجها كفرًا «بثقافة العروبة» وصياحًا للعرب «ارفعوا أيديكم عن بغداد»، وإنما أن نعدها رد فعل عاتيًا لهول الصدمة التى نتعرض لها.

ومن هنا، نرى أن ما يحدث من رفض للثقافة العربية أو الوعى العربى إنما هو رد فعل غاضب لا أكثر ولا أقل.

ثانيًا: حاجتنا الماسة إلى مثقفين ومفكرين بالفعل للتبشير «بثقافة العروبة» التى هى «ثقافة المقاومة» العربية بالمعنى الجمعى إزاء الأخطار الإمبريالية التى تحيط بنا..

لا بد لنا - إذن - من مثقفين متطورين فكريًّا عن نظرائهم فى العقد الماضى من أمثال شكيب أرسلان أو ساطع الحصرى أو قسطنطين زريق أو أحمد بهاء الدين.. وغيرهم..

إن الوعى العربى لا بد أن يدرك أن ما بقى لنا - تكتيكيا - هو استمرار

بقاء تراكم الوعى الثقافى بضرورة الوحدة العربية (الوعى الوطنى قائم وراسخ وهو من شروط الوعى القومى)..

ثالثًا ـ حاجتنا الماسة إلى سياسيين واعين لطبيعة المرحلة والعمل لها بشكل عملى وحتمى وضرورى.

فكما يجب أن يكون المثقف العربى واعيًا - بحق - إلى ضرورة تأكيد الثقافة العربية) والعمل لها، كذلك، نظل فى حاجة إلى السياسى العربى الذى يسعى إلى الإيمان بتحويل الوعى العام - الثقافى - إلى سياسى منطلقًا - كما هو الوعى عند المثقف - من أن الوحدة العربية لا بد منها فى هذا العالم الذى يحتاج لتعيش فيه الأمم أن تتضام فى وحدة سياسية، فالوحدة السياسية هى وحدها البديل لهذا الفضاء الذى نحيا فيه مفككين بغير أمل فى مستقبل مشرق.

رابعًا: حاجتنا الماسة إلى اقتصاديين واعين بشرط العيش فى هذا العالم، فالاقتصاديون أنفسهم من هذه النخب الذين وعوا أن التفكك يعنى التدهور، والتوحد يعنى التقدم، وبالتبعية، فإن العرب لا بد أن يتكاملوا اقتصاديًّا، كما يجب أن يتقاربوا سياسيًّا فى إطار ثقافى سياسى وليس بالعنف بأية حال؛ لأنه فى عصر العولمة أو الكوكبة فإن البلد الذى يقل عدد سكانه عن مائة مليون لن يكون له وجود على حد تعبير البعض.. فلو نظرنا إلى الدول المرشحة لتكون دولاً عظمى فى الفترة القادمة من عالمنا الثالث فسوف نلاحظ - على سبيل المثال - البرازيل وعدد سكانها مائة مليون وسوف يصل إلى مليار.. وغير هذه الدول كثير مما يعنى أن التوحد السياسى والاقتصادى إنما هو شرط للبقاء فى عالم اليوم..

خامسًا: لا بد أن تتنبه التيارات الفكرية والسياسية التى يموج بها العالم العربى اليوم إلى أنه لا مكان لأى منها بالعمل المنفرد لهذا الوعى الثقافى،

وكفانا غضب الليبراليين من تجربة المد القومى فى الخمسينيات والستينيات، وكفانا غضب الإسلاميين من موقف الأنظمة العربية منها فى القرن الماضى، ثم كفانا لوم بقايا اليساريين ممن رأوا أن التوجه الميثولوجى أو الأيديولوجى لا فائدة منه..

لا بد أن نعى أن المصير واحد لا يستهدف فريق دون فريق.

ولا نعنى هنا أننا نلوم هذا التيار أو ذاك، أو نعود لنلوم عبد الناصر ـ على سبيل المثال - الذى تبنى الفكر الاشتراكى فى فترة، والاشتراكية اللينينة فى فترة أخرى، ثم صنع التيار القومى ليكون الحلم القومى..

يجب أن يكون هناك تصالح بين التيارات الفكرية، فلم يعد هناك وقت أو فرصة للتمهل أمام عنت الغرب وعنفه الشديد.. وعلى المستوى الشخصى يجب أن نكف عن لوم للتجربة القومية فى جناحها الناصرى أو البعثى.. وإنما يجب أن نستفيد بالتجارب السابقة للممارسات الثقافية الواعية، ويجب ألا ننسى أن الرئيس الأمريكى الذى كان على رأس الإدارة الأمريكية فى الستينات حين يأس من «تجربة» عبد الناصر، دفع بإسرائيل لتصنع هزيمة أصابت الوعى العربى وكوادره من النخب الثقافية والسياسية بدوار ما زلنا نعانى منه حتى الآن..

سادسًا: فى زمن التوغل فى الوعى العربى وتصاعد تيار السقوط السياسى أو الثقافى لا بد من أن نستعيد الافكار القومية الواعية للرئيس عبد الناصر، فبعد مرور أكثر من ثلث قرن على رحيله، ما زالت التجربة أمامنا يمكن أن تكفينا السقوط بشكل مستمر فى عديد من الأخطاء، ويكفى أن المد القومى فى عهد عبد الناصر كان يرى فى الوحدة العربية سدًّا منيعًا وحيدًا ضد تنفيذ «إستراتيجية» الإمبريالية الغربية وخنجرها المشرع، ومهما يكن، فإن «القوة..» تظل الدرس الوحيد والباقى للحصول على حقوقنا فما

أخذ بالقوة، لا يُسترد إلا بالقوة وهى عبارة من ادبيات الفترة الناصرية مازالت صالحة للعمل على البقاء والحصول على ما ضاع منا.. والقوة هنا لها شروط، أولها، الوعى بطبيعة «الإعداد» بالتعاون العربى والآية الكريمة ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ أصبحت من البدهيات التى نسيناها فى زمن التوغل الغربى وصفقاته اليوم.

سابعًا: إعادة النظر فى دور عديد من المؤسسات والجمعيات التى يمكن أن يكون لها رد فعل إيجابى فى عصر الاتصالات وزمن التكنولوجيا الرقمية..

ولسنا فى حاجة لإعادة المكرر من تخلفنا التقنى لنصل إلى ما بعد رقم الخمسين فى هذا المجال، كما أن تخلفنا يمكن رصده فى عديد من ألوان الطيف فى عالم صناعة الأجهزة الرقمية ورقاقاتها، فالثورة التكنولوجية التى تستمر فى تصاعدها بشكل مذهل لا تطولنا فى وقت يمتلك أعداؤنا منها الكثير..

* * *

بقى أن نكرر فى زمن الردة القومية أن عبد الناصر لا يزال هو الوجه الباقى من زمن رفع رأسك يا أخى نحن نضيف أيضا أنه فى عهد الاستعمار والعولمة باق لم يذهب بعد، ولم يذب فى بوتقة العولمة والإمبريالية الشرسة فى ذروة صعودها.

لم يبق ـ أيها السادة ـ غير «ثقافة القومية» العربية، بعد أن كاد يغيب وهجها السياسى.

فى حضور عبد الناصر فى ذكراه وغياب الوعى القومى لا نعرف الآن غير ميليودراما هذا الواقع التعس الردىء.

لا أعرف حقيقة هذه القصة التى تروى عن عرب الأندلس قبل أن تنتهى دولة العرب هناك، فقد كان ـ والقصة تروى فى أكثر من موضع ـ علماء الشريعة هناك يتناحرون حول كم من الملائكة يستطيع الوقوف على رأس دبوس فى حين كان الأعداء على الأبواب واقفين.. أو منتظرين.

وهذه القصة (إن وجدت نظائر لها فى بعض الآداب الأخرى كما عرفنا لدى أهل بيزنطة) تعاودنى كثيرًا منذ زمن بعيد، فإن من يتابع مثلى «كل» مصادر الأخبار و«أغلب» ما يكتب فى أنحاء المعمورة، يرتد به البصر إلى واقعنا المعاصر فى بدايات هذه الألفية، فلا يملك غير الربط بين أهل هذه المدن هناك وبيننا هنا، فالقضايا الوهمية تتزايد والخلافات القائمة على الغرض والمصلحة تتجدد فى وقت يكاد قانون الفناء فيه يعصف بنا كلية..

ليست هذه مقدمة متشائمة، وإنما هى تحصيل حاصل لما يحدث لنا وبنا فى هذه الفترة البائسة من تاريخنا العربى المعاصر.. يتساوى فى هذا كل أفراد هذه المدن التى نحيا فيها من مراكش إلى بنجلاديش أو اهتمامات الاتحادات والمؤسسات والنقابات والتجمعات والجماعات المنظمة أو حتى غير المنظمة، المثقفين فى الجماعات والجنرالات فى المقاهى.

يتساوى فى هذا ما يحدث فى الجامعة العربية أو فى اتحاد الكتاب أو فى نقابة المحامين أو فى الصراع العربى العربى لتنظيم كأس العالم 2010.

لا يعنى هذا ـ وهذه ملاحظة لا بد من تسجيلها قبل الاستطراد ـ أن كل الممثلين فى هذه الهيئات والاتحادات على إطلاقهم يقعون فى أزمة البحث عن عدد الملائكة أو البحث عن أطراف البيضة ـ وإنما هناك بالطبع عدد قليل يعى هذا كله ويحاول أن يشارك بشكل يسعى يكون فيه أكثر إيجابية، ويسعى إلى أن يكون فيه أكثر بعدًا من الأقطاب البعيدة الوهمية عن المركز الواقع ـ

دون جدوى، فالأقلية لاتستطيع أن تفعل شيئًا أمام طوفان العلماء والجنرالات، ثم إنها أقلية نادرة وجودها يؤكد ما يحدث على المستوى الفكري، ثم إن وجودها يؤكد ضلال القاعدة وضياعها على مستوى القاعدة، فهى هناك مازالت تؤكد أن المثقف الأكثر وعيًا ما زال قائمًا، وإن تراجعت شريحته فأصبح غير فعَّال، ثم إنه ما زال قائمًا كالرمز الذى يشير إلى القانون ولا يستطيع تغييره.

المهم أنها قائمة وموجودة غير أن ثلة الحكماء على ندرتهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا.

ومن ثم، يظل قانون القضايا الوهمية قائمًا، ويظل الرمز قائمًا وإن يكن لا يستطيع أن يكون فاعلاً بأية حال..

وهو ما نعود به ثانيًا إلى القاعدة، إلى أمثلة كثيرة لا تنتهى.

* * *

من هذه الأمثلة ـ على سبيل المثال ـ ما بقى من تجمعات عربية تسعى إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه.. وكلنا يذكر اجتماعات وزراء الخارجية العرب فى اجتماعاتهم الأخيرة قبل أسبوع فى القاهرة، حين زادت الخلافات بين الدول العربية بصفة خاصة اقتراح كانت قد تقدمت به اليمن إلى الأمانة للجامعة العربية ويقضى بإرسال قوات دولية إلى العراق تحت إشراف الأمم المتحدة والجامعة العربية وسحب قوات الاحتلال إلى معسكرات خارج المدن العراقية مع وصول القوات الدولية، ويدعو الاقتراح اليمنى إلى تشكيل لجنة ثلاثية من الأمم المتحدة والجامعة العربية وقوات التحالف، إضافة إلى ممثل للمجلس الحاكم فى العراق تتولى وضع خارطة طريق للعراق.

وهو ما لم يذكر فى الاجتماع الوزارى الأخير لتحديد موعد قمة تونس.

إن الذين كانوا قريبين من هذه الاجتماعات حتى اللحظات الأخيرة منذ

أيام قليلة لاحظ أن عديدًا من هذه اللجان التى مثلت اجتماعات الوزراء أكدوا ـ وإن كان بشكل هامس ـ وصفًا للوصول إلى قرار أو تحديد ميعاد للقمة بهذه الصورة (كنا على كف عفريت).

وكنا على كف عفريت هذه تذكرنا بالقصة التى بدأنا بها هذه السطور حين كان علماء الشريعة فى الأندلس يتصارعون ليحددوا كم من الملائكة كانت على رأس دبوس.

ونفهم من التطورات التى حدثت فى الاجتماع أن الوصول ـ فقط ـ لتحديد ميعاد لقمة الجامعة كانت تنتابه كثير من العواصف.. فهناك الطروحات العربية الكثيرة تتنافر، وهناك الاختلافات الكثيرة حول تحديد الوقت ما زالت تبحث عن مرجعية، وهناك اختلافات على طريقة التمثيل لم تحسم، وهناك بيانات لم تعد ـ كادت ألا تعد.. إلخ ـ واشتعلت نيران الفتنة بين القوم بشكل مريع فى هذا الوقت العصيب من تاريخنا.

وتعددت الطروحات وردود الأفعال والإشكالات المتباينة. ومع ذلك أو رغم ذلك يصدر بيان لتحديد ميعاد القمة لا نعرف ماذا سينتهى إليه فى هذه الفترة.

أليس فى هذا أمر مهم يجب الاهتمام به أكثر من أمر العيش بتكاتف واعتداد؟

أليس فى الاختلاف حول الاتفاق على يوم ميمون للانعقاد هدف يجب الاعتداد به؟

أليس فى الاتفاق على «بيان» تام واع أهم من الاتفاق على الأهداف التى تهدد واقعنا؟

ثم هل هناك ما هى العلاقة بين عدد الملائكة ورأس الدبوس؟

* * *

يحدث هذا فى وقت ما زالت تجرى فيه حلقات التعذيب على قدم وساق، خاصة بعد أن انتقل خبراء (جوانتانامو) وعلى رأسهم صاحب السجن الكبير فى كوبا جيفرى ميلر إلى سجن «أبو غريب» ليستعين فيه بخبرته هناك، ويستعيد الكثير من تجارب التعذيب والانتهاكات التى تمارس فى أقصى الغرب.

كان هذا يحدث وما أعلن من مذابح «أبو غريب» أعلن بشكل مخطط ـ لم نتنبه إليه ـ ووراءه عجلة تحرك الرأى العام بشكل يلقى فى تيار «الاستراتيجية» صنعت فى المراكز البحثية قبل أن تقدم للإدارة الامريكية.. إلخ.

يحدث هذا وتتسرب الأخبار من آن لآخر عن «محاكمة صدام» مرة أو عن تسليمه للحكومة العراقية الجديدة مرة أخرى أو عن توكيل محامين له مرة ثالثة.. إلى آخر هذه الاخبار التى تسرب عن وعى وتدبير وليس عن تلقائية وإخبارية.

ثم كان الخلاف فى وقت يصدر فيه قرار الكونجرس عن ارتباط سوريا بأسلحة الدمار الشامل والإرهاب فى وقت تؤيد فيه بريطانيا هذا الرأى، توطئة للتعامل مع سوريا كما هو الحال ـ قبل فترة ـ حين تعاملت الولايات المتحدة مع العراق بنفس القرار ونفس المقدمات التى أدت إلى السيطرة على بلاد الرافدين.. وهو الخلاف الذى يتردد الآن فى الصحف العربية فى الداخل والخارج حول اتفاقية الدفاع المشترك.

ـ هل يتم تشغيل اتفاقية الدفاع العربى المشترك المبرمة بين بلدان العرب فى حال تعرض بلد عربى إلى حرب من جهة خارجية كما تنص بنود تلك الاتفاقية؟

خاصة أنها اشتغلت مرة واحدة إبان حرب الخليج الثانية ولا أحد

يتذكرها منذ ذلك الحين. وماذا يحدث خاصة بعد أن أحل البعض الآن اتفاقيات دفاع مشترك مع دول كبرى؟

كل هذا يدور وصحفنا زاخرة بالمقالات الضافية.

كل هذا يحدث وصحفنا تتحدث عن طموح بلادنا لتكون الدولة المنظمة لنهائيات الفيفا عام 2010 دون تنسيق عربى مصرى ليتضح لنا الوجه القطرى القبيح ودوره فى تشتيت الجهد العربى وتعميق فجوة الخلاف، وكل هذا يحدث ـ أيضًا ـ وطائرات الأباتشى والدبابات الأمريكية تنال من أطفال غزة وشيوخها.

يحدث هذا ونحن نعلم أن ثمة خلافات كثيرة بين اتحادات الكتَّاب ـ وهذه أمثلة فقط ـ تصل فى بعض منه ـ كما يحدث هذه الأيام فى اتحاد الكتاب المصرى ـ إلى الاتهامات بالقذف، ويصل القذف إلى مداه حين يطالب البعض بإقامة قضية «قذف وسب» ضد البعض الآخر فى غيابه.

وتبدأ الاجتماعات ولا تنتهى.

ووسط هذا يلتفت الاتحاد ـ فى مصر ـ إلى دلالة الإعلان الأمريكى، فلا يلبثون فى زخمة اختلافاتهم أن يعلنوا بيانًا ولا يلبثوا أن يعودوا إلى خلافاتهم.

ولأهمية البيان نسجله هنا قبل أن نعاود رصد خلافات الأئمة والملائكة، يقول البيان:

أعلن اتحاد كتَّاب مصر، فى جلسته الطارئة المنعقدة يوم الخميس 13 من مايو 2004، أن ما أعلنه الرئيس الأمريكى بوش من فرض عقوبات على سوريا لزعمه مساندتها للإرهاب أمر مرفوض جملة وتفصيلاً من اتحاد كتَّاب مصر والمثقفين كافة وأهل الفكر.

ويعلن الاتحاد مساندته لدولة سوريا الشقيقة، حيث اتضح زيف

الادعاءات التى سبق أن قدمتها الولايات المتحدة الأمريكية لتبرير احتلالها للعراق، وكذلك هذا الادعاء الجديد والغريب ضد سوريا الذى يدخل فى دائرة اختلاق مبررات واهية لتبرير اعتداءات جديدة ممكن أن توجه إلى دولة لها كامل سيادتها وحريتها، وما ينتج عن ذلك من احتلال وإهانة كرامة الإنسان، فضلاً عما حدث ويحدث فى فلسطين والعراق من مجازر وحشية وانتهاكات علنية لحقوق وكرامة المواطن العربى وللإنسانية جمعاء، الأمر الذى يعد خرقًا للشرعية الدولية وللمواثيق والمبادئ التى أقرتها الأمم المتحدة.

ومن ثم فإنهم يؤكدون رفضهم لهذه العقوبات ويعلنون وقوفهم بجانب الشقيقة سوريا فى تصديها لكل أنواع الضغوط التى تصل إلى حد تهمة الإرهاب الدولى.

ولا يلبث أعضاء الاتحاد أن يعودوا إلى مجادلاتهم وخلافاتهم من جديد.

ويحاول البعض تهدئة الأمور، غير أن إصرار البعض على رأى وإصرار الآخر على رأى آخر مضاد يزيد من تسريع الاجتماعات المتوالية، ويزيد حدة الخلافات حتى نجد أنفسنا فى حلبة علماء الشريعة من جديد

ويعلن استقالة هذا أو ذاك دون الحصول على ثمار الحوار الإيجابى.

يحدث هذا والخلافات تشتجر بين عديد من النقابات وداخلها، ونكتفى بواحد آخر من هذه الأمثلة الوهمية الدلالة على نقص فى الوعى، ونقص فى غياب الخطر القادم إلينا جميعًا.

ففى المؤتمر الصحفى الذى عقد بين جماعة المحامين الناصريين ولجنة الوحدة الوطنية لسان حال المحامين الأقباط لاختلاف الطرفين حول موقفهما من قرارات وسياسة الحكومة المصرية تجاه العراق.

البعض هنا غريب كثير الغرابة، وما نسمعه أو نعرفه فى هذا المؤتمر يعيدنا

إلى هذه المدينة التى كانت على وشك السقوط فى وقت كان علماؤها (أو محاموها) يسعون لتحديد العدد على رأس الدبوس.

إن البعض هنا يتهم الآخر بالعمالة.

والبعض الآخر يرد، فيصر على أن تكون إجابته هى الطرد، طرد الطرف الآخر الذى لم يع خطورة الفترة التى نحياها فسعى إلى الحديث والمطالبة بأشياء تهدد المصير كله، البعض يدافع عن وجهة نظره بإصرار شديد والبعض الآخر يدافع عن وجهة نظره التى ترى أن الطرد هو الأسلوب الوحيد بين عنصرى الأمة.

وتبدأ الضجة ويحصل الهرج والمرج، وحين نصغى أكثر بعد أن يحاول البعض تهدئة الجموع، يتهادى إلينا، من بعيد، صوت علماء الأندلس وهم يختلفون، وهم يراهنون على رأس الدبوس.

(تتوالى علينا، لا تزال، ردود أفعال على ما أثرناه من غياب الوعى العربى فى الفضائيات العربية، وهو ما سنعود إليه مرة أخرى).

تدمير المؤسسات الثقافية العربية

أولاً

نتحدث عن المؤسسات الثقافية هذه المرة وعن المؤسسات الثقافية خاصة فى العراق وفلسطين التى نالت ما نالت من الهدم والتدمير، وما زالت تنال من الهدم والتدمير والإبادة ما يهدد الهوية العربية..

هل قلت الهوية العربية ؟

نعم إنها الهوية التى تميزنا فى هذا العالم المضطرب الذى أصبحت فيه الثقافة هى ثقافة العولمة، وجاءت «عسكرة العولمة» بعد 11 سبتمبر لتزيد المأساة العربية قتامة دامية..

المأساة العربية الدامية: المأساة العربية التى لا تطول هذا القطر أو ذاك، فقد أصبحنا نستمرئ الآن الهجوم على القومية العربية ونكرس له وأصبح فريق منا يدافع عن الأقليات أو الإثنيات المتباينة فى الأقطاب البعيدة دفاعًا مجيدًا دون التنبه إلى نقطة المركز وأهميتها، على المستوى الشخصى عرفت عددًا من المثقفين فى الأقطار العربية يتحدثون عن هذه الأقلية أو تلك على أنها خارج الإطار العربى وليست فى نسيجه بأية حال. قضيت فترة فى الأردن لم إكن أسمع فيها- إبان غزو العراق - غير عبارة «الأردن أولا» وتجولت فى عديد من الأقطار العربية التى كنت أسمع وأعرف مثل هذه

المقولة التى تدمينى حتى وجدت نفسى فى مصر فى مثل هذه الأيام وأنا أسمع العبارة اللعينة «مصر أولا»، ثم يؤكد هذا الأمر البشع ويكرس له الهيمنة الأمريكية السافرة..

ومع ذلك أو رغم هذا فأنا حزين أكثر لدمار مؤسساتنا الثقافية فى العراق وفلسطين بشكل يجب أن نتنبه له قبل أن نتحول إلى «الهنود السمر» فى عصر الهيمنة الأمريكية. ومن هنا فإن ألمى الشديد الألم الذى يدمينى دائمًا ما يحدث فى هذه الأقطار العربية التى تعرف الاستعمار كما هو الآن فى العراق. لقد انتهى الاستعمار فى العالم كله ـ وما زال عندنا ـ وكما تعرف الاستيطان فى فلسطين (لقد انتهى الاستيطان الاستعمارى فى العالم كله وما زال عندنا) كما ما زالت تعرف الأقليات أو الطائفية (لقد انتهى مثل هذه العنصرية فى العالم كله وما زالت عندنا)..

إن الهيمنة والإبادة تهدد الهوية العربية الآن بغير هوادة قط..

بيد أننا نريد أن نلفت النظر قبل أن نستطرد أكثر إلى بدهية، هى أن غياب المؤسسات الثقافية فى العراق أو فلسطين بحكم الإبادة والتخريب لا ينفصل بشكل أكيد عن مصير المؤسسات العربية فى شتى الأقطار..

وهو ما يحتاج لتفصيل أكثر، وخاص، سنصل إليه فى موضعه فيما بعد..

فلنتوقف عند الواقع قبل أن نرى كيف نخرج منه هنا..

الواقع العراقى الآن يشير إلى غياب هذه المؤسسات فى ظل العنف الغربى والعجز العربى..

قد كانت الهجمة الإمبريالية على العراق تشير إلى تفكيك الكيان العراقى، ومن ثم الهوية العربية، وإنهاء بقايا التماسك العربى فى عصر حضارة الماك ووسائل الهيمنة، والإ ماذا يقال عما جرى إبان اجتياح العراق

من سلب ونهب وتدمير وإبادة لكل المؤسسات العراقية والثقافية خاصة «عدا وزارة النفط..»..!!!

ماذا يعنى تدمير وحرق المتاحف الوطنية ودور الوثائق والمخطوطات والجامعات والمكتبات الرسمية ودور النشر والمراكز العلمية والمؤسسات الثقافية..

ماذا يعنى تدمير الأرشيفات والمتاحف التاريخية البابلية والأشورية والسومرية والعربية؟ ماذا يعنى إكتشاف كل يوم مئات وآلاف من القطع الأثرية القديمة خارج المنطقة مهربة أو مغيبة حتى الآن؟

أن النداء لإنقاذ الهوية العربية جاء من الداخل.. من داخل أبناء العراق الشاهدين المتألمين لما حدث.

ففى مناشدة لهم عبر الإنترنت مؤيدين فى ذلك النداء الذى وجهه رئيس وأساتذة جامعة الموصل يوم الجمعة الحادى عشر من إبريل الماضى، وهو ما تكرر كثيرًا،... حينما نهبت كافة الممتلكات العلمية والفنية والإدارية من جامعة الموصل من قبل قوى وعناصر هجمت على المدينة من خارجها.. كما نهبت جامعتا البصرة وبغداد، ومتحف بغداد والمعاهد والمكتبات العامة فى كل (كل) أنحاء العراق. وأشارت المناشدة إلى أن نهب الجامعات والمؤسسات الثقافية والمتاحف والمكتبات، لا يعنى افتقاد الأمن فقط إنما يعنى أن هذه المؤسسات الخادمة للفكر والعلم قد أصبحت ضمن اللعبة العسكرية والاحتلال.

وأكدوا فى هذا الصدد أن المستهدف هو التعليم والتفكير الناضج والتراث التاريخى لأى موقع فى العراق، مشيرين إلى أن ما حدث هو ذات الفعلة البربرية التى قام بها هولاكو قبل ثمانية قرون يوم هاجم بغداد فاختلط دم الناس فيها بحبر كتبهم العلمية فى ماء دجلة.

وطالبوا بتحميل المسئولية القانونية والدولية لقيادة قوات التحالف بالتعويض المعنوى والمادى للجامعات والمؤسسات الثقافية العراقية إلتى نهبت وسلبت من عناصر غوغائية دفعت إلى هذا ودافع عنها كل الناطقين والإعلاميين لقوات التحالف.

كما وجهوا الدعوة إلى اتحادات المحامين المحلية والدولية وكافة المنظمات المهتمة بالشأن الثقافى والحقوقى بالعمل فى تنظيم مقاضاة قانونية واسعة النطاق وتحديد المسئولية وتكاليفها عن كل ما جرى من أعمال شغب غير طبيعية.

وما يهمنا الآن ليس تحميل الراى العام المسئولية وأنما تحميل أنفسنا أولاً لما يحدث لنا وما يراد بنا وإن كان لهذا حديث آخر، فالصور تكررت وما زالت تتكرر أمام أعيننا.. لننظر ما حدث لأهلنا فى فلسطين من إبادة المؤسسات الفلسطينية بشكل عمد (إبادة الهوية العربية).

فخلال عمليات الاجتياح الإسرائيلية المتكررة لمناطق السلطة الوطنية الفلسطينية، التى انتهت باحتلال كامل لهذه المناطق لم تسلم المؤسسات الثقافية الفلسطينية الرسمية والشعبية من العبث والتخريب والتدمير، بل كانت هذه المؤسسات الثقافية والتاريخية التى تمثل الذاكرة الهوية العربية فى مقدمة ما سعى إلى تدميره الصهاينة... وبالرغم من ادعاءات المسئولين الإسرائيليين المتكررة عن المستوى الحضارى المتقدم لجيشهم، فإن الوقائع على الأرض كانت تقول غير ذلك تمامًا. الذين زاروا مقر وزارة الثقافة فى رام الله بعد الاجتياح الإسرائيلى الأول أواخر آذار الماضي، رأوا رأى العين كيف تحول المقر إلى حظيرة أبقار مليئة بالعفونة والنفايات، لأن جيش الاحتلال اتخذ من مقر الوزارة مهجعًا لجنوده المتحضرين. ؟ وما يقال عن

هذا يقال حين تعرضت مؤسسات ثقافية أخرى كثيرة للنهب والتخريب والتدمير بالرغم من كل الإدعاءات.

ذلك أن سلطات الاحتلال، وهى تمعن فى تدمير البنية التحتية للمجتمع الفلسطينى بمختلف مكوناته كانت تعى تمامًا هدفها المتمثل فى القضاء على الكيانية الفلسطينية، وعلى أية إمكانية لتعزيز انبعاث الشعب الفلسطينى وممارسته لسيادته الوطنية على أرضه المحررة.

ولما كانت الثقافة الوطنية الفلسطينية من أهم مكونات الهوية الفلسطينية، ومن أبرز الدعامات التى تبنى الروح وتؤسس لطموحها ولقوتها ولقدرتها على المقاومة والبقاء، فقد كان استهداف الغزو الإسرائيلى للمؤسسات الثقافية الفلسطينية مقصودًا ومخططًا له ولم يكن وليد نزوات عابرة، أو تصرفات فردية لجنود منفلتين من إطار الرقابة والانضباط.

لقد ارتبك أداء المؤسسات الثقافية بسبب عمليات الاجتياح المتكررة، وبفعل الاحتلال الجديد. وأسهمت إجراءات الحصار، وحظر التجوال المفروضة على المدن لفترات طويلة، وكذلك سوء الأحوال الاقتصادية وانعدام فرص العمل فى عزل الناس عن الأنشطة الثقافية التى ما زالت تقدمها بعض المؤسسات الثقافية الفلسطينية، ولم تتمكن بعض المجلات الثقافية والسياسية، ومنها «صوت الوطن»، من الانتظام فى الصدور، بسبب التعقيدات الناشئة عن إعادة احتلال مناطق السلطة الوطنية وصعوبات التوزيع الناتجة عن تقطيع أوصال البلاد وعزل المدن عن بعضها بعضًا. وتوقفت الصحف والمجلات العربية والكتب القادمة من الخارج وبالذات من مصر والأردن عدة أشهر عن الدخول إلى مناطق السلطة الوطنية، بسبب إجراءات الاحتلال وما زالت شحنة كتب كبيرة مرسلة من عمان إلى

دار الشروق فى رام الله عالقة على الجسر ممنوعة من الدخول إلى رام الله بحجة أن بينها كتبا تحرض ضد الاحتلال!

ولدى تأكيدات أن قوات الاحتلال الصهيونى تحظر دخول أى كتاب أو منظومة ثقافية - أى رمز ثقافى، والعابر على الحدود يروع من كم الكتب وأدوات الثقافة الإليكترونية وغيرها مما يكرس بالإيجاب للذاكرة العربية، وهى ملقاة على الجسور والمعابر، نقاط الحدود..

أليس هذا تدميرًا وإبادة صريحين للهوية العربية فى فلسطين؟

أليس ذلك ما يدفعنا للسؤال ما العمل؟

ترى ما هو مستقبل المؤسسات والدوائر الثقافية العربية؟

ترى ما هو مستقبل الـ..؟

ثانيا

.. كنا قد أشرنا إلى «حالة» المؤسسات الثقافية العربية خاصة، والمؤسسات الثقافية فى الكويت وفلسطين بشكل أخص، وهو ما دفعنا لنطرح السؤال المهم:

ما هو مستقبل المؤسسات الثقافية العربية ؟

ولنعد فنتمهل عند مثال عراق ما بعد صدام بعد التغييرات الكثيرة فى البنية الثقافية هناك، وهو ما يطرح علينا أسئلة دالة: هل ستبقى وزارة الثقافة مثلما كانت عليه فى الماضى أم هناك صيغة هيكلية مقترحة لإعادة بناء وتنظيم وهيكلة المؤسسات الثقافية الرسمية؟ وما هو مصير الاتحادات والروابط والنقابات الثقافية مثل اتحاد الأدباء ونقابة الفنانين وجمعية الفنانين التشكيليين وغيرها، وهى مؤسسات غير رسمية لكنها كانت تتلقى الدعم

المالى والمعنوى من وزارة الثقافة وجهات أخرى ومن هى الجهة أو الجهات التى ستقوم بدعمها ورعايتها مستقبلاً؟

هذه الأسئلة وغيرها ما زالت تدور فى أذهان الأدباء والفنانين والمثقفين العراقيين- ويسعى للإجابة عن بعضها الآن وزير الثقافة العراقى مفيد الجزائرى.. وهم لم يجدوا حتى الآن إجابة واضحة عنها- رغم ما نسمع من آن لآخر من بعض التصريحات أو الجهود القليلة - حتى ليبدو الشأن الثقافى مهملاً أو ثانويًا من قبل سلطة الأحتلال وحتى من قبل مجلس الوزراء المعين أو المنظمات الثقافية التابعة لمركز الأمم المتحدة فى العراق، مثل اليونسكو أو تلك الدوائر المرتبطة بمنسق الثقافة فى العراق السيد كوردونى الإيطالى الجنسية.

لقد كان الأدباء والفنانون العراقيون يأملون فى إيجاد صيغ غير بيروقراطية للمؤسسات الثقافية المختلفة التى كانت ترتبط بوزارة الثقافة تمنحها حرية أكبر فى التخطيط والتحرك والتنفيذ. ولذا فقد طرحت بعض الاقتراحات العملية فى هذا المجال. ثمة دعوات نشرت فى عدد من الصحف المحلية تشير إلى اعتماد صيغة المجلس الأعلى للثقافة بوصفها إطارًا تنظيميًّا مرنًا للمؤسسات الثقافية، وهى صيغة معتمدة فى عدد من البلدان العربية مثل مصر والكويت. وقد لاحظت - على المستوى الشخصى - عددًا من الخبراء والمستشارين العراقيين الذين يعملون فى مكتب منسق الثقافة السيد كوردونى، مؤكدين وجود رغبة للأخذ بمقترح تشكيل مجلس أعلى للثقافة، إلا أن خبراء آخرين فى مكتب كوردونى ـ كما يبدو ـ يبحثون عن صيغ تنظيمية أخرى.

وبسبب غياب تصور واضح لما يمكن أن تكون عليه المؤسسات الثقافية فى المستقبل تبدو الثقافة شبه مشلولة ومهملة، فالموازنة المالية التى غطت الفترة الأخيرة أهملت أية إشارة لدعم المؤسسات الثقافية فى المستقبل.

كما أن مكتب منسق الثقافة كان يشكو من عدم وجود تخصيصات مالية كافية لدعم الأنشطة الثقافية والمؤسسات والدوائر التابعة لـوزارة الثقافـة، أو تلك الاتحادات الثقافية المستقلة التى هى أحوج ما تكون إلى الدعم والرعاية لتكون قادرة على استعادة نشاطها والإسهام فى التنمية الثقافية الشاملة، إذ حاول اتحاد الأدباء فى العراق مثلاً الحصول على دعم لبعض نشاطات الاتحاد الثقافية، ومنها إقامة مهرجان الجواهرى الأول واتصل الاتحاد بمكتب اليونسكو فى العراق ومكتب منسق الثقافة فى العراق؛ لأن مثل هذا الدعم يحتاج إلى تخصيصات مالية كبيرة، وهى غير متوافرة حاليًّا، ولذا فإن دعمًا كهذا قد يضمن مستقبلاً ضمن «أجندة» هذه المنظمات فى المستقبل.

وعلى هذا النحو، فالحياة الثقافية تعانى من أنها لا تجد من يمد لها يد المساعدة، كما أن مجلس الوزراء المعين القديم أو الجديد - لم يطرح حتى هذه اللحظة أية خطة مقترحة لتحريك عجلة المؤسسات الثقافية المعطلة أو المخربة.

إن وضعًا كهذا بدأ يثير حالة من الإحباط والاستياء لدى عدد كبير من المثقفين والأدباء والفنانين العراقيين الذين يتطلعون إلى الاضطلاع بدور أكبر فى إدارة المؤسسات والاتحادات الثقافية والفنية، وفى الوقت ذاته للإسهام الفاعل والمؤثر فى رسم السياسة الثقافية العراقية، بل ومستقبل العراق السياسى والاجتماعى، وهم يشعرون بالأسى لمحاولة تهميش دور المثقفين والثقافة فى هذه المرحلة الانتقالية الدقيقة ويطالبون بحضور أكبر للمثقفين فى جميع الميادين.

وما يقال عن المؤسسات الثقافية المدمرة فى العراق، يقال عن مثيلتها فى فلسطين ويقال - وإن يكن بشكل مغاير - عن المؤسسات الثقافية فى عديد من الأقطار العربية.

إن تحويل المؤسسات الثقافية إلى جزء من مؤسسات المجتمع المدنى يساعد إلى حد كبير فى تعميق الصفة الديمقراطية لهذه المؤسسات، ويبعدها عن شبح البيروقراطية والمركزية ويحررها من سلطة القرار الواحد.

لقد حان الوقت للخروج من هذا الصمت، إزاء المؤسسات الثقافية والشروع فورًا فى إعادة الحياة لهذه المؤسسات وطرح صورة واضحة للسياسة الثقافية فى عراق الغد.

وهو ما يصل بنا إلى . بواعث اكثر.للدور الغائب.

إن الإحاطة بالسياسة الثقافية للمؤسسات الثقافية والأدبية الوطنية تقتضى الاهتمام التاريخى والحضارى للجماعة الوطنية ودورها فى المحيطين العربى والإسلامي، ومن الأهمية بمكان بيان فلسفة العمل الثقافى والأدبى الذى تقوم به هذه المؤسسات وأشكال التلاقى الذى تحدثه بين التاريخ والثقافة والمجتمع.

وفى إطار السياسة الثقافية ينبغى الاهتمام بالأدوات الثقافية المعبرة عن السياسة الثقافية لهذه المؤسسات الوطنية. وتعرف السياسةِ الثقافية بأنها: نسق من الغايات والأهداف التى تعتمد وسائل وأدوات، تقرها مجموعة معينة وتـــقوم على تنفيذ ذلك سلطة ما فى ميدان الثقافة.

وهذا يعنى أن السياسة الثقافية لهذه المؤسسات هى تعبير متواصل عن الكثافة التاريخية والرمزية للجماعة الوطنية، وأن المؤسسات الثقافية ينبغى لها الإحاطة بالعمق الحضارى والتاريخى للوطن، حتى يتسنى لها إبداع أساليب وأطر ثقافية ـ إجتماعية تعكس ذلك العمق فى الحقبة الراهنة، وبهذا تكون الثقافة الوطنية المعاصرة على علاقة مباشرة بالتاريخ الوطنى للمجتمع.

وفى هذا الإطار يقوم إصرار المؤسسات الثقافية على تنمية روح البحث

لدى أبنائها ومريديها، والمقصود من البحث هو الفحص العلمى المنظم فى سبيل التدقيق فى فكرة ما أو لاكتشاف معرفة جديدة.

وبالإسهام النوعى فى تطوير الثقافة الوطنية تسجل المؤسسات الثقافية إخلاصها لمبادئها ووفائها الكامل للقيم والأهداف التى تلتزم بها، وهى إنما تؤكد فى ذلك ارتباطها الديناميكى بمحيطها ومجتمعها.

وإذا كان اكتناز المشروع الذاتى أمرًا مطلوبًا فى البدء، فما ذلك إلا مقدمات تسمح لهذه المؤسسات أن تكون اكثر قدرة وفعلاً وأثرًا. أما أن تكتفى هذه المؤسسات بالجانب الذاتى من مشروعها، فهى تضع نفسها إذ ذاك خارج الناس وعلى هامش حياتهم وتطلعاتهم، فتستحيل فى أحسن الأحوال إلى بيت علم وجدل لا مركز إشعاع ومصدر للفكر والمعرفة. لكن هذه المؤسسات ليست صومعة تأمل ترقب الحياة من عل، وإنما هى وعى الناس فى أكمل صوره الممكنة تعمق معنى وجودهم وتشدهم نحو الأفق الأرحب.

* * *

على أنه عبور فوق هذا الواقع المرير والدور الغائب، لا بد من الإشارة لملاحظات أو توصيات عامة:

- التنبه إلى أن تدمير الخصوصيات والمؤسسات الثقافية إنما هو تدمير وإبادة «للهوية العربية» والتنبيه داخل المؤسسات الثقافية فى شتى الأقطار العربية إلى هذا الخطر ثم السعى إلى التعاون على مستوى هذه المؤسسات لدرء مثل هذا الخطر.

- وضع «خطة» لمواجهة هذا الخطر وليكن عبر هذه الاتحادات التى تدور هذه الأيام.

- يمكن «تشكيل» لجنة هنا لمتابعة ما يحدث على المستوى الثقافى والمعرفى لهذه اللجنة.

- يكون العمل من خلال الجماهير وليس المثقفين فقط.

- أيضًا يجب الإفادة من القدرات العربية المتاحة كالجامعة العربية والمنظمة العربية للتعليم والثقافة.. إلخ.

- ثم نرجو أن يكون الاهتمام واعيًا لدور المؤسسات والجمعيات الاهلية أيضًا، والإفادة منها.

وفى هذا يجب أن نكون واعين إلى أن المؤسسات الثقافية تتصل بالمؤسسات السياسية، ومن ثم فإن التعاون يكون متصلاً بين الثقافى والسياسى والاجتماعى.

وهو ما يخرج بنا من دور المؤسسات التى تتعرض للإبادة فى الأقطار العربية المحتلة إلى خارجها.

إلى المؤسسات الثقافية العربية داخل أقطارنا العربية التى لا تجد العناية الكافية بها أو بدورها..

وهو ما لا يحتاج لتذكيرنا ثانيًا، أن تدمير المؤسسات الثقافية أو إهمالها إنما هو تدمير للهوية العربية..

ثورة يوليو: بين سوء الفهم، و.. سوء النية

ربما كان أكثر مايؤلمنى - ونحن نشهد الأحداث الميليودرامية المفجعة فى العراق الآن - أن كثيرًا من كتابنا الفضلاء - رغم كل ما حدث - ما زالوا يرون الواقع بمنظار آخر، أو يرون الأحداث المعاصرة بأثر رجعى ليس له علاقة بهذا الحاضر، اللهم بما يحاول البعض البرهنة عليه بما يتنافى مع الواقع

أو يرسخ باليقين فى ضمير التاريخ.. وهو ما يحدث بسوء فهم أو سوء نية وكا هما واحد.

أقول هذا بمناسبة ما أقرأه عن - وفى - ثورة يوليو فى شهر يوليو فى إعلامنا..

بل أضيف إلى هذا أن أكثر ما يؤلمنى - وأستخدم ضمير المتكلم هنا عمدًا - أن يجد المرء نفسه مضطرًا ليردد ما سبق أن أكده من قبل بكل البراهين من العقل المجرد إلى الوثيقة، دون أن يجد أمامه من يقتنع أو يعرف حقيقة ما يدعو إليه..

أما من لا يقتنع بوجهة نظر صائبة دون أن يبذل أى جهد لتصديقها؛ لأنه لا يريد غير ما تكلس فى رأسه، أنا هنا لا أقصده.

- وإنما قصدت من يتخذ موقفا مسبقًا دون أن يبذل جهدًا للتعرف عليه بوعى علمى أو وجهة نظر محايدة..

إنه سوء الفهم إذن

- أو من يتخذ موقفًا طارئًا أو متحولاً، فإذا به يقلب الحقائق إلى نقيضها، ويزعم- فى اعتراف يريد أن ينتزع به الشفقة:

ـ إنها سوء النية إذن!

إن هذا النمط الأخير خاصة - المتحول - نجده فى هذه الحقبة الأخيرة فى مصر تحت مسميات عدة يعرفها القارئ الفطن والمثقف اللبيب، فهذا المثقف المتحول - نعرفه فى كثير من المواقف والصور - فنعجب أول الأمر ثم يتحول عجبنا ودهشتنا إلى هز رءوسنا والإنصراف عنه.

وهو ما يعود بنا إلى صاحب سوء الفهم، الذى يكرر ما يسمعه دون أن يتأنى ليتحقق منه..

وهذا النمط الأخير من سوء الفهم هو ما يهمنا الآن.

هذا النمط الاخير، ما قصدته هنا (فلا فارق بين صاحب سوء الفهم.. وسوء النية)، فلدينا الكثيرون، وأنا أعرفهم بالفعل - ومن جميع الفئات - الذين يحملون أفكارًا خاطئة، ولا يبذلون جهدًا - أى جهد - للوصول إلى صوابها..

وهذا النمط أتألم منه وأرثى له، فهذا المفهوم هو الذى يرفضه العقل السليم خاصة إذا كان هذا العقل ينتمى - إلى فئة المتعلمين، أو أولئك الذين نطلق عليه المثقفين..

وهنا، فنحن أمام أفكار كثيرة خاطئة، وأحكام أكثر تلقى دون أن يسعى صاحبها باريحية للوصول إلى حقيقتها، ودون أن يحكم على الحاضر بوعى من حركة التاريخ، فنحن نفترض فى هذه الفئة - المتعلمة والمثقفة - الوعى، فإذا انتفى الوعى أصبح صاحبه ينتمى بالفعل إلى النمط الأول، الذى لا يعرف ولا يريد أن يعرف؛ لأنه يحمل وجهة نظر مخالفة لما يريد أن أراه.

هل أطلت فى هذه المقدمة؟

.....

.....

أعتذر مسبقًا للقارئ الكريم، لكنى أستطرد لأضرب أمثلة لهذا الرجل المتعلم أو المثقف أو الواعى، والذى لا يحمل أحقادا عائلية وتاريخية والذى يسعى (كمواطن) ليعرف الحقيقة.

لنضرب أمثلة للبحث عن الحقيقة الغائبة، فى ثورة يوليو فى شهر يوليو ربما كان المثال - وبين أيدينا أمثلة كثيرة - ونحن فى شهر يوليو - ما يردد هنا وهناك بخطأ الثورة فى تأميم قناة السويس، ونفاجأ بالسؤال الذى يطرح -

ونفترض حسن النية فى المواطن المتعلم «ماذا لو لم تقم الثورة بتأميم قناة السويس سنة 1956 وكانت القناة ستستردها مصر عام 1969، وبذلك لم يكن العدوان الثلاثى قد وقع على مصر و...»، ونعجب أن الكاتب ينهى ما بدأه برفض وغفلة الثورة، بل بجهل قادتها، الأكثر من هذا يتهم زعيمها فى هذا الوقت بالديكتاتورية، لأن القرار، قرار تأميم القناة، كان «يملكه فرد واحد»..

وهذا الرأى - ونعود لتكرار ما قلناه آنفا - وأكررها - مع هذا الرجل المتعلم أو المثقف الذى يفترض فيه أنه واع بما يحدث حوله.. هذا الراى الخاطئ - فضله عما فيه من خطأ تبرهن عليه الوثائق البريطانية نفسها، تؤكد لنا غفلة كتابنا ومثقفينا عن الواقع الذى نعيش فيه، سواء أكان هذا الواقع ماضيًا انتهينا إليه أو كان هذا الواقع مستقبلاً نفكر فيه بهذه الكيفية.

إن البرهنة على خطأ هذا الرأى وخلطه يعيدنا إلى الطرف الآخر مباشرة، كما نقول، لن نحتاج للحديث عن تأميم قناة السويس فنقول إنه تم لعدم وجود دراسة أو لوجود «قرار يملكه فرد واحد»، ولكننا.. وإنما سنقول، لنبرهن على هذا كله أن الإنجليز لم يكونوا ليخرجوا من القناة التى كانت الاتفاقية المبرمة معهم تؤكد أن مصر كانت ستستردها عام 1969..

الوثائق البريطانية تؤكد العكس من هذا تمامًا.

لا يا سيدى، ولا أيها السادة، وألف لا، الإنجليز لم يكونوا ليتركوا قناة السويس فى الميعاد الموثق فى الاتفاقية معهم عام 1969 أو بعدها.

ولا أيها السادة، فقد سبق تأميم القناة دراسات ضافية طلبها عبد الناصر من متخصصين وعاملين فى القناة وخارجها لفترة ليست بالقصيرة..

ولا أيها السادة، فنحن نرفض أحكامكم المتسرعة، الطائشة، فى قضايا لا

تخص الماضى فقط، وإنما تخص الحاضر الذى هو حاضر الآن نعبث به بدون فهم أو وعى أو إمعان..

إن من يعود إلى الوثائق البريطانية (وهى بين أيدينا) يستطيع أن يتأكد أن الإنجليز لم يكونوا مستعدين لترك قناة السويس بأية حال، خاصة بعد انتهاء الامتياز الذى حصلت عليه من الحكومة المصرية قرب نهاية الستينيات، إذ يكثر فى هذه الوثائق التعبير عن ضرورة «التدويل» للقناة بعد الفترة المسموح بها سياسيًّا، كما يتردد الكثير من التصريحات السرية عبر المراسلات الخاصة بأنه يمكن فصل قناة السويس عن مصر نهائيا..

الوثائق البريطانية تؤكد أن إنجلترا لم تكن لتترك قناة السويس تحت أية ذريعة وتحت أية معاهدة قط، وكاتب هذه السطور ينشر هذه الوثائق البريطانية فى الأيام القادمة..

نعود لنكرر أن حديثنا هنا والآن، إلى الرجل المتعلم أو المثقف أو الواعى، والذى لا يحمل أحقادًا عائلية وتاريخية والذى يسعى (كمواطن) ليعرف الحقيقة، أما هذا الذى يحمل سوء الفهم أو سوء النية فلا نوجه إليه هذا الحديث الآن..

ارحمونا أيها السادة من الغفلة التى تعيشون فيها، قبل أن يمزق أعداء التاريخ والإنسان وعينا وحضارتنا والحقيقة التاريخية.

ارحمونا أيها السادة ونحن نشهد عاصمة الخلافة يراد لها أن تتحول إلى كيانات فيدرالية أو غير فيدرالية بقصد غياب الأمة.

ارحمونا أيها الكتبة (لا الكتّاب) من إلقاء الكلام على عواهنه، وإصدار الأحكام بغير روية، فى زمن تغيب فيه عاصمة الخلافة الإسلامية فى بغداد، وتغيب معها الوثائق والحقائق والوعى اليتيم، وهو كل ما تبقى لنا فى هذا الزمن الردىء.

* * *

.. ما زالت تتوالى علينا رسائل كثيرة عن غياب وثائق القدس فى قبر نظارة الأوقاف، وكلها تسأل لماذا لم يتحرك أحد فى هذه «النظارة» للرد لإنقاذ «الوثائق على القدس..؟ لماذا؟ ولماذا تغيب الوثائق الخاصة بالأوقاف الأهلية والخيرية واخفائها - فى تعبير عميد بالمعاش محمد أبو البركات جلال فى رسالة مؤسية -.. فى جب وزارة الأوقاف وإنكارها حتى تتصرف الوزارة فى كل ما لديها تصرف من لا يملك لمن لا يستحق ولا محاسب؟

هل هو سوء فهم أم سوء نية..أم.. ؟

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

عن 'فساد' المؤسسات الثقافية

هل هناك فارق بين الإبادة والفساد.. ؟

هذا سؤال نطرحه بشكل آخر.

فى المرة السابقة أضفنا إلى المؤسسات الثقافية مفهوم «إبادة»، وعدنا هذه المرة لنستبدل بمفهوم إبادة مفهوم «فساد».. لماذا؟

الإجابة التلقائية أن الإبادة بالنسبة للمؤسسات العربية فى كل من العراق وفلسطين تمضى فى إطار سعى الغرب - الأمريكى أو الصهيونى - للعمل بدأب من أجل إبادة الهوية العربية.

إنه سعى الغرب لإبادة «الحضارة» العربية والإسلامية، وهذا كله معروف ومألوف بغير ادعاء نظرية المؤامرة، وقد رأينا كيف أن الأحداث التى تدور حولنا وضدنا لا يعوزها نظرية المؤامرة أبدًا لهول الباعث الداخلى فيها.

غير أن مفهوم الإبادة الآن فى الداخل العربى - فى بقية أقطارنا - يمكن أن يضاف إليه أو يستبدل به - بدقة أكثر - مفهوم الفساد.

الإبادة فى الخارج.

والفساد فى الداخل.

غير أن هذا كله يعود بنا إلى السؤال الذى طرحناه آنفًا:

وهل هناك فارق - حقًّا - بين الإبادة والفساد؟

لنحاول الإجابة عن السؤال قبل أن نصل إلى المفهوم - كما نطرحه الآن - فى عديد من المؤسسات الثقافية العربية فى الداخل..

* * *

الإبادة - باختصار - كما أشرنا - يرتبط بالخطاب والفعل الغربى ضدنا فى بلادنا المحتلة بين الرافدين وفوق الأرض الفلسطينية، كما رأينا بهدف القضاء على الهوية العربية، وهو هدف ينجز من أجله «الغزو» وتعزز من أجله المبادرات الوهمية (الكبرى أو الواسعة..) وتحاك من أجله المؤامرات العسكرية العلنية والمعلن عنها، وقد رأينا صور النهب والزيادة، مما سبق أن أشرنا إليه هنا فى العراق وفلسطين فى شكل تساؤلات:

ماذا يعنى تدمير وحرق المتاحف الوطنية ودور الوثائق والمخطوطات والجامعات والمكتبات الرسمية ودور النشر والمراكز العلمية والمؤسسات الثقافية العربية.. ؟

ماذا يعنى تدمير الأرشيفات والمتاحف التاريخية البابلية والأشورية والسومرية والكنعانية العربية؟

ماذا يعنى اكتشاف من آن لآخر مئات وآلاف القطع الأثرية القديمة خارج المنطقة مهربة أو مغيبة حتى الآن ؟

ماذا يعنى نهب جامعتى البصرة وبغداد ومتحف بغداد والمعاهد والمكتبات العامة فى كل أنحاء «العراق»، وهو مايقال عن كل المناطق العربية

فى فلسطين التى تكون أول ما يصوب إليه السلاح وتعمل فيه المتفجرات حال اجتيالقوات الإسرائيلية الأرض العربية، فإذا بنا أمام تدمير وإبادة الأدوات التاريخية والمؤسسات الثقافية بل كانت وهو ما لاحظناه كثيرًا ـ المؤسسات الثقافية التى تمثل الذاكرة العربية الهوية فى مقدمة ما سعى إلى تدميرها الصهاينة.. رأينا هذا فى بغداد والبصرة كما رأيناه فى رام الله والقدس بشكل أفدح..

نقول إن الإبادة فعل عمد تقوم به قوى الإمبريالية بقيادة العم سام وتابعيه، اما الفساد، فإنه فعل عمد - أيضًا - وإن كان يقوم به هنا أهلنا ـ ومن مِن أهلنا..!!

إنه الفعل الذى يمارس ضدنا فى الداخل ومن الداخل.

وعلى هذا، يسهل التعامل مع المفاهيم الشائعة حين نرى الإبادة ببساطة هى القضاء على «الهوية العربية» بقصد مدبر، وهو يختلف عن الفساد، الذى يسعى، وإن يكن بشكل مغاير أيضا إلى البقاء على الهوية العربية، وإن يكن بشكل مفرغ وبائس وهو أخطر..

إن الإبادة (أو مسمياتها) حين تأتى من الخارج فهى معروفة ملموسة، أما الفساد الذى يأتى من الداخل فهو الأخطر.

الفارق كبير إذن بين الإبادة والفساد.. بيد أن الفساد الآن فى المؤسسات العربية هو ما يهمنا فى الداخل، وهو - كما نقول ونكرر - هو الأخطر.

و(الفساد) فى المعجم الوسيط يعنى التلف والعطب - والاضطراب والخلل - والجدب والقحط، قال تعالى: ﴿ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس﴾.. كما يضيف معنى آخر حين يرى المعنى أيضًا هو إلحاق الضرر. قال تعالى ﴿ويسعون فى الأرض فسادًا﴾.. وهو ما يفسره

ويؤكده مشتقات المفهوم من المفسدة والمفاسد.. وما إلى ذلك مما يمنحه التفسير الاصطلاحى للمفهوم بما ينطبق على حالنا اليوم.

خاصة حين نجاوز أعتاب المفهوم إلى هذا الواقع الذى نعيش فيه عند المؤسسات العربية داخل النطاق الرسمى وخارجه..

هذا الواقع الذى نلتقى فيه عند المؤسسات أو المنظمات الأهلية غير الحكومية المعروفة التى يطلق عليها NGOS، وهى غير المؤسسات الرسمية التى تنصرف إلى الاتحادات والمجالس الثقافية والجامعات والأندية والجمعيات الثقافية، فضلاً عن المؤسسات الإعلامية بما فيها الفضائيات.

إن هذه المؤسسات الرسمية - فى أغلبها - استفحل فيها الفساد وزاد حتى ليذهب البعض إلى أن فساد المؤسسات الثقافية لدينا الآن يشير إلى غياب الوعى بالمتغيرات.

وإذا أردنا الدقة، إنها لا تريد أن يكون لديها مثل هذا الوعى، فإن ما يحرك الفعل فيها مزيج من المصالح الشخصية وشبكات الأندية وتربيطات (الشللية) وضغوطات لا تهتم بالصالح العام، فما هو الصالح العام إلا أن يكون هو صاحب هذه الفئة التى تتحالف بالباطل وبأساليب كثيرة، من أجل تحقيق نوازع ذاتية بحتة.. وما إلى ذلك مما يمكن Hن نتبين حال هذه المؤسسات فى ضوئها..

إنه الفساد الذى لا يظهر فى الفعل المتعمد ضدنا منا- ومظاهره كثيرة - وإنما - كذلك - الفساد المتعمد ضدنا منا- ومظاهره أكثر مما يحد..

ينتظر فى مؤسساتنا العامة بشكل عام والثقافية بشكل خاص، وإذا التفتنا حولنا فى الاتحادات والنقابات والمجالس والمنظمات والنوادى.. إلى غير ذلك كثير سنرى - بغير جهد - كيف أن الأمور تسير كما يريد أصحابها من

هذه الفئة، التى ظهرت بيننا فى البر والبحر، وفى عقولنا فى الوعى واللاوعى..

وهو ما يعود بنا إلى سؤال المقدمة عن البحث بين الإبادة والفساد.. وحين نبحث عن إجابة لا نجد إجابة.. ولا فارق بين المفهومين والواقعين..

ولا حول ولا قوة إلا بالله..

* * *

هل هناك علاقة بين هذا الإسهاب والرمز؟!

صيف 5 يونيو.. هل بدأ الربيع العربى؟

أولاً

هل بدأ الربيع العربى..؟

تذكرت هذا وأنا أعيش حرارة يونيو حيث ذكري 5 يونيو المشئوم فى تاريخنا، فزاد المناخ حرارة على حرارة، ورحت أستعيد هذه الأيام عام 1967، حيث كانت الحرارة فى مثل هذا اليوم فى أقصى درجاتها، خاصة وأننى كنت «شاهد عيان» مجندًا بالقوات المسلحة، وعاينت كثيرًا ويلات الهزيمة فى اغتيال زملائى (ودفعتى) أمام عينى فى صحراء سيناء تحت المجنزرات وتحت الطائرات الإسرائيلية (الأمريكية)، ورأيت هذا كله عودًا من سيناء إلى طريق السويس مع عدد قليل من المجندين، بعد أن كنا نتخفى فى النهار، ونحاول العودة بغير فهم لطريق الرجوع الطويل الطويل خروجًا من الصحراء الصفراء إلى «الروبيك» بـ «طريق السويس» ولما قلت طائرات الأعداء قليلاً كنا نصل إلى منطقة الكيلو أربعة ونصف، ومع توالى الضربات الجوية وصل الباقين من زملائى إلى الكيلو 15 فالكيلو 11 بمنطقة الهاكستب لأعيش سنوات بائسة محملة بالمرارة مجملة بالأمل أن نعود ونسترد ما ضاع : الأرض والكرامة.

تذكرت هذا وأنا أسعى – دون إرادة منى – لما حدث لنا. محاولاً الابتعاد

فى هذا الصيف عن حالة الجو الحار فى الصيف، غير أن أحد الأصدقاء كان لا يكف عن تذكيرى أننا الآن هنا، بعد سنوات أو يزيد فى هذا الصيف ذكرنى أن رياح الصيف هنا هى.. هذا الصيف الذى بدا فى ذلك الوقت أنه (حالة)..

«حالة» أكثر منها مناخًا، فالصيف لم يأت بعد، وهو يأتى رسميًّا فى21 يونيو بالتقويم الميلادى!!، ومن هنا، أدركت ـ فى المقابل ـ شيئًا آخر، أن هذا الربيع إنما هو رد فعل لبعض الاحداث السارة التى لم تتعود عليها الذاكرة العربية من سنوات بعيدة.

وهذه الأحداث إنما تتمثل فى حدثين مهمين يهلان علينا هذه الفترة:

ـ أحدهما قبل عقد من الزمان فى السابعة وخمسين دقيقة من مساء 22 مايو1990، حيث أعلنت الوحدة اليمنية بين قطرى اليمن، أو بين شطرى اليمن.

ـ والأخرى قبل أيام قلائل عند السادسة وأربعين دقيقة من صباح الأربعاء 24 مايو 2000، حيث خرج الجيش الإسرائيلى من الجنوب اللبنانى، وأغلق وراءه (معبر فاطمة)..

آثرت أن أتمهل عند الحدث الأول، حيث تثير الاحتفالات اليمنية بالعيد الوطنى العاشر لقيام الجمهورية اليمنية الموحدة أوجاعًا قديمة، لكنها تبعث ـ أكثر ـ قدرًا كبيرًا من الغبطة والتمنى.

ورغم أن المشاجرات العربية المتباينة، والتى تقع أغلبها فى خانة القضايا الوهمية التى يراد بها شغلنا (وآخرها قضية وليمة.. حيدر حيدر).. رغم أن مثل هذه المشاجرات تأخذنا من الواقع الذى يجب أن نتنبه إليه جيدًا فى بداية الألفية الثالثة، فإن الوحدة اليمنية تظل أكثر ما يبعث فينا الأمل العربى بالوحدة، ويرسل إلينا رياح هذا الربيع الذى نعيش جميعًا ننتظره منذ ضياع

الوحدة العربية السورية، ونعيش دائمًا على سبيل التمثل به فى المستقبل، مستقبل الحلم العربى..

والذى يهمنا فى هذا كله أن استقرار البيت العربي «بالوحدة» يظل مرهونًا بالوعى الذى يتنبه جيدًا، أن الحلم العربى باستكمال أواصر الوحدة بين الأقطار العربية - والوحدة اليمنية الآن (النواة الصلبة... يظل مرهونًا بمدى اهتمامنا بالتنمية الاقتصادية بين أقطارنا فى عصر العولمة أو بمدى وعينا بالدور الاقتصادى المطلوب التنبه إليه فى عصر العولمة..

(2)

ورغم أن ذكرى هذه الوحدة اقترنت بعديد من المظاهر كالاستعراض العسكرى والاحتفالات، التى اتخذت فى اليمن الشقيق شكل الحضور المكثف للأشقاء العرب أو التهليل الإعلامى أو الفيض الشعرى فى الصحف اليمنية، فضلاً عن عروض مسرحية وأمسيات شعرية أو حفلات غنائية وعروض كثيرة فى الميدان العام هنا (فيما سمى ميدان السبعين).. أو الاحتفاء فى بعض الأقطار العربية بالظاهرة.. رغم ذلك، فقد بدا أن العامل الاقتصادى أبعد أثرًا فى توطيد الوعى القومى فى عالم اليوم، وعلى سبيل المثال، لقد شارك سياسيونا ومثقفونا فى الصالون الثقافى بالسفارة اليمنية بمصر (صالون أبى الحسن المدانى)، وراح د. عصمت عبد المجيد يشيد باختيار النهج الديمقراطى والتعددية الحزبية، وراح د. أحمد يوسف أحمد يؤكد على دور التعددية السياسية التى أقرتها الوحدة اليمنية، فإن عمرو موسى وزير الخارجية توقف عند ملاحظة مهمة هى، أن الوحدة اليمنية تدين إلى أنها تتجه إلى الوحدة الاقتصادية، فضلاً عن الوحدة السياسية.

الوحدة الاقتصادية هى - إذن - أهم عوامل الحرص على استمرار هذه الوحدة فى اليمن، وهى من أهم العوامل ربما من أهمها، على الإطلاق،

لتحقيق هذه الوحدة بين الأقطار العربية، وما كنا ننادى به منذ الخمسينات والستينيات من ضرورة توفر الوعى باللغة والسياسة لم يتضاءل، وإنما أضيف إليه، وربما قبله الآن العامل الاقتصادى فى ظل هذا العالم الجديد الذى نعيش فيه، وهو ما يصوره كتاب عن العولمة نقرأه الآن يتحدث عن (اجتماعات التنمية الاقتصادية ويستكمل عنوانه التالى هكذا (لمواجهة العولمة) د. محمد نبيل جامع، إن أكثر ما يلاحظ فى هذا الكتاب أن «التنمية الاقتصادية» شكل يجب التنبيه إليه الآن فى مقابل شكل آخر يمكن أن يطلق عليه «مشروع العولمة»، ومع أننا نعلم جيدًا أن العولمة ليست ظاهرة حديثة غير أن النظر إليها كقواعد منظمة للعالم هو الأمر الحديث بالفعل، نقرأ: فبينما كان المشروع التنموى ينظم العالم من خلال أعمال الدولة ومؤسساتها، فإن مشروع العولمة ينظم العالم من خلال ترسيخ الرأسمالية من خلال الإدارة الاقتصادية للعالم، وذلك من خلال التخصيص وليس من خلال التكرار، كما كان الحال بالنسبة للمشروع القومى.

لقد تغير مفهوم التنمية الآن عن سابقه فى نهايات القرن الماضى.

بل إن مراجعة أدبيات الأمم المتحدة ترينا - مع تتبع تعرفاتها - تغاير المفهوم السائد عن التنمية فى منتصف القرن العشرين عنه فى بداية القرن الواحد والعشرين، إن مفهوم التنمية ارتبط الآن بإطار مؤسسى يدفع الدولة إلى التنبه إلى ضرورة أن تتبوأ مكانة اقتصادية لها ضمن دول العالم، لا أن تغلق الباب عليها لتتحدث عن التنمية الاشتراكية أو أزمة الديون أو ضرورة خلق التصنيع، وما إلى ذلك مما تحدثنا عنه كثيرًا فى السابق.

إن المشروع التنموى يمكن أن يحقق نتاجًا أو نجاحًا هائلاً، ولكن فى ظل الوعى العربى بشكل عام لا فى كل قطر على حدة.

يوضح السياق هنا أكثر هذه النقطة، فنعرف أن نخبة المشروع التنموى ورعاته كانوا مدراء الدولة وحكامها وبيروقراطييها، أما رعاة مشروع

العولمة ونخبته فهم ـ بجانب مدراء الدولة ـ فئة جديدة تتمثل فى الصفوة من رجال المال والأعمال وأصحاب الشركات عابرة الحدود، بالإضافة إلى مديرى الموسسات المشتركة مثل صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ومنظمة التجارة العالمية، الآن مدراء الدولة وحكامها فى ظل العولمة مطالبون من رعاة العولمة هؤلاء أن ينفذوا سياساتهم بلا مناقشة أو اعتراض.

وفى جميع الأحوال، فإن مشروع التنمية الداخلية لا يمكن أن يغيب لصالح المشروع العولمى، وإنما يمكن التنبه إلى ما يحدث حولنا، ونحن نعمل - فى ضوئه - فى مشروع التنمية العربى وليس فى الغائه باية حال.

ومن غير المنطقى أن نعتقد أن الدول الكبرى تستطيع العمل لمصلحتها فى غيبة فرض سيطرتها الاقتصادية على الدول الأخرى ـ وفى مقدمتها الوطن العربى ـ وفى الوقت نفسه، فإن العولمة لن تستطيع القضاء على التنمية العربية فى غيبة أصحابها الذين يعون المعادلة العالمية الآن التنمية اتصال بحركة العولمة، وليس انفصالاً عنها غير أن هذا يقترب بنا أكثر مما يهدد التجربة اليمنية..

(3)

نقصد أن هذا يقترب بنا أكثر من التجربة اليمنية بظروفها الاقتصادية، وهى إحدى صور التنمية فى حلقة مشروع العولمة كما اشرنا.

والذى يتابع بدايات التجربة اليمنية يلحظ أنها واجهت كالتجربة المصرية والسورية، خطأ البدايات، فمن الملاحظ أن قيادات يمنية سعت إلى الوحدة مرغمة، وهروبا للأمام خشية الغضبة الجماهيرية، ومن هنا، فقد تم توقيع الوحدة فى حين كانت القناعات الوقتية هى التى تحدد الهدف الرئيسى، وهو ما دفع اليمن فيما بعد للدخول فى عدة صراعات ومناورات

وافتعال أزمات واستمرت الحرب بين الشطرين (شطر يسارى وشطر رأسمالى) قرابة ثلاثة وستين يومًا على أن اليمنيين كانوا على استعداد لدفع ثمن الحرب والانتصار فيها لصالح الوحدة، وما لبثت القيادة اليمنية أن وفرت جوًّا سياسيًّا ملائمًا للأوضاع الجديدة، فقد كان هذا الجو هو الضمان لاستمرار التجربة من توفير مناخ ديمقراطى ومشاركة سياسية وحرية صحافة حقيقية.. وما إلى ذلك كانت القيادة اليمنية واعية للحفاظ على التجربة، فوفرت لها جميع الضمانات السياسية، غير أن التنمية الاقتصادية فى مشروع العولمة الجديد كان يستأهل اهتمامًا كبيرًا، وهو ما نبهت إليه أيضًا التجربة اليمنية.

لقد تنبهت اليمن إلى وجودها فى عصر العولمة فى وقت كانت تسعى فيه ـ كشقيقاتها العربيات - للخلاص من أعباء التنمية المعاصرة فى زمن اقتصاد السوق، كان أمامها- خاصة عقب حرب الخليج - مواجهة عمالة ضخمة وانقطاع المساعدات والقروض واهتزاز كفة التنمية فى ظل معاناة اقتصادية، سعى الرئيس اليمنى إلى الخلاص منها وهو ما دفعه لتحقيق برنامج إصلاح اقتصادى ومالى ضخم، وهو ما نجح معه إلى تخطى العديد من العقبات والتغلب على عوامل اقتصادية كثيرة كانت قمينة بإعادة الروح الانفصالية.

وهو ما يدفع بنا إلى عدم الإسراف فى التفاؤل فما زالت هناك مخاطر كثيرة يعانى منها اليمن، كما تعانى بقية الأقطار العربية الأخرى فى عصر مواجهة العولمة.

غير أن هناك أيضًا روح التفاؤل التى لا يجب أن تغرب عن بالنا ونحن فى ذكرى صيف يونيو الدامى.. حيث تفرض علىَّ هذه الذكرى عودة الربيع العربى بعد عشر سنوات من هذه التجربة الوحدوية.. وسقوط إسرائيل من جنوب لبنان بعد أكثر من عشرين عامًا.

إنها روح الوحدة والمقاومة....

ثانيًا

الذى تساءلت عنه فى المرة الماضية (.. هل بدأ الربيع العربى؟).. فإذا كان حدث الاحتفال بذكرى انقضاء عشر سنوات على الوحدة اليمنية ما زال قائمًا، ومستمرًا، فإن الاحتفاء بسقوط إسرائيل من خريطة الجنوب فى لبنان هو الحدث الآخر، المعاصر، الأكثر دلالة وأهمية.

وإذا كان استمرار الربيع اليمنى يظل مرهونًا بمدى اهتمامنا بالتنمية العربية فى إطار مشروع «العولمة»، فإن استمرار هذا الربيع ـ فى حالة لبنان ـ وفى أحوالنا المضطربة الآن يظل مرهونًا بفهمنا لثقافة أكدتها الأحداث الأخيرة وبرهن عليها هذا الإنجاز الدال للصراع العربى الإسرائيلى فى لحظته الأخيرة.

إنها ثقافة من نوع جديد، اكتشف الإنسان العربى بها مع الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين والجولان وأخيرًا فى جنوب لبنان، إنها الثقافة الوحيد تقريبًا حتى تقترب حركة الصراع من الأطراف الباردة إلى نقطة الغليان فى المركز فى الأيام الثلاثة المجيدة من شهر مايو الماضى، وهو ما يتمهل بنا أكثر عند هذه الثقافة الجديدة، ثقافة الحجر.

وبداية، نود القول إن هذه الثقافة تستدعى الحجر ـ كرمز من رموز الصراع بيننا وبين الغرب، وإن كان الحجر يمثل رمزًا لهذا الفعل الصراعى الذى يمزج بين الرمز والقيمة، أى الإبداع الفعلى وحركة المقاومة وهو ما يقال معه أن موقف المقاومة ـ بهذا المفهوم ـ يظل هو الموقف الوحيد الصائب، فى غيبة مواقف أخرى، وهو يعكس موقف الحق العربى فى أية أرض محتلة فى مواجهة السلب الغربى أو كما هو سائد الآن بين

عدد كبير من المثقفين الواعين هو موقف الخير والعدالة والحرية فى مواجهة موقف الشر والظلم والتسلط، ويستهدف المصلحة الإنسانية فى المطلق، وإن تجسد هذا المطلق فى مواقف جزئية أو خاصة، فى مواجهة المصالح الذاتية الخالصة.

ولهذا فإننا كثيرا ما نخطئ ــ كما لاحظ أستاذنا العالم ــ عندما نستخدم كلمة المقاومة فى معنى الصراع أو النزاع على إطلاقه، بل نسيء إلى الدلالة الحقيقية الكامنة فى مفهوم المقاومة، فالمعتدى لا يقاوم المعتدى عليه، بل يظل يقاوم.. بردود فعل متتالية لا نهاية لها.

ومع ذلك، إن المقاومة هى التى نجد صورها الكثيرة الآن، مما يدفع بنا إلى تصور أننا نعيش ــ بالفعل ــ فى هذا الحلم العربى عنوان الأغنية التى كانت تتردد فى كل العواصم العربية فى وقت من الأوقات وشارك فيها أغلب المطربين، أو فى هذا «الربيع» العربى الذى أوحت به إلينا هذه الأحداث التى تتزاحم علينا فى أكثر من مكان الآن، سواء فى جنوب الجزيرة العربية «اليمن» أو فى هذا الشريط الحدودى الذى يفصل بين الأراضى اللبنانية المحررة عن الجليل الفلسطينى المحتل فى جنوب لبنان.

إنها المقاومة أو «ثقافة المقاومة» كما يجب أن تكون ــ حين تسمى المرحلة الأخيرة فى الصراع بيننا وبين الغرب والذى عبَّر عن نفسه، أما فى استخدام «الحجر»، وهو الأسلوب الذى لم نعثر عليه فقط فى جنوب لبنان عقب انسحاب القوات المحتلة، وإنما أيضا فى الرمز الآخر له قبل ذلك بسنوات «الكاتيوشا» فى أيدى المقاومة الشعبية، وهو ما نستطرد عنه الآن أكثر وهو مانعود إليه من جديد

يستدعى الحجر دائمًا كل مواقف المقاومة دائمًا.

وهذا الاستدعاء لا يعود إلى قوة الحجر كقذيفة ــ بالمقارنة بالمتفجرات

الضخمة والترسانات العسكرية الفخمة ــ وإنما ــ كما أشرنا إلى قوة الرمز ودلالته.

الحجر هنا يصبح ــ برغم ضآلته ــ هو الشيء الفاعل؛ لأنه صلب ومستمر، ولأن اليد التى تحمله يد صاحب الحق، ويد صاحب الحق دائمًا تكون شجاعته أكبر من أن يحسب الفارق بين قوة المنتصر وقوة المهزوم، وما حدث فى جنوب لبنان أخيرا هو أكبر مثال على استعادة الحجر، استعادة ثقافة المقاومة.

لقد مثَّل الحجر ــ بحق ــ رمز المقاومة الشعبية التى تستطيع الانتصار دائمًا مع سبق الإصرار، ولعل أحدث مثال لهذا حين انسحبت القوات الإسرائيلية إلى الشمال، تاركة الجنوب اللبنانى، وما لبثت أن أقبلت على الجنوب جماهير شعبية عربية غزيرة، وتكرر وكالات الانباء هنا أن عددًا كبيرًا من طلاب المدارس أسرعوا إلى الحدود اللبنانية، مبتهجين وراحوا يعبرون عن ابتهاجهم بهذا الانسحاب (الهزيمة الإسرائيلية) على طريقتهم، فتجمعوا ورددوا بعنف لحن «روك أند رول» راح الطلبة يرددون اللحن محورين كلمة «روك»إلى معناها الثانى أى الحجر، ثم راحوا يحملون الأحجار ــ كل الاحجار التى وقعت بين أيديهم ــ ليلقوا بها على الجنود الإسرائيليين وراء الحدود ولم تكن الحدود غير طرف السياج الفاصل بين لبنان واسرائيل هذه المساحة الضئيلة بين الضهيرة والناقورة وما فعله اللبنانيون فعله عدد كبير من الفلسطينيين، فى هذا الوقت فراحوا يلقون بالحجارة على الجنود الإسرائيليين رمزًا لتحرير الأرض اللبنانية، ورمزًا لتحرير الأرض العربية من صلف القوة المبتذلة، وهو ما رأيناه فى الانتفاضة الفلسطينية من قبل، لقد عبَّر العرب الآن فى الجنوب عن فرحتهم بالحجارة، برمز المقاومة الذى استطاع أن يطيح بالقوة الإسرائيلية المتضخمة إلى الوراء.

بل إن هذا جعل الإسرائيليين يهرولون خلف الأسلاك بعيدًا عن الحجر، رمز المقاومة لقد وحد الحجر (الرمز) الموقف العربى من إسرائيل، وما فعله اللبنانيون اليوم، فعله أطفال الانتفاضة لسنوات قبل ذلك، حتى إنهم سمُّوا، لعنف مقاومتهم «أطفال الحجارة»، حتى برهنوا للعالم كله أنهم يملكون من «ثقافة المقاومة» أكثر مما يملك كبارهم.

قبل يومين فقط كان محمود درويش فى جامعة بير زيت، احتفالاً بالنصر اللبنانى، وهو يتحدث عن أثر ثقافة المقاومة، فقال بالحرف بعد أن أشار إلى قدرة المقاومة الشعبية ودلالتها فى موقف العدو:

هذا ما فعلته الانتفاضة الفلسطينية أمس وهذا ما فعلته المقاومة اللبنانية اليوم لقد أرغمت الأولى إسرائيل على الاعتراف المتأخر بوجود الشعب الفلسطينى وعلى الانسحاب، أو إعادة الانتشار عن جزء من الأرض الفلسطينية المحتلة، وأرغمت الثانية إسرائيل على الانسحاب من جنوب لبنان؛ لأنها لم تعد قادرة على تحمل ثمن الاحتلال، لا لأنها انتبهت فجأة إلى قرارات مجلس الأمن، وهكذا، فإن الدولة التى لم تكف عن القول (إن العرب لا يفهمون غير لغة القوة) هى الدولة نفسها التى يقول انسحابها إنها هى نفسها لم تفهم غير لغة القوة.

وعلى هذا يمكن القول بوضوح شديد أننا استعدنا ثقافة المقاومة بعودة لبنان، أو برغم إسرائيل وبرجماتيتها المبتذلة التى لا تميز بين التسوية والسلام، ولا توازن بين الدفاع عن الحقوق وبين إدراك الممكن.

وإذا كانت قضية الآخرين فى الجنوب هى الانسحاب، فإن قضيتنا تظل إذن هى المقاومة الشعبية، ولا مشكلة لنا ــ كما وعى الكثيرون أخيرًا ــ بين الانسحاب والانسحاب المنتصر ــ كما يردد البعض فلينسحبوا منتصرين أو

فلينتصروا منسحبين، فالقضية لا تهمنا إلا بقدر الوعى بأدبيات ثقافة الحجر ومنطقها فى حسم الصراع العربى الإسرائيلى إلى جانب الحق، وهو ما يضع بين أيدينا، ثنائيات كثيرة، فى مقدمتها العلاقة بين ثقافة الحجر وثقافة السلام، واقترابًا من الواقع الداخلى بين فقه التحرير وفقه التحريم فى المقارنة بين الحزب الذى يسعى إلى الوعى بثقافة الحجر (التحرير) فى مواجهة العدو الغربى وآخر يسعى إلى الوعى بثقافة التحريم (التزمت) فى مواجهة قضايا عصرنا.. إلخ. والثنائيات لا تنتهي، إنها الثقافة التى لا تريد التنبه إلى فعل الغرب الإسرائيلى فى مواجهة الآخر، هذه التى لا تريد أن تميز بين العنصرية البغيضة وحقوق الغير أو «الجويم» فى العبرية فكل من ليس صهيونيًا خالصًا ليس من شعب الله المختار، وبالتالى فهو من الجويم أى الآخرين الذين يقلون عن شعب صهيون كثيرًا بإدراك فاسد وعنجهية تمليها هذه القوة التى لا تستطيع أن تقف عند بداية هزيمتها، لقد بدًا واضحًا الآن أن إسرائيل انتصرت على العرب أكثر من طاقتها على تحمل تبعات نصرها، إذ صار دماغها العسكرى أكبر من جسدها، فأصبحت أسيرة لفائض قوة جشعة، دون أن تحسب أى حساب لقدرة المقاومة الشعبية، وهو بعينه ما جعلنا نستدعى هذه المقاومة الشعبية ونفهم جيدًا معنى ثقافة الحجر.

حاشية

بقى أن نشدد على الإسراف فى نجاح فهم «ثقافة الحجر»، كما كان علينا أن نشدد من قبل على الرهان المستمر لبقاء التجربة اليمنية، كذلك نشدد هنا أيضًا على ما يخبئه لنا الصراع بين الحق والباطل، فما زالت أمامنا بعد تحرير الجنوب قضايا كثيرة منها البحث عن الوحدة الوطنية فى لبنان، والدفع بالجيش البنانى بالجنوب، والتنبه للفخاخ التى توضع للمقاومة ومنها كثرة الحديث عن مزارع شبعا أو تنفيذ القرار 425.

وقبل هذا كله التنبه إلى التقنية الرقمية التى تعد فى الجانب الآخر، إن ما حدث وما يحدث يشير إلينا ويشدد علينا أن نستعيد جيدًا درس ثقافة الحجر، هذه الثقافة الشعبية فى صراعنا الحرج والخطير فى بداية الألفية الثالثة مع الشمال المتقدم وليس الغرب فقط.

الرواية والانتفاضة

أولاً: سنوات الخطر

على العكس من الشعر والقصة القصيرة، تبدو الرواية أكثر الأنواع الأدبية تعبيرًا عن الانتفاضة، سواء فى التمهيد لها أو رصد إرهاصاتها، حتى تحويلها إلى واقع فعلى يعيش فيه المواطن العربى، عبر تحدى السفه الإسرائيلى اليومى فى الأرض المحتلة.

وبادئ ذى بدء، فإننا لا نستطيع الإشارة إلى إرهاصات الانتفاضة أو ممارساتها، عبر التعبير الروائى، دون أن نتمهل عند ملاحظتين مهمتين:

إحداهما: أنه من الصعب بمكان، أن نشير إلى الانتفاضة دون أن نستبدل بها لفظة «الثورة»، فبرغم حرص الفلسطينى، داخل الأرض المحتلة وخارجها، خاصة على تسمية حركته الفاعلة فى الأرض المحتلة باسم «انتفاضة»، فإن مقدماتها واستمرارها تدفع بنا دفعًا إلى أن نستبدل بالانتفاضة (الثورة)، وخاصة أن أحداث غزو العراق للكويت، وما تبعها من مضاعفات سلبية اقتصادية واجتماعية على المواطن داخل الأرض المحتلة، لم تستطع أن تدفع الإنسان الفلسطينى إلى التراجع.

ولنذكر أن وعى الإنسان العربى فى الأرض المحتلة فى ذلك الوقت العصيب، بلغ أقصاه، فى عديد من المواقف، مثل مجزرة «الاثنين الدامى»

8 أكتوبر 1990، وما تمخض عنها من استبدال بالوسائل القديمة وسائل أخرى، فتحولت الحجارة إلى خناجر كرد فعل ضد السلاح اليهودى.

هذه ملاحظة، والملاحظة الأخرى، وهى تحمل من التفجع أكثر مما تحمل على التأمل، إن الرواية العربية على مدى نصف قرن قبل نكبة 1948 لم تستطع أن تعبر عن العقل «الجمعى»، فيما يواجه من تحولات واستيطانات مسمومة فى فلسطين.

وهى ملاحظة يجب الاستطراد فيها أكثر..

فمراجعة الروايات التى صدرت فى هذه الحقبة الأخيرة، نرى أنه فى حين صدرت فى سوريا بين عامى 1958 و 1968 ما يقرب من 48 رواية، فإننا لم نعثر فيها على رواية واحدة تخصص لفلسطين، وفى حين ظهرت بين عامي 1968 و 1978 ما يقرب من 74 رواية، لم نعثر فيها ـ أيضًا ـ على معالجة مباشرة لقضية فلسطين أو المأساة التى خلفتها الصهيونية.

وما يقال عن سوريا يقال عن عديد من الأقطار العربية الأخرى، كمصر والجزائر والمغرب والكويت والبحرين، وهى الأقطار التى عرفت الرواية العربية فى نشأتها الأولى أكثر من غيرها، كما نالت حظًّا من التقدم والتعرف على منجزات الغرب الفكرية والإبداعية قبل غيرها..

النص الناقص

ويمضى فى هذا السياق أنه ـ حتى ـ بعض النصوص التى تعرضت لفلسطين، وهى نادرة، ونشرت فى فترات متأخرة، كانت أشبه بالنص الناقص، إذ آثرت الرمز وولعت بالغربة واستعذبت التيار الوجودى، وأبرز مثال لذلك، تظل رواية حليم بركات «ستة أيام» فى بداية الستينيات، ثم بعض الروايات التى صدرت من الأردن لكل من عيسى الناعورى (بيت

وراء الحدود) وعبد الحليم عباس (فتاة من فلسطين)، وغيرهما، مما يفتقد الوعى التعبيرى، فضلا عن فقد النظر الثاقب فى قضية قومية مثل قضية فلسطين، كما أن أغلب أولئك كانوا ينتمون إلى فلسطين سواء الذين هاجروا إلى الضفة الغربية عقب نكبة 1948، أو الذين عرفوا الهجرة الفلسطينية عن قرب فحاولوا التعبير عنها كرد فعل للحظة.

وفى جميع الحالات، نظل أمام وعى باهت خافت، لا يدرك خطورة القضية فى هذا الوقت المبكر، فى حين كان يردد، حتى اليوم، فى المعسكر الآخر، أن فلسطين تظل هى الاسم ـ أو يجب أن تكون كذلك ـ للعرب فى صراعهم ضد اليهود.

وقد كان لا بد أن يمضى وقت طويل حتى تصدم بشاعة القضية الوجدان الروائى، غير أن الاستجابة، فى هذه الحالة، ظلت متأخرة عما يحدث إذا قورنت بحجم المأساة، فنحن فى الحقبة الأخيرة لم نعثر إلا على إشارات متناثرة لا تحمل على بنية الحدث فى أى عمل روائى، وكان لا بد أن نصل إلى الثمانينيات لنعثر على رواية منشورة لفتحى غانم (أحمد وداوود) وأخرى منشورة لمحمد سلماوى (الخرز الملون)، وعدا ذلك، وهو ما يصل بنا إلى النص الفلسطينى..

النص الفلسطينى

ونستطيع أن نعثر على إرهاصات الانتفاضة فى الرواية الفلسطينية أكثر من غيرها، وهى أرهاصات تتراكم حتى نهاية الثمانينيات، لتبدأ الانتفاضة بالفعل فى ديسمبر1987، فإذا بنا أمام سيل جارف من التحدى العربى داخل الأرض المحتلة.

وعلى هذا النحو، نصل إلى الانتفاضة ـ الثورة، بيد أن هناك فترة تسبق

ذلك، هى الفترة التى تعد تمهيدًا للإرهاصات وتأكيدًا لها، والتى كتب فيها جبرا إبراهيم جبرا وغسان كنفانى قبل الثمانينيات، لتصل بنا إلى الفترة التالية، حيث نصوص كل من إميل حبيبى وسحر خليفة.

لقد تحولت النبوءة إلى تحقيق، وراح النص «الانتفاضي» يعبر عن الواقع الجديد عبر إنتاجه الفنى وإطاره الثورى الجديد.

فلنتصل عند الفترة الأخيرة، فترة الإرهاص لما سوف يحدث فى الفترة التالية لها..

وهو الإرهاص الذى يكون الإبداع الروائى الفلسطيني ـ أكثر من غيره ـ قادرًا على تأكيده والتذكير به..

وكانت هذه هى الفترة التى شهدت توالى نصوص فلسطينية عديدة: جبرا إبراهيم جبرا: صراخ فى ليل طويل (1954)، السفينة (65 ـ1968)، صيادون فى شارع ضيق (1974)، البحث عن وليد مسعود (1978)، عالم بلا خرائط بالاشتراك مع عبد الرحمن منيف، والغرف الأخرى (1978).

غسان كنفانى: رجال فى الشمس (1963)، ما تبقى لكم (1966)، العاشق (1966)، الشيء الآخر (1966)، عائدون إلى حيفا (1969)، عن الرجال والبنادق (1968)، أم سعد وعائد إلى حيفا (1969)، برقوق نيسان (1972).

توفيق فياض: المجموعة (877) عام (1968)، حبيبتى ميليشيا (1976).

رشاد أبو شاوز: أيام الحب والموت (1973)، البكاء على صدر الحبيب (1974)، العشاق (1977)، المشوهون (1964).

يحيى يخلف: نجران تحت الصفر (1975)، تفاح المجانين (1981)، نشيد الحياة (1985).

أحمد عمر شاهين: نزل القرية غريب (1977)، وإن طال السفر (1977)، زمن اللعنة (1983)، توائم الخوف (1983).

إميل حبيبى: سداسية الأيام الستة (1969)، الوقائع الغريبة (1974).

سحر خليفة: الصبار (1976)، عباد الشمس (1980).

نبيل خورى: حارة النصارى (1969)، الرحيل (1974)، القناع (1974).

أفنان القاسم: العجوز (1974).

خضر محجز: اقتلونى ومالكا (1998).

ونستطيع القول هنا إن الرواية الفلسطينية استطاعت التعبير عن اللحظة الدامية فى الوجدان العربى بصدق وزخم عال، ولا يمكن أن ندرس هذه الفترة دون أن نلحظ ـ بوضوح ـ إرهاصات التمرد على الواقع، وهى إرهاصات ظلت تتخلق لسنوات طويلة تحت رماد الحاضر حتى نهاية الثمانينيات لتشتعل بعدها أكثر من مرة.

وهى السنوات التى يمكن أن تبدأ عقب نكبة 1948 مباشرة، وحتى انتفاضة الأقصى أخيرًا، مرورا بانتفاضة القوى الشعبية فى الأرض المحتلة 1987.

ولأن هذه الروايات التى سبقت الانتفاضة الأولى مباشرة، يمكن أن تمثل لنا الإرهاصات الأخيرة لهذه الأحداث، فسوف نؤثر الإشارة إليها وحدها، باعتبار أن هذه الروايات تقترب ـ زمنيًّا ـ فى فترة إصدارها من الانتفاضة. وعلى هذا النحو فهى إلى جانب كونها أقرب من غيرها تعبيرًا عن الانتفاضة، فسوف تختزل الفعل الإبداعى الروائى فى السنوات السابقة عليها..

وسوف يقع اختيارنا على اثنين: إميل حبيبى، وسحر خليفة وخضر محجز، واضعين فى الاعتبار أن أعمال بعضهم (كإميل حبيبى) تعود إلى الوراء، وهى لا تقل فنيًّا عن الأعمال الأخيرة، غير أن اختيارنا كان نابعا من قرب هذه النصوص من الانتفاضة الأولى حتى حرب الخليج فى بداية التسعينيات، وهو ما يمثل عقدة أكثر.

ثانيًا : الكف والمخرز!

رأينا أن أهم صور الانتفاضة تظل إرادة الإنسان الفلسطينى (داخل النص وخارجه)، وهى الإرادة التى تزيد من مرجل الغضب، وتسعى بإمكاناتها الذاتية إلى تحدى عدو غادر مدجج بأحدث ما أخرجته الترسانة الأمريكية من الأباتشى والدبابات والمروحيات.. إلخ.

وبعد أن كان يردد ـ من قبل ـ المثل الفلسطينى (كف ما بتلاطم مخرز) أصبحنا الآن نرى أن الكف تلاطم المخرز بالفعل، وهو ما رأينا فى الانتفاضة الأولى فى نهاية الثمانينيات وما نراه فى الانتفاضة الثانية الآن.. فلنتمهل عند الانتفاضة الأولى (وانتفاضة الأقصى) لنرى كيف يلاطم الكف المخرز ويصمد أمامه..

(2)

رغم ضآلة فترة الانتفاضة الأولي (ثلاث سنوات على وجه التقريب) إذا ما قورنت بالحقبة السابقة عليها، نستطيع العثور على عديد من النصوص الروائية داخل الأرض المحتلة، تلك التى تعبر عن هذا الواقع أبلغ تعبير، ومن أهمها هذان النصان:

ـ زغاريد الانتفاضة لمحمد وتد.

ـ الجراد يأكل البطيخ لشحاتة راضى.

إن المواجهة الفعلية عند محمد وتد تأخذ شكلاً متحديًا حتى لنرى أن الجموع الفلسطينية تقابل جثة الشهيد «بزغاريد الانتفاضة»، وهو ما يتردد فى كثير من المواقف، يصيح الشيخ فى المختار المتخاذل قائلاً:

ـ وتقول الخيط الحيط.. بعد ان قلت كف ما يتلاطم مخرز هل هذه شهادة المخترة.

وتعود الكف العتيدة الصلبة تلاطم المخرز ـ بالفعل ـ فى رواية «الجراد»، بعد أن ييأس العدو من اعتراف الفدائى جابر على زملائه، يصيح أحدهم جزعًا:

ـ هدول كلهم نفس الشئء.. رأسهم يابس.

إن أهم ما يلاحظ على النص هنا أن البنية الحكائية فيه تأخذ شكل المتوالية بما يفيد حدوث تكرارها فى أى زمن تالٍ من أزمنة الانتفاضة منذ بدأت حتى انتهت.. وعلى سبيل المثال، نستطيع أن نقارن غضبة أهل رواية «زغاريد الانتفاضة» بأية قضية أخرى فيما بعد.

كذلك، فإن ما حدث داخل النص من اغتيال المتعاونين مع السلطة الحاكمة أو محاكمتهم هو مشهد ما زال يتكرر حتى اليوم فى الأرض المحتلة حتى تنبهت القيادة الموحدة للانتفاضة لتكاثر حالات التصفية فراحت تحذر من الاغتيال قبل التحقق، وما نراه فى هذه النصوص من أمواج الحجارة من الأطفال يتكرر خارجها حتى اليوم.

ومن الصعب بمكان أن نحاول هنا الإشارة إلى بعض حالات الانتفاضة دون غيرها، فهذه الصور تتكاثر وتتكاتف كل يوم، بحيث يصعب التوقف عند واحدة منها دون أن تخطف أبصارنا غيرها، أو النظر بصورة مختلفة عن إعادة إنتاج الدلالة فى نص يعينه دون أن يخطف أبصارنا غيره، ومع ذلك،

فسوف نشير هنا إلى بعض هذه الصور ليدلنا الجزء على الكل، ومن ثم فإن إعادة تركيب الجزئيات يمكن أن يمنحنا تصورات واقعية حقيقية..

ومن هنا تتوالى صور الانتفاضة وتتعدد.

نتاج التراكم

من البدهيات - كما أسلفنا - أن تراكم العمل الإرهابى وتعدده ضد السكان العرب، إنما يصنع - مع التوالى - التحرك التلقائى لما يحدث، وفى النصوص التى بين أيدينا نعثر على عديد من هذه الممارسات، وهو ما يتنبه إليه الروائى حين يصور بريشته المرهفة هذه الملابسات، إن جابر أكثر الشخصيات حماسة وشجاعة فى مواجهة التعذيب، يقول ملخصًا ما يحدث:

«يعنى الانتفاضة أجت من العدم؟؟ هى تراكمات داخل كل واحد.. اضطهاد.. ظلم.. سجن.. جوع.. ضرايب.. هدم.. بيوت.. نفى.. قتل.. تعذيب.. مصادرة أراض.. الإسرائيليون بدهم إيانا نأكل لقمة الخبز ونظل عايشين ميتين. أكثر من هيك لأ».

وفى موضع آخر يقول عجاج اللداوى:

«.. هذا النوع من الإرهاب والضغط والمجازر هو اللى ولد بواكير المقاومة، وعلى شأن هيك بدت المقاومة تأخذ شكلها الثورى من داخل المخيمات، صحيح أنها بديت بشكل عفوى، بس شوية شوية صاروا الناس يتأطروا داخل فصائلهم وتنظيماتهم».

لقد تعددت صور التراكم أيضًا، فلم تكن صناعة للداخل فقط، وإنما كان أيضًا لما يحدث خارج فلسطين فى الأقطار العربية، إذ كان العدو واحدًا فى جميع الحالات، ومن ثم كان يؤدى العسف والإرهاب دائما إلى رد الفعل الانتفاضى..

.. وقد تعود زائر الأرض المحتلة فى السنوات الأخيرة من رؤية مشهد مثير: معركة غير متكافئة بين أطفال عزل، اللهم إلا من الحجر، وجنود مدججين بأحدث ما فى الترسانة الأمريكية من سلاح، وهنا لا نستطيع إغراء نقل جزء من هذا المشهد الذى ينقله لنا محمد وتد فى روايته.. لنقرأ:

«.. اصطف فى الدوار عدد من السيارات العسكرية.. الصرصور فى المقدمة، وأصوات الرطن تنبعث من أجهزته. ظهرت فى سماء الخربة طائرة مروحية... و...

هبطت من السماء موجة من الحجارة، تبعتها موجة أخرى، قفز الجنود من الصرصور شاهرين أسلحتهم.. و.. كان إطلاق النار مستمرًا..».

وفى مشهد آخر يستبدل بالأطفال النساء:

«.. تناولت عيوش حجرًا وخمعت الضابط.. تبعتها صبرية وصابر وتطيرت الحجارة فى كل صوب.. و.. الحجارة تتطاير فى السماء باتجاه الجنود.. الذين استأنفوا إطلاق النار».

وتتكرر هذه الصور وتتناثر فى الأرض المحتلة، ويبرع فى نقل الصور الواقعية صاحب «الجراد..»، فالأطفال الصغر يسعون بأحجارهم لتحضير الجو للكبار، فى حصونهم داخل المخيم مع حجارتهم ومقاليعهم للانطلاق للمعركة، وينتظرون إشارة من عروة بعد أن ينجح فى استفزاز الجنود..

وعلى هذا النحو، تبدأ المعارك بين طرفين غير متكافئين، لكنها، تبرهن على أن الطرف الأضعف، صاحب الحجر، يظل أقوى من خصمه وأعتى. الحجر كليشنكوف.

.. وهو ما نصل منه إلى بدهية واحدة، هى أن الصغار لا يعملون

بمفردهم، وإنما يتحول الحجر والمقلع إلى مولوتوف وكليشنكوف الحجر صار كليشنكوفًا.

ومن هنا، تزداد حمية المعركة، حيث يبرهن الشعب الفلسطينى على جدارته، فى العيش بأرضه، اذ سرعان ما نكتشف، أن من يسقط يظل شهيدًا، ويخرج لمقابلته ذووه «بالزغاريد»، فكثيرًا ما نشهد ارتباط الشهيد بالزغاريد، حتى أصبح ذلك، مشهدًا مألوفًا الآن فى الأرض العربية تحت نير الاحتلال.

ولا نكون فى حاجة لندرك بسهولة ـ عبر التصور الفنى ـ أن جراد شحاتة راضى لا يلبث أن يتزايد، فالجراد هنا هم «عامة الشعب» الذين يتصدون لهذا العدوان الجراد ـ وهو رمز مستعار ـ يتعرض للطائرات التى ترشه بالغاز للقضاء عليه، لكن هذا الجراد سرعان ما يكتسب مناعة ضد هذه الغازات فيمتص الغاز، ويتحول إلى مخلوق أقوى فى حالة خلاصة من هذا الشر، ومن ثم، يتحول من جديد إلى كائن أقوى وأصلب فى هذا المناخ المعادى له.

البوابة الأمريكية

ونتيقن ـ عبر صورة أخرى ـ أن الوعى الفلسطينى يصل إلى أقصاه، وهو ما يبدو ـ على سبيل المثال ـ فى الموقف من الأمريكيين لما يلعبونه من دور سيئ لنصرة الصهاينة وإمدادهم بكل ما يحتاجون إليه من مال وسلاح وتأييد، ثم لما يلعبونه من ضمان بقاء إسرائيل بالتحالف مع القوى الرجعية فى المنطقة العربية.

لقد ذهب تأييد الأمريكيين للصهاينة إلى حد استخدام حق النقض (الفيتو) من أجل هؤلاء المستبدين.

وذهب تأييد الأمريكيين للقوى الرجعية العربية إلى حشد مئات الآلاف من الجنود والمعدات الحديثة للانتصار لبعض الشيوخ الذين يلعبون لعبة الإمبريالية ضد شعوبهم العربية.

وفى هذا كله، لا يفوتنا أن نلحظ الفهم الحقيقى للدور الروسى..

لقد أدرك الانتفاضيون أن هذا الدور الروسى لم يعد كما كان، فإذا أعلنت منظمة التحرير حكومة مؤقتة فسوف يأتى اعتراف الروسى خفيفًا كندف الثلج، فى حين نلحظ أن مفاتيح الاستثمار الاقتصادى فى المنطقة لا تمر إلا عبر البوابة الأمريكية ما دام الحكام العرب يركبون نياقهم ويحاربون بسيوف الحجاز.

ويكون على إنسان الانتفاضة أن يدرك أن الفرصة تكون سانحة للغرب لتمزيق العرب فى حالة واحدة، هي حالة الفرقة التى نعيشها، فالهزيمة أتت ليس لأن قدراتنا أقل من إرادتنا، لكن لأن قدراتنا أقل من تماسكنا، وهو ما أدركته إحدى نساء الأرض المحتلة حين صاحت:

«هم العرب لو انهم أيد واحدة كان ما عمر دولة أجنبية هزمتهم».

ثالثًا : الأمريكى القبيح

الخبرة العربية للموقف الأمريكى تشير دائمًا إلى الانحياز الثابت تجاه إسرائيل.

هذه حقيقة لا تحتاج لتأكيد. وهذا الانحياز لا يتحدد تجاه الصهيونية بعام 1919، وبإرهاصات بعض الأفكار التى تنتمى إلى وودور ويلسون الرئيس الأمريكى حتى ـ الرئيس الأمريكى التالى ـ ترومان ـ عام 1946 بتأييد التقييم للخطة التى وضعتها الوكالة اليهودية، وإنما يتحدد، بشكل عملى، منذ الستينات، ففى هذا العقد (1964) نشأت منظمة التحرير

الفلسطينية، ومن ثم اتخذ الموقف بين الأمريكيين والفلسطينيين الشكل السافر المعادى للحقوق العربية فى فلسطين.

لقد اتخذ الموقف الأمريكى من فلسطين هذا الموقف المعادى بعنف، وبدون مواربة، وهو وإن خضع لتأثير «اللوبي» الصهيونى فى الداخل، محافظًا على هذا الوجه الذى يكلف الغرب الأمريكى المصداقية.

وقد ظل هذا الموقف طيلة ثلث القرن الأخير بدون مواربة، وبكل صفاقة سواء فى التعامل مع الفلسطينيين فرادى، أو مع قادتهم، أو مع من يتحدثون عنهم سواء أكانت حكومات عربية أو غير عربية..

واستمر هذا الموقف علامة ثابتة فى فكر صانع القرار الأمريكى من الحرب الباردة السياسة الوفاق التى أصبحت أمريكا ـ عقب هزيمة الخليج 1991 ـ بوجه خاص، وبالنتائج التى تمخضت عنها الحرب غير المتكافئة بين «الحلفاء» والعراق.. ترتبط بهذا الموقف وتدافع عنه دائمًا.

وقد بدا الآن مؤكدًا أن حرب الخليج التى انتهت بهزيمة الفرقاء العرب فى العراق أسفرت عن عدة مبادرات (كجولات بيكر الأربع، ومبادرة بوش فى صيف1991) تؤكد استمرار الموقف الأمريكى القديم، وإن زادت عليه بعض التصريحات المتباينة التى تؤكد منع عرب ـ ما بعد الأزمة ـ من تحقيق أى توازن إستراتيجى يسمح بتغيير لوضع السياسى القائم فى المنطقة وخاصة لصالح الفلسطينيين.

لم تسفر الحرب عن تجميد الموقف الأمريكى كما كان، بل زادت عليه تدعيم قدرة إسرائيل على تملك الأسلحة التقليدية والنووية ضد جيرانها العرب ممن يسعون إلى عقد معاهدة سلام يستبدل فيها بالأرض السلام..

(2)

هذه مقدمة طالت نعتذر عنها.. غير أنها من الأهمية بحيث لا يجب إغفال تذكير أنفسنا بها دائمًا.. خاصة، ونحن نسعى إلى فهم الوجه الأمريكى القبيح عبر «المتخيل» الروائى فى الأرض المحتلة.

إننا نستطيع أن نعثر على وعى مبكر، وإن كان غائمًا، فى تلك الروايات، على أننا برصد العلاقة بين الحس الشعبى والروائى ثم ورد الفعل الغربى والأمريكى، نلحظ أنها من نوع العلاقة المتنافرة.

إنها تبدو فى الروايات التى تعبر عن الغيوم أشبه بشكل الهرم المقلوب، أو المعكوس، ففى أقصى نقطة فى هذا الهرم نستطيع أن نرى التباين الشديد فى التعبير عن حالة الغضب المكبوت، والتشريد الممض، بدءًا من أفكار جبرا إبراهيم جبرا وهشام شرابى من سفل.

(أ) وكلما صعدنا مع حركة الضلعين الصاعدين على شكل مثلث مقلوب مع نص سحر خليفة اكتشفنا أكثر تنامى الوعى من الموقف الأمريكي، حتى إذا ما واصلنا الصعود إلى أعلى، ومع الزاويتين المنفرجتين، لوصلنا إلى قاعدة المثلث، حيث يلتقى الوعى الغائم بمؤشرات مناخية ورعدية عنيفة عبر نصوص الانتفاضة

(ب) وهنا، يكون قد وصل الوعى بالخطر الأمريكى إلى أقصاه، وتبدأ عوامل كثيرة لتحرك الكتل السوداء فى الغيم الأسود، الآتى من بدايات القرن العشرين، فيحدث المطر الذى يعكسها (الانتفاضة) الفلسطينية، بدءًا من نهايات عام 1987 مرة وبدايات الألفية الثالثة فى القرن الواحد والعشرين.

وإذا كان الخط المتصل (ب، ب) يعكس قمة غضب غسان كنفانى

وتحريض جبرا إبراهيم وتمرد هشام شرابى وسحر خليفة.. إلخ فإن هذا الغضب يتصاعد، فى مثلث تالٍ صاعد معكوس، هذه المرة إلى ذروته (جـ)، حيث يصل الوعى الانتفاضى إلى أقصاه عبر نصوص الكثير كمحمد وتد وشحاتة راضى وبشكل أقل إدمون شحادة وزكى درويش.. وغيرهم ممن صقلتهم تحولات انتفاضة الأقصى واضطرابها.

وبدهى أن المساحة الزمنية الشاسعة التى تتحـدد فى المثلـث المعكـوس (د، ب، ب) هى الفترة التى شهدت العديد من انتفاضات الشعب الفلسطينى داخل الأرض المحتلة منذ بدايات هذا القرن حتى انتفاضة 1987، وصولا إلى انتفاضة الأقصى، حيث تلتقى كتل الغيم الغاضبة، المتراصة عبر الفعل والمتخيل، بما يفجر هذه الطبقات السوداء فيستحيل، إلى مطر يهبط إلى زمن الانتفاضة فى هذه الحقبة..

ورغم أن سحر خليفة أصدرت روايتها (الصبار عباد الشمس) بين عامى 1976، فإنها استطاعت أن تستوعب الروايات السابقة عليها (عبر نتاج إبداعى فيه كل الأنواع الأدبية) وتبلورها من العام إلى الخاص فالأخص، فإذا ما لحقت لحظة التفاعل البشرى فى عام الانتفاضة، حتى كانت بمنزلة حلقة الوصل بين الروايات السابقة (روايات الغيم)، وروايات الانتفاضة (روايات المطر)..

تبدى ذلك لدى سحر خليفة فى رموز بسيطة حين تحدثت فى الصبار عن السجائر الأمريكية كرمز للهيمنة، وإلى الأمريكى كيسنجر على أنه الصهيونى اللاعب لأوراق، يعرف أسرارها وحده عبر الضغط على الأقطار العربية، ومن بينها سمات تؤثر فى الوجدان العربى أو يراد لها ذلك كأن يتحدث، وهو ما ردد فيما بعد عن الأمريكي، الوحيد، الذى يملك بين يديه كل أوراق اللعب، وهو ما يستدرج بنا لما يريده الأمريكى الوحيد القادر

على حل المشكلة الفلسطينية ضمن أطروحات التى يقدمها على أنها الحل الوحيد لإنهاء النزاع فى الشرق الأوسط.

وعلى ذلك، فإن الجزء الآخر من الصبار ـ عباد الشمس ـ يحمل وعيًا أكثر من سابقه، مؤداه التنبيه الى الحل الأمريكى عبر السلام الأمريكى المزيف، وهو ما جعلنا، منذ فترة مبكرة، ننتبه أكثر لهذا الدور الإمبريالى للولايات المتحدة الأمريكية، هذا الدور الذى يرتبط بالنفط والسعى إلى السيطرة على مناطق النفط من أقصى الجنوب الشرقى ـ الخليج ـ إلى أقصى الشرق والشمال الشرقى ـ العراق ـ باسم البحث عن هذا السلام.

وهو ما يكشف كثيرًا عن ملامح البغض فى الوجه الأمريكى القبيح.

(3)

وهو ما تبلور بدوره، عبر رواية الانتفاضة داخل الأرض المحتلة.

وعبورًا فوق صور عديدة فى رواية الانتفاضة، نستطيع أن نشير إلى أن هذه الرواية تؤكد ذروة الوعى الفلسطينى بطبيعة الدور الأمريكى ووجهه القبيح، سواء أكان ذلك بالسلاح الأمريكى الذى يقتل أطفال الانتفاضة وشبابها، وهو سلاح بالمجان، أو بالإمعان فى خداع العرب، ومن ثم التركيز على تجسيد هذا الوجه المخادع «الامبريالي» الذى يسعى إلى تمزيق حركة الانتفاضة.

وقد كانت رواية محمد وتد (زغاريد الانتفاضة) أكثر ما عبر عن رد الفعل العربى المتمثل فى أن هذا الوجه القبيح ما كان ليستطيع أن يلعب دوره لصالح الصهيونية لو أن العرب متحدون، واعون بحقيقة هذا الدور..

على أن إدمون شحاتة (الطريق إلى بير زيت) راح يرسم أكثر هذا الوجه

الأمريكي، الذى لا يمثل فقط الوجه الرومانسى، كما خدعنا فيه لسنوات منذ أوائل هذا القرن، وإنما هذا الوجه الآخر، القبيح..

إن محاضر جامعة بير زيت ـ باسل ـ شخصية نموذجية للوجه العربى السوى، فهو لم يشأ أن تكون علاقته بسكرتيرته على الطريقة الأمريكية كما كانت علاقاته مع النساء والفتيات فى أمريكا، بل حاول أن تكون علاقتهما أفلاطونية.

وعلى ذلك، فإن الحرب على الطريقة الأمريكية أصبحت حبًّا مزيفًا، صورة مفسوخة لحضارة تستمرئ قتل الآخرين وخداعهم، وتحولت العلاقات من العلاقة العاطفية الذاتية إلى العلاقة الحضارية بين العرب والغرب.

ومع ذلك، فإن أستاذ الجامعة لا يرى الغرب وجهًا متجانسًا، تنتفى فيه علامات التمييز، وإنما أصبح غربًا تتناوب فيه العلاقات بين الخير والشر بدرجات متباينة يمكن أن نجدها فى أية حضارة، غير أن الوجه القبيح، يظل فى هذه المرحلة أكثر من غيره تعبيرًا عن حضارة الغرب فى أمريكا.

وعلى ذلك، فإن العلاقة بين الوجه الأمريكى والوجه الصهيونى تنتفى فيه الملامح الفارقة، إذ يتحولان ليصبحا وجهًا واحدًا، يمثل غلو الغرب ضد الشرق، والغرب الإمبريالى الذى يسعى للنيل من الشرق فى أبنائه الفلسطينيين القائمين فى أرضهم التى أصبحت الآن «محتلة» وحضارتهم التى أصبحت الآن «تابعة»..

إنه موقف واحد ضد الوجه الأمريكى أو الصهيونى..

وإذا كان موقف أستاذ الجامعة ضد الوجود الصهيونى أوصل به إلى السجن، فإنه كان توقعًا ضد الوجود المستبد، المغرق حتى أذنيه فى التأييد الأمريكى، المدجج إلى قمة الرأس بالسلاح الأمريكى، فهذا الغرب الجديد

(الأمريكى) هو ما يحاول الآن صاحبه تصويره وإعادة تصديره لنا لخداعنا رغم بداهته.

إن هذا النموذج الجديد ـ السوبرمان ـ هو ما أدركه أحد أبطال زكى درويش فى روايته الأخرى ـ أحمد ومحمود والآخرون ـ، لقد كان على أحمد فى قمة توتره وضياعه أن يعى ما يحدث فى شاشة التليفزيون التى أمامه، إنه يرى المباراة النهائية فى لعبة التنس من ويمبلدون، فإذا ماكنرو أمريكى آخر يستولى على المسرح.

وهذا المشهد الذى يطول حتى ليستحيل إلى مشهد يملأ حياتنا، يسلم صاحب الرواية إلى تساؤلات عديدة تحمل إجاباتها: لماذا أصبح الأمريكيون لاعبين فائزين دائما؟ ولماذا يخرجون من كل مكان؟.

لم يكن فى حاجة لبذل جهد كبير ليدرك الإجابة، كانت الإجابة تحمل تفسير المصير التعس الذى عاشته إحدى أسر الانتفاضة من العوز والحاجة وقتل الأب، واعتقال الأم، وتشريد الأولاد.. ومع ذلك، لا يبقى سوى السعى الدءوب للبقاء فى الأرض العربية ـ داخل فلسطين ـ ومن ثم تحول السؤال التقليدى «أكون أو لاأكون» إلى سؤال أحمق، إذ يتحول إلى سؤال أكثر بدهية «كيف أكون؟»..

كان على أحمد أن يدرك أن هذا السوبرمان ـ ماكنرو ـ هو الذى سوف تصنعه أجهزة الإعلام الغربية المهيمنة فيما بعد فى حرب الخليج، وتعيد تصديره باسم آخر ـ شوارتزكوف.

إن هذا الأمريكى القبيح (ماكنرو وشوارتزكوف أو باول أو ميتشل) سوف يخرج من إحدى ولايات الغرب الأمريكى، ويجىء إلى الشرق وسط إعلام نشيط خبيث، وتصريحات رسمية وغير رسمية ماكرة، وإبهار يعرف

أحد وجوهه فى الـ. سى إن إن يحشد لها الصهاينة القائمون إما فى واشنطون العاصمة الأولى هناك وإما فى تل أبيب العاصمة الأخرى هنا.

رابعًا: النقد الذاتى.. وثقافة الاستشهاد!!

نعود ثانية إلى نقد الذات

ها نحن نعود ثانية إلى نقد الذات..

ليس نقد الذات تأنيبًا للفرد وما يعانيه كل يوم نتاج ما جنت يداه، نقدًا لمشهد هذا العمل الاستشهادى النبيل فى وقت لا يقابله جهد إستراتيجى منظم.

ونقد الذات Aut0-Critioue هو التعريف الرائج فى الأدبيات المعاصرة من أنه المعنى الذى لا ينصرف إلى الذات بقدر ما ينصرف إلى السياسات العامة، ومحاولة التعرف عليها خلال نقدها، فالشخصية ـ كما نسهب هنا ـ لا تهم، والظاهرة نفسها قد لا تهم اللهم إلا بقدر ما نتجه إليها بقصد الفائدة العامة لا التأنيب الذاتى، وهو قد يسبب نوعًا من الألم، لكنه يظل الألم المفيد، خير من المخدر الذى يعقبه الألم بشكل يفوق ما كان قبله..

علينا أن نفيق من المخدر الذى نضعه لأنفسنا أو يضعه الآخرون لنا قبل أن نعود إلى حالنا وقد تبدل ليس بفعل الأخر دائمًا، وإنما بفعل الذات الفردية التى تعبر عن نفسها خلال البعض، أو تعبر عن نفسها خلال تزييف الواقع وتصديقه مع طول ترديده، ولأن نقد الذات أصبح من أهم ما يجب التنبه إليه فى هذه الفترة الصعبة من تاريخنا، فسوف نعرض لبعض مشاهده التى نعيشها الآن.

وسوف نتمهل فيها عند مشهدين اثنين..

(2)

لم يكاد يمر يوم أو بعض يوم منذ الاجتياح الوحشى الإسرائيلى للأرض المحتلة حتى يخرج علينا من آن لآخر من يتحدث عن كسب المعركة الاخلاقية على مستوى العالم، وفى الحديث المرور عن كسب (المعركة الأخلاقية) غبنا طويلاً، مثقفينا وصحفيينا ومشايخنا الطيبين وجنرالاتنا المتحدثين دائما..

غبنا طويلاً عن المعنى الذى يجب أن تكتسبه المواقف أو التعريفات التى تطلق على أفعالنا فى هذه الفترة الأليمة من تاريخنا من النقد الذاتى لعمليات تأتى إلينا بالغبن أكثر من الفائدة، وعلى هذا، من يراجع الصحف العربية والأجنبية يلحظ أن كل من ينتمى إلينا يحاول أن ينقل كل ما يحيق بنا أو نحاول أن نفعله كرد فعل لما يحيط بنا، إلى الساحة الأخلاقية..

على هذا النحو، عرفنا ممن يعجب من «هوجة الشارع العربـي» وافتقـاد «المكسب الأخلاقى فى ردود أفعالنا» ويصل هذا إلى أقصاه حين سمعنا كثيرًا عن وصف مقاومتنا للعدو النازى بان ما نفعله إنما هو رد فعل ديماجوجى، ومن هنا، سمعنا تردد الفتاوى لفترة طويلة حول الحكم على بعض العمليـات الفدائيـة بأنهـا «انتحاريـة» وحـتى حيـنما وصفهـا البعـض بأنهـا «استشهادية» لم نعدم من يشعل بيانًا نسميه بحرب الفتاوى التى كان ميدانها عند داحس والغبراء فى صحراء لا نهاية لها، فضلاً عن سراب الرؤية لتعدد الأحكام وتحدد التعريفات..

وكان هدفنا هو فعل أى شىء لكسب معركة «الأخلاق» أمام عدو لا يحرص أبدًا على الأخلاق..

ورغم ما فى هذا ـ فى الظاهر ـ من وجاهة فى الرأى - فإن عسف الواقع وعنته ومجازره وخزيه (إلى آخر تعريفات الواقع كما عرفناه) كان أجدى بنا أن نحاول العود إلى ما يحدث بعين أبعد من رد الفعل السريع.

وإذ أردنا أن نقف عند مثال واحد هنا لوقفنا عند معنى الهجوم على العمليات الفدائية (الاستشهادية) على أنها عمليات انتحارية!

ليس الحكم على هذه الظاهرة، وإنما أبعد من هذا، ما تمثله هذه الظاهـرة..

وبشكل أكثر دقة:

ـ ليس رد الفعل الإيجابى أو التعس إنما فى (الأداء غير الواعى أو المسئول لنصف قرن إلى الوراء) إنها العمليات الاستشهادية الرائعة وضعف الأداء العربى المخزى، وهنا نجاوز رطانات معركة «الأخلاق» إلى الهدف من العمليات الاستشهادية إننا نلحظ أنبل الأفعال التى يقوم بها شبابنا وشاباتنا الآن فى الأرض المحتلة ولا نجد أمامها إلا نبرة تقترب من نقد الذات إلى حد بعيد.

إنه عدم الوعى بإطار هذه العمليات فى الوعى «الجمعي» لا الحكم عليها بالشكل «الخلاقى» فى الوعى الفردى إنه ضعفا لأداء مرة أخرى.

(3)

إن النظر إلى ما يحدث داخل الأرض المحتلة وخارجها الآن يزيدنا يقينًا أننا لا نتعامل مع العمليات الاستشهادية بالوعى الإيجابى..

وبشكل ادق لا نتعامل مع هذه العمليات بما يجب أن يقابلها من العمل معها، وفى إطارها أن أحد الاستطلاعات الأخيرة (استطلاع جريدة الأيام) حول القضية الفلسطينية أفضى إلى عدة نتائج لعل من أهمها السؤال الأخير الذى دار على هذا النحو:

ـ هل تؤيد العمليات الاستشهادية؟

وجاءت النتيجة أن 94٪ تؤيدون العمليات الاستشهادية.

واذا كانت النتيجة شارك فيها العديد من الأقطار العربية واستخدمت فيها كل الوسائل من مباشرة وفاكس وهاتف وويب.. إلخ، فإن الأداء الفردى (المثقف العربى مثلا) لم يكن على مستوى تأثير (العمليات الاستشهادية) داخل الأرض المحتلة أو خارجها.

إننا على المستوى الفردى نقوم (بالعمليات الاستشهادية).

وعلى المستوى الجمعى نؤيدها وندعو إليها.

غير أننا على المستوى الفكرى السياسى لا نحسن معها الأداء الواعى أو نستفيد بها.

قد تختلف الآراء فى العمليات الاستشهادية فى الخارج، فالإعلام الغربى من القوة والزيف بحيث استطاع أن يخدع الرأى العام فى أغلبه، غير أن إيماننا ـ نحن هنا ـ بالإستراتيجية التى يجب أن نقوم بها باهتبال هذه العمليات والافادة منها فى تأكيد قضيتنا العادلة ـ شابه الكثير من التقصير، لقد راح الإعلام والصحف الغربية ـ كما فعل فرديمان الوقح فى النيويورك تايمز ـ عدد 31 مارس الماضى تطلق على هذه العمليات النبيله «بلعمليات الانتحارية» وبأصحابها «بالانتحاريين» الذين يسعون إلى إجبار الإسرائليين بهذه العمليات، وكأن الانتحار عمل فردى يقصد منه وضع حد للحياة بدون هدف الا هدف الموت، فى حين أن الاستشهاد يظل هو (لا الانتحار الذى لا نعرفه) البديل الوحيد للوعى بالعمل للمستقبل.

ومراجعة الصحف والمحطات الفضائية العربية ـ على كثرتها ـ تفتقد إلى الوعى بهذه العمليات فى إطارها الصحيح، وللإنصاف، فإننى لم أقرأ على المستوى الشخصى من يعى باختلال المعادلة بين العمليات الاستشهادية

وقصور الأداء غير عبارة د. حيدر عبد الشافى فى إحدى المرات، يقول الشيخ الفلسطينى الواعى:

- إن الانتفاضة هى عمل عفوى غير منظم، وكان من المفروض ـ وهنا نشدد أكثر على ما يقول ـ.. أن يبرز جهد تنظيمى لتقليص سلبياتها وتعزيز إيجابياتها وحرمان شارون من الذرائع.

وحين يصل د. عبد الشافى إلى الحاضر، حاضر العمليات الاستشهادية والنضال المستمر يضيف غاضبًا مشتعلاً بأن الأداء الفلسطينى من اليوم الأول حتى الاجتياح، كان غير منظم وغير متان ويسوده الاستعجال والتهور، وتجاهل التصدى للصهيونية هو مسئولية قومية كما اتفق عليه الجميع منذ بدء العدوان فى ظل الانتداب البريطانى، وهنا يضيف بالحرف الواحد:

ـ لكن لم يُبذل جهد لتفعيل هذا المفهوم، أولا من قبلنا الذين تعرضنا للعدوان وثانيا من قبل العرب..»

وهنا نفارق معه نقد الذات الفردى الى الوعى المفقود فى هذه الفترة، إننا أمام عمليات استشهادية، غير منظمة بالقدر الكافى، ويمكن ـ مع استمرار المقاومة ـ وتنظيمها أن تكون «الخيار الإستراتيجي» الوحيد الذى يصل بنا إلى إنجاحها..

نقول «الخيار الاستراتيجي»، المنظم، الوحيد.

نقول حسن الأداء لا نقد الذات أو جلد الذات الآن..

خامسًا: جنين وحرب التحرير

أغلب من تابع المجازر التى حدثت فى جنين وأخواتها ـ وما زالت ـ لا يلتفت إلى الجانب المضيء فى هذه الملحمة..

فعلى الرغم من أن «جنين» المدينة العربية صمدت أكثر من عشرة أيام وحوصرت البيوت والنساء قبل هدمها بمن فيها، فإن السباق الأخير لما انتهى إليه هذا الاجتياح يحمل من الدروس المستفادة منها أكثر إلى اليأس بأية حال.

أهم هذه الدروس أن المقاومة بدت فى أوج تطورها إلى درجة بعيدة مما يبعد الظن أن المقاومة التى ظهرت فى الشارع العربى من المحيط إلى الخليج إنما هى الروح التى تسيطر على الصراع مع الصهاينة حتى النهاية، وهو ما يجعلنا نردد من آن لآخر أن ما حدث فى جنين يجاوز المذابح فى الناحية السلبية إلى الصمود فى الناحية الإيجابية إلى معرفة الطريق إلى حرب التحرير، التى يضطلع بها المناضلون العرب الآن. إنها المقاومة بأشكالها المختلفة.. الانتفاضة.. ثقافة المقاومة.. حرب التحرير.

وحرب التحرير التى لاحظناها فى جنين وأخواتها ترينا الكثير من الصور التى يجب التنبه إليها، التى يجب أن تكون ضمن استراتيجية التحرير والتى يجب أن نعمل خلالها جميعا.. بلا مساومة..

وهى التى سبق وأن أشرنا إليها المرة الماضية، فلا يجب أن نتحدث طويلاً بإعجاب عن الحركات الفدائية الشجاعة أو عن الاستشهاديات البطلات، بل وعرفنا فى الساعات الماضية أن عددًا كبيرًا من الأطفال يخرجون ويقومون بعمليات استشهاد بشكل يفوق الخيال البشرى، دون أن نتنبه إلى أنه الإيمان بالقضية، الإيمان بالحق، وبحركة التاريخ..

إنه الشارع العربى داخل جنين أو خارجها فى الوطن العربى.

يتغير التعبير وتتعدد الصور ويتحدد المعنى الواحد.

إنها حروب التحرير كما يجب أن يعرفها العالم من حولنا.

(2)

ربما كان آخر من ردد عبارة «حرب التحرير» د. عبد الوهاب المسيرى الذى أقام مؤتمرًا صحفيًّا قبل أيام من سفره للعلاج فى الخارج، ليتحدث عن كتابه الأخير «من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية»، وفيه لاحظنا الوعى الفائق لدى د. المسيرى، فقد نبه إلى ما يردده الصهاينة والإعلام الغربى لفظ «الإرهاب» للاشارة لأعمال المقاومة ولفظ «الانتحار» للإشارة إلى عمليات الاستشهاد.

وتبنت بعض وسائل الإعلام فضلاً عن معظم النخب الحاكمة، هذين المصطلحين، وهو ما يعبر بنا من المقاومة والانتفاضة والصمود إلى العودة إلى مائدة المفاوضات، وهو ما يرفضه تمامًا أى مقاوم واع فى هذه الأمة.

والواقع أن العودة إلى من بقى من دمار «جنين» يقدم إلينا صورة رائعة ـ رغم المجازر الإسرائيلية ـ لروح المقاومة التى قام بها الفتيان العرب هنا، رغم أن المواجهة كانت غير متكافئة بين قوة شرسة تدمر وتجتاح بأحدث ما فى الترسانة الأمريكية من سلاح، فضلاً عن الكراهية العميقة فى صدورهم، وبين الشباب العربى فى جنين الذى آمن أن المقاومة والإيمان بالله فى هذه المعركة هو ما يجعلهم يتصدون لموجات الجرائم الصهيونية البشعة.

يقول لنا شاهد عيان داخل الأرض المحتلة هذه العبارة عن المقاومين العرب أثناء ارتكاب الصهاينة لأفعالهم..

كانت العبوات الناسفة هى السلاح الوحيد الذى عول عليه المجاهدون فقاموا بزرع العبوات فى أماكن عدة فى الشوارع مثل حاويات القمامة والسيارات.. وبالذات سيارات المقاومين المطلوبين لأجهزة الأمن الإسرائيلية كذلك بيوتهم، فالشباب كانوا يتوقعون أن يداهم الجيش الإسرائيلى بيوت هؤلاء المجاهدين، فتم إخلاؤها من السكان وتفخيخها

سواء من الأبواب أو داخل المنزل أو حتى فى الأثاث مثل الدواليب وغيرها من الأشياء..

ويصور لنا الواقع صور المقاومة العاتية التى كانوا يقومون بها فرادى وبأسلحة قليلة، حتى إن الشجاعة من أجل الحق والتحرير كانت تضاعف المقاومة وتمنح أصحابها قوى لا نظير لها إلى درجة أن العدو المسلح تسليحًا كثيفًا لم يجد أمامه غير الفرار.

وهنا تضيف الشهادة.. لأن:

الجنود الصهاينة أصيبوا بحالة هستيرية من الرعب والفزع، لدرجة أن بعضهم بدأ يصرخ ويولول ويعدو فى كل اتجاه ولا يعرف أين يذهب لدرجة أن بعضهم جاء يجرى.

إن المشهد كان يشير إلى أمر جدير بالإشارة إليه طويلاً، أن الشباب الذى لا يملك إلا السلاح البسيط جعل اليهودى المسلح يجرى بفزع شديد وخلفه يهودى آخر يمسك بمكبر الصوت ويطالب فورًا بإيقاف النار، أو يتوسل من أجل إيقاف إطلاق النار.

إن الذى رآه العدو الصهيونى لم يستطع أن يطلق داخل جنين على ما يحدث انها حروب يأس، أو يصف ما يقوم بها المناضلون بأنها أعمال انتحارية وإنما هى أعمال للدفاع عن حقوق الإنسان، وعن العدل الذى يرى العربى أنه مستباح فى ارضه وبين أبنائه وهو ما جعل العديد من اليهود داخل الأراضى العربية المحترقة او خارجها يطلقون مصطلحًا مغايرًا لما يطلق على ما يحدث.

إن كاتبًا يهوديًّا معروفًا يقول فى صحيفتهم (يديعوت أحرونوت) هذه العبارة:

إن الانتفاضة هى حرب التحرير التى يخوضها الشعب الفلسطينى

فالتاريخ يعلمنا أنه لا توجد أمة على استعداد أن تعيش تحت هيمنة شعب آخر، وأن حرب التحرير التى يخوضها شعب مضطهد ستنجح حتمًا والإسرائيليون كقوة احتلال يقتلون الأطفال ويقومون بتنفيذ حكم الإعدام فى أشخاص مطلوبين دون محاكمة، لقد أقمنا الحواجز التى حولت حياة الملايين إلى كابوس.. ولأنها حرب تحرير (تضيف صحيفة أخرى (هآرتس) يشنها المضطهد صاحب الحق السليب، فإحساسه بشرعية جهاده يشد من أزره ويحفزه على الاستمرار فى الحرب.. بلا هوادة.

وفى صحف وتقارير واعترافات المسئولين الإسرائيليين هذه الأيام ما يشير ـ رغم جحيم الدمار ـ إلى هذه المقاومة الصلبة التى تجدها فى كل مكان والأمثلة لا تنتهى..

وهو ما يعود بنا ثانية إلى صور المقاومة أو حرب التحرير بدقة أكثر.

(3)

إن من يراجع الصحف أو الشبكات الإلكترونية هذه الأيام يلاحظ هذا الصمود الذى يبديه الشارع العربى فى أى مكان فى المنطقة العربية، كما يلاحظ هذه المقاومة الباسلة داخل جنين وأخواتها بما يؤكد أن ما يحدث بالفعل حرب تحرير بدون مبالغة..

إن الإسرائيليين يدفعون ثمنًا غاليًا من اقتصادهم ومن روحهم المعنوية بشكل يفوق التصور.

وبشكل يحاولون كثيرًا إخفاءه.

ورغم شبكات المستعمرات والطرق التى يعملون فيها داخل الأرض المحتلة، فإن الخوف والغضب يسيطر على جماهير الإسرائيليين سواء فى المستعمرات أو خارجها.

وسوف نترك الجماهير العربية التى تؤكد وجود الوعى العربى وانتصار القومية فى أنحاء العالم العربى مرة أخرى، ونعود ثانية إلى جنين لنرى صورة أخرى من صور التحرير.

إن عددًا كبيرًا من المحررين الغربيين لاحظوا أن جنرالات إسرائيليين من النوع الإرهابى الصهيونى الذى يقود المجازر الكبرى يعترفون بروح المقاومة الفائقة بين السكان العرب.

هذه المقاومة القائمة رغم الفارق التسليحى الكبير بين الجانبين. وهناك واقعة محددة رددها أكثر من جانب محايد تقول اثر معركة عنيفة ضد المقاومة العربية، تقول الرواية إن جنرالات الإرهابيين الصهاينة الذين يقودون المجازر ذات الثلاثة عشر يوما اعترفوا بالبسالة الفائقة التى واجهتها قواتهم فى مخيم جنين والمدينة ذاتها.

وقال جنرال صهيونى بعد مشاهدته هذه المقاومة:

لقد كنا أمام مسعدة ولكن هذه المرة فهى مسعدة عربية.

ومسعدة التى يتحدث عنها الجنرال الإسرائيلى هى ماسادا فى اللفظ الغربى هى ما يطلقه الصهاينة على التلة الصخرية الواقعة على الشاطئ الغربى للبحر الميت، حيث يعتقد اليهود أن 953 مارسوا الانتحار كى لا يستسلموا للقوات الرومانية فى العام 72 قبل الميلاد.

ورغم أن ما حدث فى ماسادا لم يعتبره الصهاينة بطولة وأمرا يصل إلى التضحية الكاملة، فإن ذكر ماسادا هنا يحمل من الزيف أكثر مما يحمل من كل الجهات.. ولما يئس الساكنون فى القلعة من نجاتهم قاموا بممارسة الانتحار الجماعى بدلاً من الوقوع فى أسر أيدى الرومان، ويقول التاريخ إنه انتحر فى هذه الواقعة تسعمائة وستون من الرجال والأطفال والنساء فضلاً عن أنهم أضرموا النار فى بيوتهم ومخازن مؤنهم عام 73.

ورغم ما فى قصة الماسادا من شكوك تاريخية كثيرة، فإن ذكرها فى هذا المقام يترك أكثر من حقيقة لا يجب إغفال أى منها:

أولاً: أن ما حدث لليهود فى هذه القلعة يضعه علماء الآثار فى خانة الخرافة والأسطورة الملفقة، فضلاً ـ وهذا هو المهم ـ أن ما حدث لليهود ـ اذا كان حدث ما حدث ـ فى القرن الثامن ليس له أية علاقة بهؤلاء الذين يقومون ويحرقون ويمرون فى القرن الواحد والعشرين، فهؤلاء الذين سعوا لتدمير جنين وأخواتها هم من الغربيين المحترفين، الذين جاءوا من الغرب الذى سعى لاحتلال العالم العربى والسيطرة عليه منذ مئات السنين، فلا علاقة أكيدة بينهم ـ قط ـ وبين أصحاب القلعة فى التاريخ.

لا علاقة بأصحاب القلعة التاريخية من اليهود وأصحاب الجيش الصهيونى الشرس من المرتزقة الغربيين.

ثانيًا: أن الحركة الصهيونية تسعى حثيثًا لإحياء مثل هذه القصص الملفقة لإحداث وتأكيد علاقة بين يهود القلعة تاريخيًّا واليهود اليوم، فالدولة الصهيونية منذ قامت أحاطت قصة ماسادا بهالات صوفية، وحولتها إلى اسطورة قومية محررة. ونظمت إسرائيل حملات دعائية ضخمة حول عملية الكشف عن القلعة.. ولدينا تفصيلات كثيرة لتغييب هؤلاء الغربيين الآتين من الشمال فى أساطير غير حقيقية لتأكيد الارتباط اليهودى، والهدف الرئيسى كما يقول صاحب (الموسوعة اليهودية) هو صهينة الشباب من جيل الصابرا أو غيره ومحاولة ربطهم بالتاريخ القديم، لكن الواقع أن قطاعات واسعة من الشباب الإسرائيلى لا تعير هذا التاريخ اهتمامًا كبيرًا.

هذا يعنى أن إسرائيل تلعب الدور المرسوم لها فى الشرق عن فهم لدورها جيدًا، واستخدام الأساطير هنا إنما بقصد تضليل الجيل الجديد

للاستفادة به فى تحقيق المخطط الغربى الذى ينتمى الى الاساليب فى اقصى درجات توحشها.

ثالثًا: هو ما يهمنا هنا فى المقام الأول، وهو أن من قاوم بشجاعة فإنه فى جنين إنما كان هو الشعب العربى من أهلنا هناك وكفاحهم كان صادقًا لتحقيق هدف الوجود بكرامة وتأكيد الوعى العربى بالأرض، ولم يكن كما يزعم الجنرال الإسرائيلى بهدف الانتحار.

إن ما فعله اليهود فى القلعة كان نوعًا من الانتحار.

غير ان ما يفعله عرب جنين كان نوعًا من الشهادة كيلا تفقد الأجيال الجديدة الذاكرة، وكي يعرف الإسرائيليون أنهم هم الغازون لأرض ليست لهم.

ومن ثم، فإن روح الشهادة هنا تغاير روح الانتحار هناك..

إن من ينتحر أو يحاول الانتحار هو عدد كبير من الجنود الإسرائيليين أنفسهم داخل الجيش الإسرائيلى، وقد وجدنا العديد من هذه الأمثلة إبان وجودهم فى جنوب لبنان، وهم لا يفعلون نفس الشيء احتجاجًا لما يحدث، وإنما لإحساس العديد منهم بعدم جدوى ما يفعلون، ومدى المشقة التى يقومون بها لهدف هو فى الحقيقة غير ما خدعوا به حين جاءوا إلى الجنة الموعودة كما صُوِّرت لهم!!.

لقد شكلت لجان فى الجيش الإسرائيلى فى الفترة الأخيرة لدراسة هذه الظاهرة، ظاهرة الانتحار، لكن لم ينتبه الكثير هناك أن ما يقوم به الشباب العربى داخل الأرض المحتلة هو «شهادة» وليس انتحارًا، والانتحار ـ كما لاحظنا فى أدبيات علم النفس ـ فعل يغاير الشهادة، فالشهادة هنا بهدف عربى قومى، بينما الانتحار هو الخلاص من الحياة بالمجان.. أو الخلاص من باطل يصور لهم أنه حق.

الشهادة هنا هى المقاومة.

الشهادة هنا هى المقاومة، أو ـ بشكل أدق ـ هى حرب التحرير.

سادسًا: المتعاون والخائن والنص

إن المتعاون ـ كما هو شائع ـ خائن..

وهو قول صحيح، غير أن التعرف على بواعثه الاساسية يظل من أكثر الأمور أهمية فى الأرض المحتلة اليوم قبل جنين وبعدها...

وهذه الأهمية تعود إلى أن كثيرًا مما يبتلى به الواقع العربى الآن من مفاهيم معرفية وواقعية كثيرة، اختلطت فيها الرؤى وتداخلت حتى كادت تختفى تحت ركام ألوان قزحية كثيرة، دون أن تترك الباعث الأول على الفهم أو السؤال.

والمتعاون فى الأرض المحتلة، من أهم الظواهر التى لا يجب إغفالها فى زخم الموقف النضالى الشجاع الذى كاد يتحول الآن من انتفاضة الحجارة إلى حرب تحرير عبر المقاومة والاستشهاد الشجاع، ومن ثم فإن موقف المتعاون، يمكن، إذا حاولنا فهمه أكثر لأرصدة فقط أن يلعب دوره بالسلب فى قوى التحرر العربية، كما رأينا على جميع المستويات.

وتاريخ الخيانة العربية ممثلاً فى هولاء المتعاونين تاريخ كبير عريض.. نستطيع أن نرصد فيه الكثير من الأسماء..

من لا يعرف ـ على سبيل المثال التاريخ يذكر أكثر «سماسرة الشرف العربى وسماسرة الدم العربى» على حد تعبير د. محسن خضر، إننا نستطيع أن نذكر منهم الكثيرين منذ أبو دغال حارس أبو جهاد وأبو نضال الذى سلم رأساهما للمغيرين الصهاينة فى تونس (ولا نريد أن نعود لخونة 1948،

فهم أكثر مما تسمعهم هذه المساحة).. وإلى الخائن الذى سلم مرورًا البرغوثى مرورًا بالكثيدين:

من ينسى المهندس يحيى عياش وقبله غسان كنفانى وبعد هما حسين عبيات ووائل زعتر وماجد أبو شرارة وفتحى الشقاقى وجمال منصور وجمال سليم وصلاح دروزة.. وغيرهم كثيرون.

ولأن صفوف الخائنين كثيرة فى هذه الفتزة الصعبة المخيفة من تاديخنا فى الألفية الثالثة، فسوف نعود إلى دفتر النص الروائى من جديد، ونعود لنقول، ونركز بما قلناه كثيرًا قبل ذلك.

فليسمح لنا القارئ الكريم لاستعادة بعض المشاهد الدامية من عمر الخيانة العربية.

ولن نمل من القول والتذكر والتكرار..

لنعد إلى النص قبل أن نغادره فيما بعد.

(2)

وقد حاولت الرواية الفلسطينية، بوجه خاص، أن تتعامل مع هذه الظاهرة منذ فترة مبكرة، ولعل رواية أميل حبيبى الوقائع الغريبة فى اختفاء سعيد أبى النحس المتشائل، من أهم هذه الروايات التى حاول صاحبها فيها ـ عقب هزيمة 67 ـ أن يرصد لدور المتعاون ـ سعيد أبى النحس ـ وقدرًا كبيرًا من البواعث وراء عمالته، وعلاقته بالسلطة الحاكمة فى الأرض المحتلة، حتى إذا ما بدأت الانتفاضة الفلسطينية فى نهاية عام 1987 حتى راحت تضيف إلى نموذج أميل حبيبى نماذج أخرى أكثر معاصرة وأبعد تعاملاً مع السلطة الصهيونية.

وعبورا فوق نماذج روائية لا تصل إلى خطورة الانتفاضة، يمكن الإشارة

إلى روايتين اثنتين، كتبتا فى زمن الانتفاضة، وسجلتا، عبر الأحداث المأساوية الملحمية فى أن صورة العميل ضمن ما رسمت من صور أخري، إحداهما رواية زغاريد الانتفاضة لمحمد وتد، والرواية الأخرى الجراد يحب البطيخ تغريبة فلسطينية لشحاتة راضي.

وهناك روايات كثيرة ما زال يكتبها الواقع المؤسس فى جنين ونابلس والبيرة وغيرها مرة أخرى بالدبابات التى يحملها غطاء جوى من الأباتشى.

والملاحظة المهمة فى هذا الصدد أن الشخصية العميلة فى رواية الانتفاضة بوجه خاص، هى الشخصية التى يجب البحث وراء بواعثها ودلالات الموقف الذي انتهت إليه، وهو ما يطرح علينا هذا السؤال.

هل شخصية العميل فى رواية الانتفاضة هى هذه الشخصية المركبة؟

وقد يكون من المهم أن نشير إلى بعض الملاحظات العامة فى هذا الصدد قبل أن نعود إلى النص الروائى، ونوالى رصد بواعث الموقف العميل ودواعيه.

إن قضية العميل تمتد بجذورها إلى بعيد، ربما بدأت منذ عمليات الاستيلاء الأولى من اليهود على الأرض العربية، وتوظيفها لعدد كبير من العملاء لذلك.

ووجه الخطورة هنا يعود إلى أن هؤلاء العملاء لعبوا دورًا يشبه دور السماسرة فى إبرام صفقات لبيع الأرض، فى حين كانت الوكالة اليهودية تغرى تارة بالعقود وتارة بالإرهاب، وهو ما تحول خارج الأرض الفلسطينية إلى اتهام الفلسطينيين، من قبل عرب الأقطار المجاورة، إلى أنهم يبيعون أرضهم، وهذه فرية تتوافر كثيرا وتغذيها عديدًا من المصادر المشبوهة والاتجاهات الشعوبية.

وأستطيع أن أضرب مثالاً بمصر، فقد لمست ذلك بنفسى خاصة وأنه قد عمقها الإعلام فى عهد أنور السادات، وحاول الإفادة منها لتكريس كامب ديفيد بهدف الوصول إلى رأى حاول التأثير به على جماهير البسطاء، ومؤدى ذلك، أنه ما دام الفلسطينى قد باع أرضه لليهود، وما دام العرب الآخرون ـ خارج فلسطين ـ لا يهتمون بشىء أبدًا، اللهم إلا بآبار النفط، فمن باب أولى ـ هذا هو الخطاب الساداتى فى السبعينيات، أن تعقد بلادنا اتفاقية مع العدو الصهيونى بعيدًا عن الحروب والحاجة والخيانة التى تبدأ ببيع الأرض.

على أن خطورة الظاهرة أنها تستثمر فى الأرض المحتلة بالقدر الذى تستثمر به خارج الارض المحتلة.

إننا داخل الأرض المحتلة ـ فى الداخل ـ أمام صور كثيرة للمتعاون أو العميل، فإلى جانب سماسرة الأراضى، عرفنا دمج عدد كبير بواسطة السلطات الإسرائيلية فى روابط القرى بهدف إيجاد تنظيم موال لليهود، وبسبب علاقات العملاء المشينة بالسلطة والحاكم العسكرى أصبحت فئتهم، تقوم بعمليات ابتزاز لأموال الفلسطينيين فى مقابل تسوية معاملاتهم من رفض بناء وتصاريح سفر عندما يتعذر إنهاء هذه المعاملات بالأساليب الطبيعية، الأكثر من هذا أن هؤلاء المتعاونين لم يترددوا فى فرض نظام إرهابى فى مناطق سكناهم، وخاصة وأنه يسلح بعضهم فضلاً عما جند منهم فى جهاز المخابرات الإسرائيلى سواء فى عمليات التحقيق مع المسجونين الفلسطينيين أو لخداعهم بدسهم بينهم، وقد كان أكثر من رحب بالمهاجرين الروس إلى الأرض العربية هؤلاء المتعاونون أصدر متعاونو قرية حوارة بالضفة الغربية منشورًا بمثل هذا.

ويمكن أن يتسع هذا المفهوم ـ المتعاون ـ ليطلق على عدد كبير منهم ممن يتعاونون خاصة مع صدام حسين بعد غزوه للكويت، بل ويشكل البعض

منهم وجهًا سلبيًا للعربى الفلسطينى فى بعض البلاد العربية لصالح القوى المناوئة للإرادة العربية.

ولأن العميل لا يكون نبتًا من فراغ، فإننا بالعود إلى النص الروائى يمكن التعرف على ملامحه وبيئته والملابسات التى أدت إليه.

(3)

يظل موهونا ـ داخل النص وخارجه ـ بالتعرف عليه أكثر عبر تكوينه المركب.

وهذا التكوين هو ما نحاول التعرف عليه عبر الفضاء الروائى الذى يقدمه لنا التمهل عند النصين الروائيين لمحمد وتد وشحاتة راضى 2 وعبر الفترة الزمنية التى تمتد منذ 8 ديسمبر من عام 1987 تاريخ بداية الانتفاضة.. ولنرى ذلك عبر عدد من الصور الفنية يقدمها لنا النص الروائى.

وربما كان النصان هنا من أهم النصوص الروائية التى تعيد دلالة العمل الثورى من الواقع عبر التخيل الروائى، والنصان يقدمان العميل فى صورة تكاد تتشابه إلى حد بعيد، وهى الصورة التى تنقل لنا نموذج كل من أبو أحمد «زغاريد الانتفاضة» وأبو رقم «الجراد يحب البطيخ» وهو نموذج المتعاون مع سلطات الاحتلال بدون تحفظات، فكلاهما جند فى أجهزة المخابرات الإسرائيلية وعمل معها، وكلاهما سعى إلى توفير المعلومات عن أهل بلده، فأبو أحمد كان صعلوكًا تافهًا، يطارد فتيات المدرسة، بعد أن خط الشيب رأسه، كما أن تعامل هذا العميل مع السلطات أضاف إليه وقاحة وسلاحًا مكنه من إرهاب الآخرين، أما أبو رقم فقد كان ضائعًا ـ أيضًا ـ فى حياته الخاصة، مالبث أن عمل مع السلطات، فيشمشم الأخبار، ويتلصص خفية ويسترق النظر والسمع من الشبابيك، وقد كان السلاح الذى يحمله

كافيا لديه فى ان يرهب اللثيمين من شباب الانتفاضة، فضلاً عن الصلاحيات الكثيرة التى منحت له، والتى لم ينعم بها قبل الانتفاضة.

إنها الشخصية البسيطة التى لا تحتاج إلى تعقيد أو تأكيد على خصوبتها..

ونصل إلى صورة أخرى..

إن كليهما ـ أبو أحمد وأبو رقم ـ كان مكروها من أهله ومشينًا لهم، ومن ثم، كان لا بد أن يكون الجزاء من جنس العمل.

إن أبا أحمد ذا السمعة السيئة المركن على الحكومة كان يجد غضبًا شديدًا ومستمرًا من زوجته، الأكثر من ذلك، أن الزوجة كانت النقيض له تمامًا، فعلى العكس من الزوج الخائن كانت الزوجة دائبة السعى لتجميع رءوس أعواد الكبريت فى صرة لصنع قنبلة بدائية تواجه بها المحتلين، وهو ما فعلته بالفعل فيما بعد.

ويتبدى موقف الزوجة حين أقبل إليها من يحمل ابنها الجريح من قبل اليهود، فالتفتت لزوجها، وصاحت فيه فى التياع شديد.

قتلوه جماعتك

قتلوه.. ياردي

أما أبو زقم ولاحظ دلالة الاسم فلم يكن مجهولا من رجال الانتفاضة، ومثال ذلك أنه حين أقبل رجال الانتفاضة إلى بيته ليلاً، سمعوا أمه تولول:

ابنك عم بيخرب فى المخيم والكل عارفينه..

أنا عارفيته هذا مش ابنى.. الكلب اللى مربوط بره أحسن منه! هذا البز اللى رضع منه أقطعه.

ليوم ما كان فى بطنى عرفت أنه بدو يطلع عميل كان حطيت صخرة

فوق بطنى وقتلته، ولا نسود وجهنا قدام أهل المخيم.. اقتلوه.. اسلخوه اشنقوه.. قطعوه سقف.. لا هوا ابنى ولا أنا أمه.

هذه ملامح الشخصية البسيطة، العامة...

غير أن تتبع شخصية أبو رقم نصل معها إلى ملامح الشخصية المركبة.. إن شخصية العميل ـ أبواحمد وأبوزقم ـ تمثل خطًّا واحدًا أو مستوى واحدًا غير معقد، لا يتفاعل مع الأحداث فى تحولاتها، غير أن صاحب الجراد يكون أكثر من الآخر فى رصد ملامح النموذج عبر دلالاته الفنية وواقعه المتواكب، إن هذا الروائى لايكتفى بأن يلقى العميل حتفه لقاء عمله كما فعل محمد وتد لكنه يتمهل، أكثر حول طبيعة الشخصية والمصير الذى انتهى إليه، والنبت الذى جاء منه.. إلخ.

وإذا كان أبو أحمد ضحية لموقفه الردىء فأطلق عليه الرصاص من اليهود اعتقادًا منهم أنه اتفق مع الآخرين ضدهم، فقد كان ينتظر أبو رقم مصيرًا آخر، لم يسلمه الروائى إلى الموت وحسب، وإنما أسلمه إلى شباب الانتفاضة الذين نصبوا له كمينًا أثناء عودته فى احدى الليالى، وكبلوه وأغلقوا فمه بالبلاستيك، وساقوه إلى التحقيق قبل أن يقدموه إلى مصيره.

هى صورة أكثر حذقًا وخصبًا فى تفاعلها فيما بينها.

المهم فى ذلك كله، أن هذا المصير ـ التأنى والتحقيق ـ يظل وثيقة الصلة بوعى قيادة الانتفاضة فى الأرض المحتلة.

فبعد أن لاحظت القيادة الموحدة للانتفاضة تكرار عمليات قتل المتعاونين مع أجهزة المخابرات الإسرائيلية، وتزايدها بصورة تشير إلى تداخل الخلافات الشخصية بين المناضلين والسقوط فى فخ الدعاية اليهودية من تصوير ما يحصل على أنه الإرهاب الفلسطينى الذى يمارس بين أهلينا فى الأرض المحتلة.. أصدرت قيادة الانتفاضة تحذر من ذلك، ففى البيان رقم

41 بوجه خاص نقرأ أنه يجب أن يتم التركيز على أولئك الذين تتوافر الأدلة ضدهم ويتوافر الإجماع الوطنى فى الموقع على إدانتهم.

وهذا الوعى المضاعف نجده فى التعبير الروائى لدى شحادة راضى، ففى نص الجراد نقرأ أن جماعة من قيادة الانتفاضة سيطرت على حركة أبو رقم، ولم يمض وقت طويل حتى نقل إلى مكان آمن ووجهت إليه التهم وقدم إلى التحقيق فراح يعترف ويوقع على ما هب ودب من جرائمه الكثيرة فى عالم الاغتصاب والإسقاط والقتل ونقل المعلومات.

وراح يلقى المصير المحتوم من داخل وعى الجماعة وإرادتهم، وهو ما زال متواصلاً حتى تتم حرب التحرير عبر «إستراتيجية المقاومة»، التى يجب أن تضع فى حسبانها، أولئك الخونة الذين يعملون فى البنية العربية الشهيذة بدأب شديد..

سابعًا: تعقيب

بمجرد نشر مقالتنا السابقة عن العميل والخائن.. حتى فوجئنا بعدد كبير من الكتابات فى البريد العادى والبريد الإلكترونى، بعضها حاول إلقاء الضوء على الظاهرة المفجعة، وبعضها حاول تبرير موقف العميل (الخائن) من منطلق الواقع داخل الأرض المحتلة، وأغلبها يستنكر الظاهرة، وينفى أن يكون هؤلاء العملاء من بين أبناء الشعب العربى الذى يستخدم الآن فى المواجهة أنبل ما فى المقاومة من قيم، ونقصد بها العمليات الاستشهادية التى ما زالت تضرب المثل فى التضحية والفداء.

وقبل أن نستطرد أكثر نترك هذه الرسالة بين يدى القارئ، وأهميتها لا تعود إلى الوعى الشديد بالظاهرة وحسب، وإنما لأن صاحبها كاتب فلسطينى معروف هو عبد القادر ياسين، يقول عبد القادر ياسين فى رسالته:

إلى:

لا أتحسس من مناقشة ظاهرة العملاء فى الأرض المحتلة، ومناطق الحكم الإدارى الذاتى المحدود، وقد أسعدنى ما جاء فى المقالة الممتعة (أهرام 2002 5/27) عن «المتعاون والخائن والنص الروائى» فضلاً عن أنه أمتعنى. على هامش هذا المقال تدافعت إلى ذهنى الأفكار التالية:

(1) لكل ضوء ظل، وكما أن لبنان قدمت لنا ظاهرة حزب الله الجسورة النبيلة، فإنها أفرزت جيش لبنان الجنوبى، بقيادة الرائد سعد حداد، الذى خلفه اللواء أنطوان لحد، دون أن يسىء هذا الجيش العميل لحزب الله، ونضاله الجسور وتضحياته الكبيرة.

(2) لا يمكننا وضع الجواسيس كلهم فى سلة واحدة، فمنهم الوقح الذى يبذل قصارى جهده لإلحاق الأذى بشعبه ووطنه، لحساب العدو، وهناك المتعاون الذى سقط مضطرًا تحت ابتزاز العدو له، بالاعتداء الجنسى عليه، أو على إحدى قريباته، فضلاً عن المتردد، الذى يقدم ساقًا ويرجع أخرى فى هذا المجال، وبالتالى تختلف أساليب التعامل مع كل منهم. على أنه لا يجوز تقدم المقاومة على قتل أى منهم بدون تحقيق علني، يعطى المشتبه فى تعامله مع العدو فرصة كاملة فى الدفاع عن نفسه، أولاً لإرساء تقاليد ديمقراطية، وثانيًا قد يكون لديه ما يحتم الرأفة، أو حتى البراءة، وثالثًا حتى أحصن أبناء شعبى من أساليب العدو فى تجنيد العملاء.

على أن الأخطر من إقدام المقاومة على قتل المشتبه فى تعاونه، وترك هذا الأمر للناس العاديين، الأمر الذى التقطه الدكتور مصطفى، حين أشار فى مقاله إلى تداخل الخلافات الشخصية بين المناضلين، فضلاً عن إمكانية السقوط فى فخ الدعاية الصهيونية فى هذا الصدد، أؤكد أن نسبة غير قليلة

من الذين قتلوا بتهم العمالة بريئون من هذه التهمة، براءة الذئب من دم ابن يعقوب!.

من بين دوافع المتعاون علينا وألا نهمل انبهاره بالعدو، أو يئسه فى القادة الفلسطينيين، وفى الحالة الثانية لعل الواقعة المهمة تلك الخاصة بمساعد سفير فلسطين فى تونس، عدنان ياسين (ليس قريبى)، الذى كان أحد أبطال معركة الكرامة الشهيرة الذين حملوا أرواحهم على أكفهم.

وفى سفارة فلسطين، رأى العجب العجاب من الفساد والاستسلام لإرادة الأعداء، فسعى إلى العمالة بقدميه، حامت الشبهات حول السفير نفسه، عضو اللجنة المركزية فى فتح حكم بلعاوى، وهو اليوم، سكرتير مجلس الأمن القومى فى سلطة الحكم الإدارى الذاتى، ورئيس لجنة الطوارئ فى الضفة الغربية! ومهمتها نشل اختصاصات مروان البرغوثى، وقد عينها عرفات قبل نحو سنة، وجمع فيها كل كارهى البرغوثى، بعد أن أفلت الأخير من قبضة عرفات، وأصبح يشار إليه بالبنان، أى كبر أكثر مما ينبغى!

(3) ما كان للاحتلال الصهيونى، الذى امتد لسبعة وعشرين عامًا متصلة، بأساليبه فوق الغاشية، إلا أن يخلف وراءه عملاء. الأمر الذى حدث فى كل المستعمرات، بيد احتلال أرحم كثيرًا من الاحتلال الصهيونى من مصر، إلى سوريا، والعراق، وفرنسا، وبولندا، والهند.. إلخ.

خيرًا فعل الصديق الدكتور مصطفى حين ألح ضرورة دراسة دوافع المتعاون أساليب المحتل فى تجنيد العملاء على حد سواء.

(4) حين حمل اتفاق أوسلو مهمة حماية الجواسيس لسلطة الحكم الإدارى الذاتى المحدود، فإن المقاومة الوطنية ـ بشتى فصائلها ـ ابتلعت الموس، وخشيت إن هى أقدمت على محاسبة المتعاونين، أن تتسبب فى إحراج

السلطة أمام العدو الصهيوني، مما أفسح المجال للجواسيس كي يعيثوا فسادًا، وتقتيلاً فى المناضلين، على مدى عشرين شهرًا، هى عمر انتفاضة الأقصى والاستقلال. والله من وراء القصد.

عبد القادر ياسين

تنتهى الرسالة ولا تنتهى ما تثيره فقضية العمالية تعد أخطر القضايا التى تعوق المقاومة الآن، ومن ثم فإن التصدى لها يعد نوعًا آخر من أنواع الشهادة، فضلا عن أنها تظل - فى حالة استمرارها - الوجه الآخر للمقاومة..

وهو ما يثير ملاحظات كثيرة، منها:

-أننا فى التصدى لهؤلاء العملاء إنما نضعهم فى مكانهم، أى أننا فى الوقت الذى نشير إليهم ونحذر منهم، فإننا نضع نصب أعيننا دائمًا أن القاعدة السليمة للمقاومة ما زالت قاظمة صامدة، وأن ما نشاهده من استثناء لا يعوق العمليات الفدائية الاستشهادية.

الأكثر من هذا أن العملاء إنما يمثلون هذا الاستثناء الذى يؤكد بقاء القاعدة وصمودها: قاعدة المقاومة والتصدى لهذا الاجتياح الصهيونى الذى ما زال يوالى عملياته البشعة منذ نكبة 1948 حتى اليوم.

- لا بد أن نضع فى الاعتبار - كما أشار عبد القادر ياسين - يجب ألا نضع العملاء جميعًا فى سلة واحدة، فهناك عدد كبير من العملاء من يعانون الفاقة والفقر الشديدين، ومن ثم، فإن الموساد والـC.I.A، ومن ثم فإننا يجب ألا نكتفى بالاتهام والإدانة فقط، وإنما نجاوزهما إلى حقيقة ضرورة الارتفاع بمستوى أهلينا فى الأرض المحتلة، فضلاً عما يجب أن نتنبه إليه ونعمل له فى نفس الاتجاه، حيث نكون واعين إلى أن الصهاينة يحاولون - فى هذا الإطار - استغلالهم من أجل المزايا الإدارية كتصاريح السفر والعلاج.. وما إلى ذلك

أن الحاجة والأمان الاجتماعى ليسا موجودين، وهو ما يحفزنا للتنبه إليه فى هذه المعركة الشرسة.

- يجب التنبه إلى أن بين هؤلاء العملاء عددًا كبيرًا استطاع جهاز الشاباك الصهيونى استغلالهم وتجنيدهم فى فترة مبكرة من حياتهم ثم يخضعون لدورات أمنية وعسكرية مكثفة، إضافة لعمليات غسيل المخ من قبيل علماء تاريخ وعلم نفس، كما يقول أحد المتخصصين فى الشئون الأمنية إن المخابرات الإسرائيلية تعمل على إفراغ هذا الصنف من العملاء من المضمون والوعى الإنسانى بعد توريطهم وإسقاطهم وتجنيدهم لتنفيذ عمليات الاغتيال والتصفية إلى غير ذلك ـ بقى ان نذكر كما أشرنا سابقًا، وكما أكد الكاتب الفلسطينى الآن، أن الاتفاقات التى تعقد بين الجانب العربى والجانب الصهيونى تمنح هؤلاء العملاء حماية كبيرة تسهم فى تأكيد مكانتهم واستمرار عملياتهم مما يؤثر فى حركة المقاومة المستمرة، وهى حماية فعلية تمضى فى خط رسمى أو دولى، ومن ذلك، ما جاء فى اتفاقية أوسلو بالحرف الواحد أن هؤلاء المتعاونين والخونة (العملاء) لن ـ لاحظ حرف النفى ـ يعرضوا للأذى أو العنف أو الانتقام أو الاضطهاد.

(ولا تعليق).

ثامنًا: التراث الفلسطينى.. ونداء اليونسكو

حيرنى كثيرًا هذا النداء

هل يهتم به أحد..

وهل يستطيع اليونسكو ـ اللجنة الوطنية التابعة للأمم المتحدة ـ أن تفعل شيئًا تحت مظلة العولمة الأمريكية وغطرستها..

وهل تستطيع الجامعة العربية القيام بأى دور فى غياب «الفعل» العربى،

وفى مواجهة الوحدة الأوروبية فى الشمال ومنطق عسكرة العولمة فى الولايات المتحدة الأمريكية؟

ثم هل يستطيع المثقفون ـ أى مثقفين؟ أو ضمير المثقفين أن يفعلوا شيئًا ـ أى شىء ـ فى عصر القوة القطبية العاتية فى عالمنا؟

من يهتم حقًّا ـ فى هذا العالم الوحشى العنيف ـ بمصير أية جماعة تفتقد اللغة العالمية الوحيدة المفهومة فى عالمنا: القوة، وتقبع تحت مسميات التراث والحضارة «التى كانت» فى أقصى الأرض؟

ومن يهتم ـ حقا ـ بالحقوق أو كلمات من مثل المقاومة أو حركة التحرير الوطنى فى عصر العولمة الأمريكية والعنصرية الصهيونية البغيضة؟

من يستطيع «إلزام» إسرائيل باحترام المعاهدات الدولية، ونحن نسمع من زمان اتفاقية تسمى لاهاى 1954 واتفاقية جنيف الرابعة قبلها 1949.

سألت نفسى كثيرًا، فلم أجد جوابًا، غير أنى ـ الآن ـ أجد الحيرة ـ فى عيون السادة القراء، وقبلها وجدت الغضب الحائر فى عيون عدد كبير من كبار المثقفين حين عرض عليهم الأمر برسالة رسمية، وكادت الأوراق تطوى لولا أن أبديت رغبتى بين السادة الكبار من مثقفى مصر أن أحاول التعبير عن هذه «الحالة»، مثل عديد من الحالات التى تتكرر، وأن يكون تعبيرى مكتوبا ومنشورا.

فلنعد قليلاً إلى الوراء، ونتعرف على ما يحدث فى هذا العالم.

أو لأعد ـ على المستوى الشخصى ـ إلى ما أشعل فى عقلى كل ما يحدث فى إبادة الإنسان و «التراث» العربى الفلسطينى إثر موقف معين.

منذ شهر أو يزيد جاءنا فى المجلس الأعلى للثقافة (شعبة الدراسات الأدبية) خطاب موجه من وزارة الثقافة عن اللجنة الوطنية لليونسكو عن وزير الثقافة والإعلام الفلسطينى بشأن (كما نقرأ) العدوان العسكرى

الإسرائيلى ضد الشعب الفلسطيني، هذا العدوان الذى استهدف تدمير وتخريب إنجازات الشعب الفلسطينى منذ اتفاقية أوسلو.. كل إنجازات الماضى والحاضر.

تدمير التراث الفلسطينى كله ـ إذن ـ منذ بداية التسعينيات، حتى اللحظة الراهنة ورحنا نستعيد أخبارًا تشبه النواح الذى لا يتوقف عن إبادة تراثنا العربى ضمن الأفعال الشائنة التى تقوم بها إسرائيل فى جميع المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية منذ 29 مارس من هذا العام، فراحت تدمر وتخرب وتبيد كل إنجازات التراث فى القرون السابقة وإنجازات الثقافة والأدب والتعليم منذ اتفاقية أوسلو1993 فى نهج «بربري» وتميز تخريبى «عنصرى» بغيض.

ولنستعرض أهم ما جاء فى هذا الخطاب ـ ويعلمه الكثير منا ـ قبل أن نعود إلى أسئلتنا الحيرى تقول الأمثلة التى تتكرر ـ على الاستشارة فقط ـ إن:

فى وزارة الثقافة احتل الجنود الإسرائيليون الهمج المبنى وحولوه إلى مركز للاعتقال والاستجواب بعد أن دمروا بالكامل جميع المحتويات بما فى ذلك المكتبة الثقافية، أرشيف السينما.. عشرات اللوحات الفنية.. مختبر لتدريب منتجى الأفلام الصغار، الكاميرات والاستوديوهات والأجهزة الخاصة بمحطة موسيقى الشباب بالإضافة إلى مواد ومعدات ثقافية أخرى.

كما قام الجنود الإسرائيليون بسرقة قطع أثرية ومجموعة كاملة من العملات الفلسطينية القديمة وأجهزة كمبيوتر، وأشياء ثمينة أخرى، ودمروا شبكة التليفونات والكهرباء والإنترنت فى مدينة نابلس القديمة، قامت قوات الاحتلال الإسرائيلى بهجوم وحشى وبربرى دمرت البلدة القديمة من خلاله فى مدينة نابلس التى تعتبر مدينة تاريخية وتراثية فريدة ومركزًا حضاريًّا فى فلسطين.

أما البلدة القديمة التى تحتوى على ممتلكات ثقافية وتراثية فيعود تاريخها إلى عام 70 ق.م.

وقد قامت قوات الاحتلال الإسرائيلى بتخريب وتدمير عدد من الجوامع مثل الجامع الكبير، وجامع الخضراء، وجامع النصر.. التى يعود تاريخها إلى عهد الأيوبيين والعثمانيين.

ودمرت هذه القوات مصانع الصابون الفلسطينية والتقليدية فى البلدة القديمة والتى تعود للطراز المعمارى المملوكى والعثمانى، كما أصاب التدمير بعض مواقع وأحياء أثرية قديمة مثل المدرج الرومانى وساحة التوتة والآبار الرومانية.

وشمل التدمير أيضًا ديرًا قديمًا فى حى الياسمينة وهو تابع لكنيسة قديمة تعود إلى الفترة الصليبية، وكذلك بعض القصور القديمة منها قصر عبد الهادى وقصر النمر وقصر طوقان.

ولا تنتهى الممارسات الوحشية لتصل إلى أقصاها فى وزارة التربية والتعليم فنرى أشكالاً همجية من:

- الاقتحام العنيف المدمر للأبنية والخرائط فضلاً عن السرقة.
- سرقة حتى الأبواب والمكاتب والملفات والكتب والوثائق وأجهزة الحاسوب والديسكات والسيرفر والفيديو.
- تفجير حتى الأبواب المعدنية وسقوط القواطع والتخريب.
- تحويل أكثر من خمسين مدرسة لتصبح ثكنات عسكرية.

وصل الأمر إلى التعليم العالى والبحث العلمى فرأينا الكثير من صور الاقتحام والتفجير والتدمير بشكل همجى مخيف.

- وتفجير أجهزة الحاسوب وآلات التصوير والوثائق والطابعات والأجهزة المرئية والمسموعة لتقوم بتفجيرها ومرة واحدة.

ـ وتفجير الأبواب والنوافذ والجدران والقواطع وأحرقت السجاد والمكاتب والأثاث.

ـ احتلال جامعة النجاح فى نابلس وسيطرة على جامعة القدس المفتوحة والمؤسسات الأهلية.. إلخ. هل نستمع الآن إلى تبجح وسائل الصحافة الأجنبية بأن إسرائيل دولة تحترم الثقافة حقًّا ولا تمارس الإبادة أو هدم الحضارة.

ونخرج من الرسالة الفلسطينية أو اليونسكية!! حتى تستمر وكالات الأنباء العربية والغربية لتنقل لنا مشاهد وصورًا محزنة:

ـ تحطيم الأبنية بكل ما فيها من ثقافة وتراث لمجرد أنها فلسطينية.

ـ تدمير كل محطات التليفزيون والإذاعات الخاصة.

ـ تدمير كل شيء عن البث والفن والموسيقى.

تنقل لنا الكاتبة الفلسطينية المعروفة سحر خليفة التى خرجت من رام الله منذ عدة أيام فقط هذه الصورة: احتل الإسرائيليون وزارة الثقافة الفلسطينية.. لشهر ونصف شهر، وعندما ذهبنا إلى وزارة الثقافة بعد خروجهم منها وجدنا داخل المكاتب أطنانا من الفضلات والبراز وزجاجات البول التى كانت أصلاً زجاجات معدنية.. فضلا عن تلطيخ الحائط والملفات والأثاث بالبراز والبول وسائر المخلفات. والصور لا تنتهى، والمشاهد لا تنقطع، فلا تزال القوات التترية تمارس هوايتها الوحيدة فى الدخول والخروج من المدن والقرى، وتحطم كل رموز التراث وصور الثقافة، وتغلق كل الطرق أمام الصحفيين والكتاب وطلبة الجامعات.

هل نتحدث عن حضارة إسرائيل التى ترددها فى العالم، أم نعود إلى ديمقراطية إسرائيل التى ما زال بعض كتابنا مخدوعين بها، أم نشير إلى

الفولكلور الإسرائيلى المنهوب والمسروق من التراث العربى أو الصور والمشاهد القائمة التى لا تنتهى؟

والآن لنعد إلى هذه الأوراق التى بين أيدينا سواء من اللجنة الوطنية الفلسطينية أو اللجنة الوطنية اليونسكو، ونتمهل عند تساؤلاتنا الحيرى الكثيرة فبمجرد أن تمهلنا استغاثة المسئول الفلسطينى، أو الكتاب اليونسكى (نسبة إلى اليونسكو) فى لجنة الدراسات الأدبية بالمجلس الأعلى للثقافة ـ ضمن لجان أخرى ـ واستمعنا إلى إشارات د. صلاح فضل واستعراضه لهذه الاستغاثة العربية أو النداء اليونسكى حتى اندهشنا:

ـ ماذا نفعل الآن؟

ـ وإذا أردنا أن نفعل شيئًا فماذا يمكن أن نكون فاعلين؟

ـ وما هو موقفنا من لجان تقصى الحقائق التى أعلن عنها من آن لآخر أمام الاعتداءات الإسرائيلية على التراث العربى الفلسطينى؟

ـ وما أهمية كل هذه الاجتماعات والندوات التى تعقد من زمن فى بلادنا للحث على الإدانة أو الاتهام؟

ـ هل ندعو، مع من يدعو، إلى إقامة محكمة لجرائم الحرب ضد الثقافة؟
ـ وإذا دعونا إلى ذلك، وتحمسنا له، ووقفت بجانبنا الهيئات الأجنبية وبعض المثقفين الغربيين فمن يعنيه الأمر، أقصد، من يستطيع أن يهتم بذلك بهدف تغييره؟ من يملك؟

ـ ماذا نفعل بالاستغاثة العربية؟

ـ أو يفعل النداء اليونسكى للعالم؟

ـ من يجيبنا ونحن نحتفل ـ ما زلنا ـ بذكرى مرور نصف قرن على ثورة يوليو وعبد الناصر؟

ونتذكر دائمًا بيت الشعر الذى قاله المتنبى منذ أكثر من ألف سنة وهو يخاطب سيف الدولة الحمدانى:

سوى الروم خلف ظهرك روم

....

الديمقراطية.. والأمن العربى!!

هذا أهم ما قرأناه فى الفترة الأخيرة..

لقد أظهرت الأحداث المأساوية فى الأراضى الفلسطينية وبما لا يدع مجالًا للشك، الحاجة لرؤية جديدة لنظام الأمن الجماعى العربى، تجعلها أكثر توافقًا مع التغيير الذى طرأ فى العلاقة بين الأمن الدولى والأمن العربى من جهة، والعلاقة بين الأمن العربى ككل، والأمن القومى لكل من الدول العربية من جهة أخرى.

وهذه العبارة وردت فى خطاب الرئيس الأخير، وهى عبارة لا تدل على الوعى الفائق بشرط الوجود فحسب، وإنما ـ أيضًا ـ بتعميق الدور الذى يجب التنبه إليه كى تتحول الأقطار العربية إلى «كتلة» واحدة أو «وحدة واحدة» واعية بخصوصياتها وبشروط استمرار الوعى بين الأمن العربى والوعى الديمقراطى خاصة فى مقابل الكتل أو الوحدات الأخرى فى عالمنا المعاصر كالاتحاد الأوروبى أو روسيا الاتحادية، بوجه خاص وفى مقابل العنصرية الديمقراطية التى نجدها الآن فى إسرائيل والولايات المتحدة الامريكية..

وهذا التحول مرهون بشكل ما بطريقة الحياة التى نختارها.

أو النهج السياسى الذى نتبعه فيكون مركز الوعى لوجودنا العربى.

إن ما يحدث حولنا يدفعنا دفعًا للبحث عن الأمن.

والأمن يدفعنا دفعًا للبحث عن شروطه.

واهم شروطه هنا، والآن، هو، البحث عن الوجود السياسى العربى الذى يمكن تحقيقه والحرص عليه.

هذا وغيره ما تعبر عنه مجلة «الديمقراطية» التى يتصادف صدور العدد الجديد لها ـ الخامس ـ مرور عام على هذا الإصدار الجديد..

والقراءة فى هذه الأعداد تؤكد العلاقة الوثيقة ـ التى تهمنا هنا ـ بين الأمن العربى وحضور الديمقراطية

وهى علاقة أكيدة وعضوية..

وهو ما يثير فينا الكثير من الملاحظات والتساؤلات فى الديمقراطية الغربية.

(2)

لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال أو ذاك دون أن نعود للعدد الأخير، إذ أن هذا العدد يشير إلى قضية الأمن داخليًّا، كما أنه يشير إليه خارجيًّا، فالديمقراطية من أهم عناصر الوجود فى معركتنا فى بداية الألفية الثالثة، ونظرة عاجلة على القضايا التى احتواها العدد ترينا العلاقة بين الديمقراطية والعديد من القضايا والإشكاليات الأخرى التى نعيش فيها، نقترب من العناوين العامة ـ على سبيل المثال ـ فنقرأ فى إطار الديمقراطية والتفاعل معها سلبًا أو إيجابا «المشروع السياسى الإسلامى الديمقراطية والأمن القومى.. دراسة مفهومية للوثائق السياسية.. الإرهاب المزدوج.. الحركة الإسلامية المصرية والديمقراطية بين الإرهاب والمقاومة و.. الحضارات بين الصدام والحوار حركات التطرف بين الديمقراطية والأيديولوجيا..

فضلاً عن فضاءات كثيرة حول ثقافة الديمقراطية ورؤى عنها..) إلى غير ذلك.

والمتأمل لهذه العناوين فى العدد الخامس سرعان ما يدرك درجة الثراء فى هذه القضايا طيلة العام، خاصة، وقد شهد هذا العام ـ وهو ما يهمنا هنا ـ عقب انفجار سبتمبر هذه العنصرية الأمريكية الشرسة، ثم هذه العنصرية الصهيونية الأكثر شراسة ووقاحة فى عالمنا المعاصر..

ودعك الآن من ضعف الديمقراطية فى عديد من الأقطار العربية، وعبورا فوق شواهد ضعف الديمقراطية العربية لدينا فقد أسهبت حولها رئيس تحرير هذا الإصدار د. هالة مصطفى فى تساؤلاتها الضافية حول «المشروع السياسى الإسلامى..» والصراعات الدموية والانشقاقات الحادة بين التيارات.. إلى غير ذلك مما أحدث فجوة كبيرة بين إعلان بعض فصائل وتيارات الحركة الإسلامية بقبول الديمقراطية، من حيث الشكل وبين التزامها الفعلى بمبادئها وأفكارها، فضلاً عن قواعدها فى الممارسة..

ولسنا مخولين بالدفاع عنه ـ هذا النظام الإسلامى ـ أو عنها ـ الأقطار العربية فنحن جميعًا نعرف جيدًا بواعث هذا الضعف وما ينتهى إليه..

إن تشخيص الواقع العربى لم يعد ظاهرة تستدعى الدراسة واستدعاء الملاحظات وإعادة طرح التساؤلات، ومن ثم فإن العوامل الخارجية التى بدت أكثر وضوحًا وكشفًا لمناطق كثيرة هى التى تهمنا هنا، ونقصد بها هذه الديمقراطيات الغربية التى يتشدق بها الغرب كثيرًا دون أن نجد ـ قبل 11 سبتمبر وبعدها ـ أدنى ملاحظة تشير إلى الإيجاب..

لا يعنى هذا أن العوامل الخارجية فقط هى التى تقوم ضدنا بالدور السلبى، وإنما أيضًا العوامل الداخلية، غير أن ما نراه من الغرب يؤكد لنا خيانة الديمقراطية فى بلاد الديمقراطية..

ولنتمهل أكثر عن المشاهد المأساوية من الغرب لنرى إلى أى مدى يهدد الأمن العربى من هذا النظام العالمى الذى يتحدث كثيرًا عن الديمقراطية والحرية.. وما إلى ذلك من القيم المزعومة.

(3)

الديمقراطية فى الغرب هى التى تضحكنا وتبكينا الآن.

فمنذ زمن ليس بالقريب عرفنا جيدًا ممارسات الغرب لهذه الديمقراطية، ديمقراطية الغرب، أو الديمقراطية من أجل الغرب فقط، وليس من أجل الأمريكيين الحمر (الهنود الحمر) قبل ذلك، كما أنها ليست للعرب السمر (بعد ذلك).

الأكثر من هذا، نستطيع ان نوافق العديد من الباحثين الذين يرون أن خيانة الديمقراطية فى الولايات المتحدة الأمريكية هى ما أدت إلى حدوث انفجارات سبتمبر 2001، التى مثلت تهديد غير مسبوق للأمن القومى الأمريكى.

وهو يشير إلى أنه فى حالة تهديد الأمن القومى فى بلد يؤكد علاقة الارتباط.. بين الديمقراطية والأمن القومى، ويضرب سعد أبو عامود على ذلك مثالاً بأن التهديدات الخارجية والداخلية التى تواجه عددًا من الدول الآن بعد أن بدأت الولايات المتحدة الحرب ضد ما تسميه الإرهاب إنما ترجع إلى غياب الديمقراطية فى هذه الدول، الأمر الذى فتح الباب أمام إمكان تعرضها لهجمات خارجية من جانب قوى التحالف الدولى، بعبارة أخرى تتخذ الولايات المتحدة وحلفاؤها غياب الديمقراطية كذريعة أساسية لأعمال التدخل فى شئون الدول الأخرى، كذلك فإن النموذج الأفغانى يستحق التأمل، فقد أدى الجمود الذى اتخذته حكومة طالبان فى أفغانستان إلى استمرار الحرب الأهلية فى هذا البلد، الأمر الذى أتاح

الفرصة للولايات المتحدة، وحلفائها تحقيق نصر سريع على هذه الحركة التى تهاوت على نحو غير متوقع.

الأكثر من هذا أن أمريكا كشفت عن وجهها الحقيقى عقب 11 سبتمبر، فبعد أن كانت العولمة قناعًا يخفى وراءه الهيمنة الاقتصادية والثقافية، تحولت العولمة بعد ذلك إلى عولمة عسكرية لم تتردد فى استخدام كل الوسائل ضد الديمقراطية باسم «محاربة الإرهاب»..

الواقع أنه لم تكن محاربة الإرهاب وإنما هو محاربة الديمقراطية المزعومة، وأبسط دليل على ذلك هذه القوانين الأمريكية التى صدرت عقب هذا الانفجار خاصة، فإذا بنا أمام تمزيق شبه تام لقناع الديمقراطية وظهور فرانكشتين الأمريكى بغير تردد، وفى قانون (الإرهاب) الذى صدر بعد 11 سبتمبر بأيام نلاحظ إطلاق صراح العديد من الإجراءات ضد كل ما هو ديمقراطى، أصبحنا نعرف ـ بموجب هذا القانون ـ على سبيل المثال ـ إطلاق سلطة التصنت على المكالمات التليفونية والإليكترونية فقط لمجرد الاشتباه «أين القضاء؟» احتجاز أى أجنبى دون التقيد بأية أدلة ثبوت (أين القانون؟) السماح للمحققين باستخدام كل الأساليب ضد الديمقراطية كمراقبة الرسائل الخاصة وفتح المغلق كالبريد الإليكترونى (أين الحرية؟) ثم هذا التجسس على المكالمات التليفونية دون ضوابط أو سبب للاشتباه (أين المبادئ؟) اعتقال اى شخص من أية جنسية دون التمهل والحصول على أذونات قانونية (أين العدالة؟).. إلخ إلخ.

ونستطيع بعد ذلك أن نضرب الحائط بكل قيم الفردية والخصوصية التى كنا نسمع عنها فى الحديث عن الديمقراطية الأمريكية..

الأكثر من هذا أننا نسمع الرئيس الأمريكى يردد أكثر من مرة عقب انفجار سبتمبر مباشرة مقولته أن من هو ليس مع أمريكا فهو ضدها، هكذا،

ضاربًا أى شعار أخلاقى عرض الحائط، ضاربًا الحائط بأى معنى من معانى الديمقراطية فى التعددية: تعددية الرأى أو تعددية الموقف.

.. كما أنه ردد أكثر من مرة أن إسرائيل دولة ديمقراطية تدافع عما يريده شعبها، ونحن هنا لا نستطيع القول إن الرئيس الأمريكى لا يعرف الحقائق جيدًا، وإنما يعرفها بكل ما فى يده من سلطات، وإلا فإن المعنى الحقيقى غير صحيح، فليست الديمقراطية بأية حال أن تقوم دولة ديمقراطية (إسرائيل) باجتياح وذبح أطفال ونساء عزل لشعب آخر.

ولا يكون علينا أن نبذل جهدًا كبيرًا لندرك أن الشعب الديمقراطى يترك لأعلامه الحبل على الغارب ليعطينا فى دولة ديمقراطية!! معنى من معانى غياب الديمقراطية حين يسمح للصحف بأن تعبر عن الرأى الآخر (النيويورك تايمز) مثلاً وإلا واجهت شحًّا فى الاشتراكات وهددت، وأن يترك شبكة «فوكس» لتؤيد صراحة وجهة النظر الصهيونية بتعصب ولا أخلاقية، ثم يسمح لعديد من الشاشات الزرقاء بالهجوم العنيف على شعب أعزل لا يملك شيئًا أمام الأباتشى الأمريكية والبلايين التى تترجم فى أسلحة محرمة دوليًّا..

وإذا كانت هذه هى الديمقراطية، فلنا أن نتخيل - إذن - وجه الديمقراطية العنصرية، أو الأكثر عنصرية فى إسرائيل ضد أهلنا الآن فى الأرض المحتلة..

ألا يجعلنا هذا كله نعود إلى خطاب الرئيس الأخير لنستعيد رؤية جديدة لنظام الأمن الجماعى العربى، تجعلها أكثر توافقًا مع التغيير الذى طرأ فى العلاقة بين الأمن الدولى والأمن العربى من جهة، والعلاقة بين الأمن العربى ككل والأمن القومى لكل من الدول العربية من جهة أخرى.

المثقف.. والمشهد فى الجزائر

أين المثقف فى المشهد الثقافى بالجزائر؟

قبل أن يتم تنصيب الرئيس الجزائرى رئيسًا للبلاد بيوم واحد (الاثنين) الماضى كانت تعقد فى القاهرة ندوة حول المشهد السياسى والثقافى فى الجزائر، وأثير فيها - ضمن ما أثير - قضية موقف المثقف الجزائرى ودوره فى هذه الفترة الخطيرة.

الندوة أقامها معهد الأهرام الإقليمى للصحافة (بتشجيع الزميل أسامة سرايا) وكان من المفروض أن يحضرها سفير الجزائر الذى اعتذر فى الساعات الأخيرة وجاء ممثلاً عنه كل من المستشار الإعلامى والسياسي، كما شارك فيها الكاتب كامل زهيرى وأدارها كاتب هذه السطور وأثيرت خلالها أسئلة كثيرة، كما تصاعدت تشابكات عديدة مرة عن العلاقة بين السياسى والثقافى ومرات بين القاعة والمنصة وكان أهم ما ساد الندوة فى نهايتها هو السؤال حول دور المثقف الجزائرى كنموذج للمثقف العربى):

أين المثقف فى المشهد الجزائرى اليوم؟

ومن هو هذا المثقف..؟

وهل توجد حدود فى بلادنا بين السياسى والمثقف..؟

إلى غير ذلك من الأسئلة التى لا تثار على الواقع الجزائرى فقط، وإنما تمتد لتشمل أقطارنا العربية كلها.

[2]

ولأن الفترة التى نعيشها فترة حساسة بالنسبة للجزائر الشقيق، خاصة فترة تنصيب الرئيس الجديد، فقد كان لا بد من الإشارة إلى كثير من المواقف التى تعهد باتخاذها السياسى عشية الانتخابات، وترقبت على المستوى الشخصى من المواقف التى يتخذها الرئيس الجديد فى حضور المثقف الحاضر الغائب، والأمثلة عديدة لبعض المواقف الإيجابية للرئيس المنتخب، فهو وعد - على المستوى الداخلى - الاهتمام بالحوار مع المعارضة واعد خطة بالعفو وأعلن اهتمامه بالأزمة الاقتصادية وأزمة البطالة.. إلى غير ذلك، وأكد - على المستوى الخارجي - رفض التعامل مع الناتو (حلف شمال الأطلنطى) بإقامة علاقات خاصة ضمن مشروع«الشركة من أجل السلام»، وكان أهم ما يلفت النظر فى موقف الرئيس الجديد رفضه - حتى قبل ترشيحه - التطبيع مع إسرائيل.. إلى غيره، يلاحظ أن هذا كله فى غيبة دور المثقف أو فعاليته المنتظرة.

ولا نريد أن نعيد ما يلفت النظر فى غيبة المثقفين أيضًا مواقفه من حزب جبهة التحرير الذى كان وراء ترشيحه أو موقفه من الديمقراطية فى وجود السلطة الحاكمة، مما يطلق عليه البعض بالقوة أو بكلمة السر التى تعرف فى الجزائر جيدًا إذا جاء ذكر القوة المهيمنة على الحكم بأنها الـ Le Pouvoir.

إنها السلطة السياسية.

وكلمة السلطة هنا - وهى سياسية - تثير وظيفة سلطة أخرى - وهى ثقافية - فإذا كانت السلطة الأولى هى عسكرية فى المقام الأول، فإن السلطة الأخرى ثقافية بالضرورة، وهو ما يذكرنا بتساؤلات المثقف والناقد الفرنسى المعروف رولاند بارت فى كتابه أبحاث نقدية (Essie De Critique ص 741) حين راح يطرح أسئلته الدالة: من يتكلم؟ من يكتب؟ منتهيًا من التحليل السوسيولوجى إلى أن قضية الكلام والكتابة هى - فى حد

ذاتها سلطة- يجب التنبه إليها دائمًا، غير أن هذا التنبه يأتى فى طور ممارسة هذه السلطة لوظيفتها أو دورها..

وهو ما يصل بنا إلى دور المتكلمين (المثقفين) مع - أو ضد - الفاعلين (السياسيين).. وهو ما يعود بنا للسؤال الأول:

أين المثقف فى المشهد الجزائرى اليوم؟

فمن هو هذا المثقف الآن ؟

ربما كانت الإجابة عن السؤال الأخير بداية للإجابة عن السؤال السابق.

[3]

والمثقف نجد له تفسيرات كثيرة لدى عديد ممن كتبوا عنه منذ فترة مبكرة من تاريخنا، ربما كان أهمهم فى هذا المقام تعريف عبد الله العروى لأنماط المثقفين، فراح يرى أن المثقف فى بلادنا بشكل عام يمكن أن تتحدد فى أنماط ثلاثة هى على التوالى:

- الليبرالى.
- رجل الدين
- رجل العلم

وطرح الأنماط بهذا الشكل يجعلنا أمام اتساع دائرة التعريفات على مستوى المثقف العربى فى الأقطار العربية كلها، غير أنه فى «الحالة» الجزائرية، فإن الكتابات التنظيرية الأخيرة تحدد لنا المركز أكثر حين تتوقف عند المثقفين الجزائريين، فالبحث عن إجابة لمدى أدوار المثقفين الجزائريين تضعنا - لدى باحث آخر - أمام طرح فرضيات ومقترحات أخرى حول المثقفين فى الجزائر.

يرى عبد الله العروى أن المتكلمين ومنتجى الخطابات والبيانات فى الواقع الجزائرى والعربى هم ثلاثة أطراف اجتماعية وفكرية، فاعلة فى ثلاثة

قطاعات، توجد فى ثلاثة أجناس وأنواع من الملفوظات الفكرية والأيديولوجية متداخلة ومتقاطعة، مكررة اتباعية وإبداعية، فوضوية ولا نظامية، مختلف المراجع والإحالات والنماذج والمعاير، وهذه الأنماط هى على التوالى:

- الليبرالي
- عالم الدين
- رجل التقنية

ولا نستطيع فهم هذه الأدوار بشكل منفصل، فالتعريفات العملية لها تضعها دائمًا فى أشكال متقاطعة، فالسياسى - على سبيل المثال - يعمل على تسيير حركة المجتمع، غير أنها فى الوقت نفسه هى التى كبحت نمو الحركات الجمعوية وتنظيمات المثقفين والجامعيين الحرة الذاتية - على حد تعبير عمار بلحسن بجامعة وهران بالجزائر - وهو ما يعنى أن تكوين جبهة فكرية أو حتى إنشاء مجلة أو جمعية ثقافية يقود إلى متاهات بيروقراطية أو إلى مصالح خاصة أو أيديولوجية تبدت أكثر فى السبعينيات ومضت أكثر فى الثمانينات.

وبعيدًا عن الاستطراد فقد خفت دور المثقف المهمَّش فى الجزائر، وأصبح المثقف الفاعل فى هذا الصدد ملحقا بالبيروقراطية السياسية، ونحن نعلم حال هؤلاء المثقفين الذين كانوا يسعون - فى حضور السياسى - إلى سلك مسالك مغايرة لطبيعة الدور الثقافى، كأن يصبح الدور الثقافى إعادة إنتاج للخطاب السياسى اليومى، فهاجر من هاجر وانصاع من انصاع.

وهكذا كانت النتيجة أن شهدت جماعات المثقفين والإنتلجنسيا انفراط عقدها وتشتت أعضائها وغياب أصواتها وانعدام أية فعالية أو حضور لها كسلطة أخلاقية وفكرية وثقافية.

هذا عن الخطاب الأول أما الخطاب الثانى - العالم أو رجل الدين - فقد انتهى إلى مثل هذا المصير مرة باندماج العلماء ورجال الدين فى فترة مبكرة فى البيروقراطية السياسية، ومع أنه ظهر عدد من العلماء - فيما بعد - حاولوا الدعوة إلى أسلمة الدولة، فإن الحصاد النهائى لدور المثقف العالم (بكسر اللام) مفرغًا من دور فعَّال.

حتى إذا ما انتهينا إلى النمط الثالث المثقف أو المفكر، فإن هذا المثقف دون الدخول فى التطور التاريخى وجد نفسه فى محاولة للتاثير بين اثنين: بين إرادة الممارسة وطموحها كمثقف ومنتج فاعل للقيم الاجتماعية والمعرفية والأدبية وبين رغبة حادة للالتحاق بالسلطة السياسية عبر الاستوزار أو التسفير أو التعيين أو الإلحاق بالتمثيليات الثقافية الخارجية أو الدولية أو الاستقرار والعيش فى أوساط ثقافية فرنسية وأوروبية وعلى هذا وجدنا أنفسنا أمام عاملين مهمين، أحدهما هيمنة السياسى على الثقافى وثانيهما غموض سياسة الدولة اللغوية فى الجزائر وتناقضها، الأمر الذى ولد انغلاق التعبير، وتوزع عالم المثقفين.. إلخ.

وعلى هذا أصبحنا إما المثقف الذى انحاز للبيروقراطية السياسية وأما المثقف المنعزل عن القيمة السياسية، أو أما هذا المثقف الذى عبر عن فئة المتفرنسين الذين ينتمون فى الغالب - إلى ولاءات غربية أو ذاتية..

وعلى هذا النحو، غاب المثقف الجزائرى بين بداية الستينيات إلى بداية التسعينيات فى توترات واتهامات وثقافات غير عربية وسلفية، فلم يستيقظ القوم كما يقول البعض إلا مؤخرًا على ضجيج وهدير مسيرات الحركة الدينية والإسلامية «وثقافة» المجتمع الدينى، وخطابات «الأئمة الجدد» واكتشفوا مأساة الديمقراطية وتراجيديتها فى مجتمع مسيس، من دون أى عمق فكرى أو ثقافى مكتوب ومنشور.

لقد أصبح المشهد الجزائرى الآن، بشهادة الكثيرين على هذا النحو: غياب المثقفين من الساحة وارتفاع صوت الساسة الجدد.

وبرز هذا أكثر فى فترة الانتخابات الأخيرة، وهو ما صحونا عليه أيضًا إبان تنصيب رئيس جديد للجزائر اليوم.

كان هذا كله يثار إبان هذا الحوار الذى كان يجرى بين المنصة والقاعة فى ندوة الإثنين الماضى، وهو ما دفع بعض الجزائريين لينزع الميكروفون ليعلق على ما أثير حول دور المثقف الجزائرى الغائب.

[4]

بدا هذا يظهر رويدًا رويدًا ووصل إلى قمته حين تساءلت عن دور المثقف الجزائرى أين هو؟ أو أين «سلطة» المثقف فيما يحدث فى الجزائر.

جاء هذا عقب حديث كامل زهيرى حول أن ما حدث فى الجزائر أخيرًا كان لأن الثورة كانت قوية والدولة ضعيفة، فالانتقال من الثورة والدولة كان لا بد أن يحدث مشاكل، وهو ما جعلنى أبحث عن دور المثقف فى هذا كله وبعده، ورحت أقرأ من كتب أديبة حاضرة شهادة جزائرية، قالت حبيبة محمدى الجزائر تحتاج إلى مفكرين وفلاسفة أكثر من حاجتها إلى ضباط جيش أو كتيبة وزراء. وإلى مبادئ صارمة وصادقة..(و).. لا من يمسك العصا من الوسط.

وراح كاتب جزائرى يعيش فى القاهرة - خالد عمر بن ققة - يشير إلى هذه الظاهرة، ظاهرة تأثير - لا وجود - المثقفين الجزائريين وفعاليتهم.

وراح عدد آخر بعضهم جزائرى وبعضهم مصرى يشير إلى محنة المثقف المؤدلج فى السياسة أو المؤدلج فى العقيدة دون التنبه لمعطيات العصر أو المقيد فى شبكة السلطة بفضل انتهازيته أو «فرنسته» أو حتى هذا المثقف «المهمَّش» بعيدًا عن أى منبر تأثير لأنه آثر العزلة.

لقد ترددت فى القاعة أسماء مثقفين جزائريين كثيرين إما فى الهجرة فى

الخارج أو الهجرة فى الداخل - وكلاهما - بعيد عن حركة الأفكار الفعَّالة أو دائرة التأثير أو حتى دائرة وجودها كسلطة فاعلة إزاء السلطة الحاكمة.

لقد غابت سلطة الثقافى أمام سلطة السياسى.

وإذا لم نصدق هذا فلنعد إلى المشهد فى الجزائر مرة أخرى.

مثقف العولمة.. العربة أم الحصان؟

ما هى علاقة العربة بالحصان هنا، وما دلالة التعبير الذى يطلقه البعض حين يحاولون التدليل على أمر معكوس فيقولون: تم وضع العربة أمام الحصان أو يجب وضع ثقافة السلام - أخلاقيًّا - قبل أية ثقافة أخرى، ثم ما هى دلالة العربة والحصان ونحن نناقش موقف مثقف العولمة من قضايا عصره ؟

.. هذا هو الانطباع الغريب الذى يلاحظ فى اكثر من مؤتمر طيلة التسعينيات، نتحدث فيه عن المثقف ومثقف العولمة، ثم مدى إيثاره لقضية السلام حين يصل الأمر بعلاقتنا من الطرف الآخر فى قضية الحرب والسلام، وأعتقد أنه ما من مؤتمر أو ندوة أو مداخلة أو حوار داخل الورق أو خارجه إلا وسمعنا أو قرأنا مصطلحات كثيرة من قبيل ثقافة السلام أو ثقافة الحرب، ثم راح البعض منا يتوقف عند المصطلح الأول ثقافة السلام فيسأل وهو يشخص بعينيه عن موقف الطرف الآخر: لماذا لا ننتمى لثقافة السلام ؟

وما يلفت النظر فى هذا كله أنه ما من مؤتمر يبدأ فيتخذ له موضوعًا بعينه إلا وينتهى، وفى توصياته توصية مكررة ضد ثقافة السلام وضد ما يعرف برفض «التطبيع» مع الطرف الآخر، غير أن الأمر مع عدد كبير من مثقفينا لا يتوقف عند هذا الأمر أو ذاك، وإنما يبرز «دائمًا» عدد غير قليل من مثقفى عصر العولمة فى التسعينيات ليتحدثوا فى «براءة» عن ثقافة السلام، وما يجب

أن نفعله لنكتسب هذه الثقافة التى هى - وبالنبل أخلاق هذه الفئة - ضدثقافة الحرب!! وتستمر التساؤلات: لم لا نراهن على قوى السلام داخل إسرائيل، ولمَ لا.. ونتوقف عادة أمام ردود الأفعال - وهى غالبًا تكون فى مناقشات المؤتمرات.

لنسأل أية ثقافة، وهل يجب دائمًا - ونعود للسؤال التقليدى - أن نضع العربة أمام الحصان؟

لكن قد يظل هذا كله ضربًا من الحوار الغامض إذا أحسنا الظن، وهو ما يدفعنا إلى إعادة طرح السؤال: ما علاقة هذا كله بما نريد أن نقوله ؟

لنتمهل، أكثر عند مثال بعينه، قبل أن نعاود الإجابة.

[2]

المثال هنا يتوقف بنا عند هذا المؤتمر الذى عقد منذ عدة أيام فى أحد الفنادق الكبرى تحت عنوان «مؤتمر الحوار الأوروبى العربى الشعبى»، وهو يستمد أهميته - كما نري- ممن يشاركون فيه: المركز الوطنى للمنظمات غير الحكومية للسكان والتنمية NCPO، والهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية CEOSS

ويشهده عدد كبير من العرب والأوروبيين من شتى أنحاء العالم.

ويستمر الحوار بالفعل ثلاثة أيام، وتدور فيه الحوارات بين الشعوب بلغات عدة، ويمضى فى وتيرة تحسين العلاقات بين الشعوب العربية والأوروبية لتحقيق تنمية مستديمة لا تعطلها الصراعات العرقية أو الدينية أو الأيديولوجية، ونلحظ هذه الروح الحضارية فى اليوم الثالث فى جلسة مفتوحة، حيث يفتح النقاش بين المنصة والقاعة ليستمر الحوار الذى يدعو إلى الحوار بين الشعوب، ولكن فجأة - نستمع فى السياق - وكأنه شيء عادى - من يتحدث عن ثقافة السلام.

نحاول أن نلتفت إلى صوت المثقف الذى يتحدث أخلاقيًّا فى مؤتمر لتحسين العلاقات بين الشعوب، فإذا بنا نكتشف رويدًا رويدًا أننا أمام مثقف العولمة السعيد، المثقف الذى أدمن الوقوف فى المؤتمرات العامة، ويكتب فى الصحف المهمة، ويصيح بين رحلات الخارج ناصحًا إيانا بأننا يجب أن نتخلى نحن الشعوب المعتدى علينا ثقافة السلام، ولأنه لا يبقى بين الشعوب - كما يردد - غير ثقافة السلام فإنه يجب الدفاع عنها بأية صورة، ولأننا نركز فى ورقة العمل هنا فى الحوار على البعد الثقافى - كما نقرأ فى ورقة العمل، فإن ثقافتنا لا بد أن تنتمى إلى الموقف المسالم مع إسرائيل لنسعى إلى غاياتنا، وبهذا نكون شعوبًا متحضرة تصل إلى غاياتها بأسلوب العصر.

هكذا حدثت نفسى وأنا أستمع إلى هذا المثقف أو ذاك، وتذكرت دعاة السلام كما يطلقون على أنفسهم، أما نحن، وبرغم أننا قدمنا كل شىء لنبدو أننا شعوب سلام، فيجب أن نستمر هكذا فى الانتماء لثقافة السلام التى هى، بالضرورة، نقيض ثقافة الحرب.

تقف د. منى أبو سنة، تطلب الكلمة، فتدعو لتأسيس السلام بين الشعوب، ففى إسرائيل الآن حركة للسلام، وهى حركة علمانية - وتضيف أستاذة الجامعة - أريد من الشعوب بناء ثقافة السلام، يجب أن نفتح قنوات للحوار المباشر ولثقافة السلام بين الشعوب العربية والشعب الإسرائيلى، ولا سيما مع حركات السلام هناك: وسوف يشكل هذا - تشدد على الحروف - ضغطًا على الحكومة الإسرائيلية، ولا سيما حركات السلام الإسرائيلية..

تنفض أكثر من مشاركة، تطلب مرأة سورية الكلمة، تقول نوال يزجى بالحرف إن منى قدمت اقتراحًا ووجدت أنه لا بد من مناقشته خشية من أن السكوت على الاقتراحات التى لا يناقشها أحد فى المؤتمرات، ربما يؤخذ بها، وللتوضيح أكثر: فإن اقتراحها كان يتناول موضوع حركة السلام فيما يتعلق

بالصراع العربى الإسرائيلى، إن هذا لا يخص العرب إنما يخص إسرائيل، أعتقد أنه لو كان هذا الاقتراح قدم بالشكل التالى: إنه على الشعب الذى يعيش فى إسرائيل أن يقوى حركة السلام ويضغط على حكومته بضرورة تبنى سلام شامل وعادل بالمنطقة العربية لكنا قبلنا الاقتراح.

نحن لسنا ضد السلام، ولكن السلام ليس شروطه الإرهاب وعدم ترك الأراضى المحتلة.. نحن مع سلام عادل وشامل - تضيف - بشرط إعادة الأرض العربية لأصحابها، بشرط تنفيذ المواثيق الدولية، بشرط ترك السياسة العدوانية التى يعامل بها الشعب العربى، عندئذ يمكن أن نتحدث عن حركة السلام بما يحقق هذا الاقتراح.

تعود د. أبو سنة إلى الاستطراد، تضيف.. أنا لا أتكلم فى السياسة وإنما فى الثقافة، أدعو لتأسيس «ثقافة سلام» بين الشعوب، توجد الآن هناك «جماعة للسلام» لا تنتمى للسياسة وإنما للثقافة، لجنة فى إسرائيل تدعو بحركة السلام وهناك جماعات علمانية وأحزاب تساند الفلسطينيين أكثر من بعض الدول العربية وبعض الدول الأوروبية، أننى أريد - تضيف - وعلى مستوى الشعوب تبنى ثقافة السلام، لا أنكر أن هناك موقفًا لدى الإسرائيليين كما عند العرب، إذن نريد القضاء عليه خلال التعليم، وقد حضرت بالأمس اجتماعًا للتعليم يعمل على مستويات ثلاثة عظيمة: المسيحية واليهودية والإسلام، وهذا هو بالضبط ما أتحدث عنه، ليس لى علاقة لا بالحكومات، ولا أدعو للتطبيع.. أتحدث عن موضوع آخر تمامًا..

ارتفع اللغط فى القاعة الواسعة، طلبت ممثلة فلسطينية الكلمة، حملت غاد رباح من فلسطين الميكرفون وهى تقول كلمات بسيطة.. إن الموضوع ليس أن يدعو الشعب الفلسطينى للسلام - مثلاً - وإنما الموضوع يتعلق بالإسرائيليين، إذا كانت هنا جماعات إسرائيلية تعمل للسلام فهم غير

فاعلين لأنهم - كما يرددون - ليس لديهم ميديا، وقبل ذلك لا يملكون ما يستطيعون به أن يؤثروا به على حكومتهم، لا أحب أن نتسول السلام مع إسرائيل، السلام يا سادة مع إسرائيل وليس معنا، قد قدمنا كل شىء.

يأتى صوت سوزان شمالى من فلسطين: نريد أن نكون بناة سلام، لذلك أقترح علينا أن نرفع صوتنا أمام قرارات الأمم المتحدة ضد شعوب العراق وفلسطين ولبنان.. وعلينا أن ندعو لتنفيذ مواثيق حقوق الإنسان فى أرضنا العربية بالفعل وليس القول، لكن، من يقنع الأمم المتحدة، ومن يسمع أن حقوق الإنسان فى الأرض العربية مهدرة ثم يأتى من يحدثنا عن ثقافة السلام.

يعود الميكرفون الى يد مثقفة عربية أخرى تنهض لتصيح فى الجميع: نرجو من أصحاب الأجندة الأوروبية أن يساعدوا الشعوب العربية، وبشكل محدد نرجو أن يطلبوا من إسرائيل أن تحدد أرضها، حدود أرضها التى تزعم أنها تغطيها، هل يمكن للشعوب الغربية - تضيف المثقفة اللبنانية - أن ترغم إسرائيل على تحديد خريطة بعيدة عن الأرض العربية وبعيدة عن الأطماع الصهيونية فى الاستيلاء ليس على أرض الغير فقط وإنما- أيضًا - على سلام الغير؟

تعلو الأصوات، تختلط، نترك التسجيل الذى حرصنا أن ننقل منه كلمات الوفود العربية والغربية، وكلمات دعاة السلام أو - بشكل أدق - ثقافة السلام..!

(منذ شهر كانت د. منى أبو سنة وفى ندوة عن الانتخابات الإسرائيلية بمركز بحوث الشرق الأوسط. وصفت المثقفين المصريين بأنهم ديماجوجيون، وتساءلت: من أعطى النقابات والاتحادات الرافضة للتطبيع مع إسرائيل هذا الحق المزعوم فى الرفض؟).

[3]

أية ثقافة سلام دعت إليها هذه الجماعة، إنه مصطلح يرتدى ثوبًا أخلاقيًا فى مواجهة مصطلح آخر مراوغ ثقافة الحرب، فالمعنى يشير إلى نقيضه، وما دمنا نرفض ثقافة السلام فبدهى أننا نتقبل نقيضها، وهذا لا يفسر هذا السياق الذى تعيش فيه الشعوب العربية اليوم، أو الذى يراد لها أن تعيش فيه. أن تعتنق السلام وثقافته حتى ولوكانت أرضها تحت نير الاستعمار، وتراثها يفترس ويتحول كل يوم إلى ثقافة مضادة، يفسر د. عبد الوهاب المسيرى فى موسوعته عن اليهود واليهودية فى الجزء الأول منها هذا المصطلح فيقول: تمت تعبئة مصطلح ثقافة السلام بكل الإيحاءات الممكنة وأصبح الحديث عن الحرب مهما كانت أسبابها، مهما كانت الدوافع وراءها مثل الحرب من أجل تحرير الأرض والذات على سبيل المثال أما سلبيًا وشكلاً من أشكال العنف، وكأن على الآخرين، مقابل ما تسلحت به الدكتورة من دعوي «ثقافة السلام» أن يتسلحوا بثقافة «العدل والظلم»، وإلا، فإن إصرارنا فى مؤتمراتنا على الحديث المستمر عن ثقافة السلام يضع فى الاعتبار أن الشعوب المقهورة أو المحتلة أرضها يجب أن تذعن لدعوى السلام، فيتحول شعار الأرض مقابل السلام فى الماضى إلى شعار السلام مقابل الأمن فى الأمس، ثم ها نحن نلتقى اليوم بمن يستبدل بالمصطلح الأخير الأمن مقابل السلام ولا شىء عن الأرض، ثم ها نحن الآن أمام مصطلح جديد ثقافة السلام مبتعدين عن الأرض والأمن إلى الأمن والسلام، وإلا فإن النقيض يظل الحرب، والحرب - بالطبع - معنى غير أخلاقى يجب ألا نتحدث عنه ما معنى هذا كله ؟!

أن نضع ثقافة السلام قبل ثقافة العدل والظلم.

أن نضع شيئا اسمه السلام قبل شىء آخر - لا أخلاقى - اسمه الحرب.

أن نضع العربة أمام الحصان، أليس كذلك؟

رحت احدث نفسى فى المؤتمر الذى عقد أخيرًا عبر عدة استجابات:

أين يقف المثقف الآن: بين عصر العولمة والوعى القومى؟

وما هو دور التحولات الاجتماعية والثقافية، المرتبطة بالخطاب الدينى وتأثيرة فى الأوضاع السياسية والقومية من حولنا؟

ثم كيف يتعامل مثقف العولمة مع الخطاب الدينى فى زمن تآكل بُنَى الدولة القومية؟

وزادت الهوة مع الحوار الهادئ حينًا المغاضب أحيانًا، الثائر فى أحيان كثيرة وبين ثنائيات: العام والخاص، القومية والطائفية، المحلى والعالمى.. إلخ.

كان الزمن مستمرًّاممتدا منذ بداية التسعينيات لكن الإشكالية تركزت الآن عبر هذا المؤتمرالذى دعينا إليه الأيام الماضية وأقامته الهيئة القبطية الإنجيلية وأسهمت فى إنجاحه إلى حد بعيد حول «تحليل الخطاب الدينى فى وسائل الاتصال..» وحضره عدد ضخم لبحث عن موقف مثقف العولمة بين الوعى القومى والدينى، وكان من شهوده «مع حفظ الألقاب» نبيل صموئيل والسيد عليوة وأسامة الغزالى حرب وأحمد شوقى العقباوى وأندريه زكى وعادل أبو زهرة وسمير عليش وحافظ دياب وآمنة نصير وصلاح زيدان وسوزان القللينى وجمال مظلوم وإكرام لمعى..إلخ، ونحن نورد بعض الأسماء لنرى هذا التنوع من المثقفين من شتى التيارات والعقائد والاهتمامات والمشارب.

بدت القضية - على حد تعبير البعض - تصور لنا أننا نقف فى نهر قريب فإذا بنا فى النهاية نلقى فى بحر عميق..

لنقترب إذن من النهر قبل أن نصل إلى البحر.

[2]

لا بعد عدة أيام من الحوارات الحادة، وغير المجاملة وصلت الإشكالية إلى أقصى درجة لها مع ارتفاع حدة التوتر الطائفى أحيانا (..الذى لا تنفرد به مصر فقط)، فلم تكن المنصة الجانبية لتفرغ من مثقف حتى ياتى آخر ليعلق أو يغلو فى طرح السائد أو يسهم أكثر فى ارتفاع نبض الواقع المتغير، ينظر البعض إلى الأمام بينما يلتفت البعض إلى الوراء.

ورغم هذه الحدة، فقد سعى الكثيرون إلى التعليق على بحث تقدم به فريق بحث كان على رأسه د. السيد عليوة المشرف على مركز القرار للاستشارات، والذى راح يفسر فى نهاية الندوة ما يحدث على هذا النحو.

- إن العولمة ظاهرة عابرة للقوميات والحدود الدولية، ومن ثم انتقل الخطاب الدينى فى ركابها؛ لأنه ذو طابع أممي، وعلى الوجه الآخر، فإن الطابع الطاغى للعولمة والذى يميل إلى طمس الخصوصيات الثقافية أدى إلى تصاعد حركة الإحياء الدينى والاتجاه الأصولى، أضفنا إلى ذلك أن دول الجنوب تمر بأزمة ضائقة فى التنمية فى جوانب متعددة.. كأزمات الشرعية والمشاركة والتخلف الإدارى وسوء التوزيع الاقتصادى وبالذات الهوية الثقافية والتكامل القومى..

فإذا توقفنا عند العامل الأخير: التكامل القومى، لوجدناه يتمثل فى عديد من صور التنافر بين الأغنياء والفقراء والحكام والمحكومين من أهل المدن ومن أهل الريف، من النخبة والجماهير.. إلى غير ذلك، فإذا انتهينا من هذا كله ووضعناه فى الإعتبار فى الوقت نفسه لوصلنا إلى أن التوتر الطائفى أحد هذه الصور المدمرة وأكثر فرضًا لآليات السلبية على الواقع الاجتماعى المصرى بشكل خاص.

الملاحظ أن التعليقات ووجهات النظر المتفقة والمختلفة لم تتوقف، كانت تقترب من القضية حتى لنجد صاحبها أقرب إلى تصور القومية فى رحاب

الكونية، وكانت تقترب أكثر حتى لنجد صاحبها أقرب - فى دقة صريحة - إلى تصور الطائفية فى رحاب العولمة وما ينشأ عن هذا من استجابات متوترة غير مريحة للجميع.

ولأن البحث الذى تقدم به فريق بحث كامل كان يصنف وسائل الإعلام والاتصال إلى عدة وسائل: الصحف والمجلات والكتب والراديو والتليفزيون والسينما.. إلخ.

لقد فرض السؤال نفسه: أيهما أكثر تاثيرًا من بين هذه الوسائل فى نقل الخطاب الدينى؟

وهو ما انتقل إلى ناحية أخرى.

فقد بدا أن الشاشة الزرقاء (التليفزيون) أوسع انتشارًا وتأثيرًا من غيرها فى بلد يعانى نسبة عالية من الأمية - الهجائية والثقافية - نظرًا لأن الإشكاليات الواسعة فى الصوت والصورة والجاذبية ذات أهمية بالنسبة إلى الجماهير، وإن كان يصيبها الإفراط فى الأعمال المباشرة كالأحاديث التى هى أقل تأثيرا من الأعمال الفنية والإدارية.

ثم إن هناك نوعًا آخر من الإعلام الجماهيرى خاص لدى الجماهير، وهو ما يتمثل فى ظاهرة جديدة تتزامن مع التوتر الاجتماعى، وهذا النوع الجديد المؤثر يتمثل فى استخدام شرائط الكاسيت، فهو يمكن الحصول عليه بشكل أكثر سهولة وأرخص فى الحصول وأسهل فى إمكان استخدامه، ثم تأتى شرائط الفيديو فتلى شرائط الكاسيت من حيث إمكانية استخدامها؛ لأنها مكلفة ثم تأتى فى مرتبة تالية أسطوانات الكمبيوتر CDS وهى تحتاج إلى وجود جهاز كمبيوتر لدى المستمع أو المتلقى للرسالة.

وتستمد أهمية هذه الوسائل أيضًا، لأنها تمتد من المناطق الخاصة إلى الوعاظ فى الكنائس والمساجد وفى دور العبادة بشكل عام.

وقد كان من السهل أن نستنتج أن استخدام هذه الوسائل يرتبط - فى خطورة استخدامها - بالتركيز الخارجى على رسائل معينة، وهنا يبدأ خطر العولمة التى يعمل لها فى الخارج ولا تبتعد عن مفاهيم ومؤثرات الداخل، وهو ما يجب التنبه إليه.

إن استخدام هذه الأجهزة لا يجب أن يتم اعتباطًا، وإنما يجب التنبه للدور الذى تقوم به فى هذه الحقبة الخطيرة من تاريخنا، إذ تختلط فيها ظواهر الواقع بظواهر العولمة بالأخطار الخارجية، وهو ما يمكن تخيله فى ترديد عبارات ومصطلحات كثيرة نجدها فى الصحف كما نجدها فى وسائل الإعلام، كما أن لها انعكاسها الشرطى فى وسائل الإعلام الشعبية من مثل دعاوى: حقوق الإنسان وحق الاختلاف وثورة المعلومات وحرية الاعتقاد وثقافة اقتصاد السوق.. وما إلى ذلك.

وإذا كان لهذه المؤثرات فعلها فى المثقف رجل الشارع أو للإنسان العادى، فإن فعلها يكون مضاعفًا على المثقف لو لم يتنبه إليها، فالوعى لدى المثقف فى عصر العولمة يجب أن يصل إلى اقصاه فى التعامل مع الخطاب الديني، فما زال هو الأقوى والأكثر فاعلية، حيث إن المتلقى يلتقى بهذه المؤثرات وجهًا لوجه يوميًا مع المتحدث، الذى هو المثقف..

وهنا تقع المسئولية على المثقف وقادة الرأى بشكل عام، وهو ما يمكن أن يشير إلى وعى المثقف فينأى بنفسه عما تقدم له من سموم عبر وسائل الإعلام، أو يتورط فيسقط فى مثل هذه الدعاوى الخبيثة فيجد نفسه فى موقف متباين بين طرفى المعادلة: التشدد والتسامح.

استمرت الندوات لساعات طويلة لم تنقطع فيها ردود الأفعال المستمرة.

ولم تتوقف هذه الاستجابات عند التحذير من وسائل الاتصال فقط، وإنما اتجهت أيضًا إلى الآراء التى قيلت فى «محاولة البحث..»، فقد اختلط

الوعى بإبراز الطائفى على حساب الوعى بما يحدث حولنا، بتوجيه سهام النقد لهذه الأفكار التى قيلت..

وعلى المستوى الشخصى، ومع إعجابى الشديد بكل ما يدور فقد كان عليَّ أن أختلف مع البعض.

[3]

مع أن أكثر من متحدث أشار إلى أن «العينة» التى اختيرت لم تكن موفقة، أثارنى أن يقال إن صحيفة (كذا) التى اختيرت كعينة قدمت الكثير من القيود للباحثين حين تم الاقتراب منها للاعتماد فيها علي «الصفحة الدينية».

كان عليَّ أن أوضح أنه - فضلا عن التهافت فى حجة عدم الحصول على الأرشيف فى مصر - فمن المهم أن نقول إن «المادة» الدينية ليست موجودة فقط فى «الصفحة» الدينية فى «الأهرام» فقط، وإنما فى التوجه الدينى فى أكثر من مظان، إن (الخطاب الديني) نجده فى أكثر من صفحة أخري، وفضلا عن الصفحة الدينية - فى أية مطبوعة- فمن السهل أن نعثر على هذا (الخطاب الدينى)- فى صفحات الثقافة أو - حتي - فى صفحات الفن، أو حتى فى فى (الصفحات المحلية) خاصة أن فترة البحث لم تتعد التسعينات، فلدينا - على سبيل المثال - فيلم مثل «الأرض» تحول إلى فيلم سينمائى، كان من السهل أن نعثر فيه على أنماط متباينة لعالم الدين، ومن هنا، فإن التوقف فقط عند الجانب التقنى فى البحث عن «صفحة دينية» هو مبرر غير مقبول.

أضف إلى هذا أن مصادر «الخطاب الديني» يمكن أن نجدها فى عديد من المظان الاخرى - وليس الصحف فقط - فلدينا عدد من المراكز البحثية والعلمية الأجنبية فى مصر تضطلع ببحث الصفحات والوسائل التى تقدم «الخطاب الديني» فى مصر يمكن الاستفادة منها دون جهد كبير (أليس لاهتمام هذه المراكز بالخطاب الدينى علاقة بالعولمة كما يريدونها ؟).

ورحت أعدد جهات أجنبية لها جهد غير قليل فى هذا الصدد عندنا ثم أين؟ أضفت.. أين وسائل الإعلام غير المصرية التى يمكن أن تلقى فى تيار وسائل الإعلام عندنا ويستفاد بها - ورحت أضرب أمثلة على ذلك.

غير أن أكثر ما أثارنى ما ردده بعض الباحثين من أن تأثير الراديو (الإذاعة) لا يتعدى جمهورالمثقفين فقط، فللإذاعة من المستمعين ما يجاوز فئة الأميين ويفوق أية نسبة أخرى يهتم بها من لم ينل حظًّا كبيرًا من العلم، ثم إن هناك خطابًا شفويًّا لم يهتم به كثيرًا، كان يجب ألا يفلت فى السياق نفسه.

غير أن الإنصاف يقتضينا القول أن أكثر العوامل إيجابيـة كانـت ظاهـرة «الخطاب الدينى» العام بوجهه الإسلامى والمسيحى، إذ بدا واضحًا لدى المثقف أن هذا الخطاب كان موجهًا فى عديد من البرامج إلى المصريين جميعا - كمواطنين - بغض النظر عن العقيدة.

إن الخطاب الدينى فى وسائل الإعلام المصري - وهو إنصاف لا بد من تكرار الإشادة به - كان يتم بوعى، ويركز على القيم المشتركة كالتسامح والتضامن والعدالة والأخلاق والوعى الوطنى بالتاريخ الواحد والوعى المشترك وما إلى ذلك.

وفوق هذا وذاك هذا الوعى المشترك لدينا - بجميع تباين الدينى للخطر الخارجى الذى يستهدفنا جميعًا كمواطنين بغض النظر عن العقيدة أو الانتماء العرقى الذى يصور لنا.

إن الوهلة الأولى ترينا أن مثقف العولمة عندنا حائر فى وجود هذا السيل المخيف لوسائل الإعلام التى تتدفق علينا من الخارج إلى الداخل، وأغلبها تدفع إلى الطائفية أو تنفع فى شحن أصحاب هذه العقيدة ضد هذه، غير أن التأمل فى موقف هذا المثقف كان يمنحنا اقتناعًا لا يراوده شك أنه - أى مثقف العولمة العربى - كان يسعى دائمًا إلى التنبه إلى قيم إيجابية، كأن يسعى

ليكون سدًّا مانعًا لهذه المؤثرات التى تغذى المشاعر الطائفية أو النعرات القومية، ومن هذا موقف العديد من المثقفين من قيم عامة كان يتم التركيز عليها، منها: الحرية الفردية وتدفق المعلومات وحقوق الإنسان والمجتمع المدنى مقابل سيادة الدولة وتماسك الكيان القومى والخصوصية الثقافية السياسية.

لقد أكد هذا المؤتمر أنه رغم حيرة مثقف العولمة فى مصر، فإنه كان يدرك أن عصر العولمة هذا يحمل معه فرصًا جديدة تسير جنبًا إلى جنب مع تحديات العولمة وظواهرها، فتغلبها وتتغلب عليها، إن أهم ما يحمى النسيج الوطنى هو الحوار والمشاركة والوعى بمايحدث لنا وحولنا.

هذا إذا أردنا أن نكون قرب النهر لا فى البحر نفسه..

منَ يملك المثقف؟.. منَ يملك السينما؟

الدهشة كانت تستبد بى كثيرًا فى الفترة الأخيرة.

وفى أحيان كثيرة كانت تختلط الدهشة بالسؤال، ويتحول السؤال إلى أسئلة، وتتزاحم الأسئلة إلى قدر كبيرمن الحيرة فأعود إلى الأسئلة من جديد:

لماذا تتكاثر دور العرض عندنا كالفطر فى حين لا يزيد الفيلم المصرى أو - حتى العربي - خارج مصرالآن ؟ ولماذا تتكاثر دور العرض عندنا كالفطر فى حين لا تكاثر - فى الغالب - إلا الفيلم الأمريكى؟ ثم لماذا تقترن ظاهرة غياب المثقف بحضور الفيلم الأمريكى؟ ومن يملك المثقف؟ ثم، من يملك السينما المصرية الآن..؟

ولما كنا لا نملك الجواب كانت تعود الحيرة:

إن أكثر من 30 دار عرض فى مصر عام 1999 لا تعرض إلا الأفلام الأمريكية...

أفتح صفحة الفن - رحت أحدث نفسى - فى أية مجلة، أو تصفح صفحة الإعلانات فى أية جريدة فلن تجد غير دور سينما كثيرة جديدة مليئة بأفلام أمريكية.

اسأل أى موزع سينمائى عن الفيلم المصرى، ستجده يحدثك عن الفيلم الأمريكى الذى يوفر الدعاية، ويوفر (رؤوس الأقلام) التى تغلو فى هذه الدعاية، ثم يوفر - وقد أصبح هذا شائعًا كأنه حقيقة - المتفرج الذى زادت التذكرة التى يقوم بدفعها فى أحيان كثيرة إلى أكثر من 20 جنيهًا.

مع الوقت اكتشفت أن الدهشة تحتاج إلى الفهم، فآثرت العود فى تيار الزمن إلى الوراء ربما أرحت واسترحت..

[2]

ولنبدأ من قريب، من قانون الاستثمار

فى صيف 1997 صدر قانون الاستثمار وكان أهم بنوده أنه لا يمكن مزاولة النشاط السينمائى فى مصر ألا بشرط الانتاج، وهو مرتبط بإنشاء شركة سينمائية كبرى لا يقل رأس المال فيها عن 210 ملايين جنيه.

وكان هذا يعنى أنه لن يستطيع احد ممارسة الإنتاج أو صناعة فيلم إلا إذا توفر فيه هذا الشرط، وهو يخرج - تبعا لهذا - السينمائيون من هذا المجال ويدفع بغيرهم، ممن يقدرون على الدفع، إلى ساحة السينما.

وكان الوحيدون الذين يملكون القدرة على دفع أكثر من مائتى مليون جنيه هم من يملكون؟ ومن يملكون كانوا غير هؤلاء الذين لا يملكون الخبرة، وإن كان امتلاك رأس المال شفيعًا لهم عند القانون الجديد.

وقتها كتبنا هنا عن هذا القانون، وراح عدد من السينمائيين يحتجون، وعرفنا أنه تم استرضاء بعضهم - كيوسف شاهين إبان ندوة عقدت بمكتبة القاهرة - بالنظر إلى القانون، وسمعنا وعودا كثيرة معسولة لإنقاذ السينما

المصرية.. وعرفنا أن بعض الفنانين تقدموا ببيانات إلى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وطالبوا بتعديل القانون كيلا تسقط السينما المصرية.

كان هذا يتعارض مع مبدأ المساواة الذى كفله الدستور المصرى، ويقيم تفرقة لا سند لها لحساب أصحاب رؤوس الأموال الكبرى على حساب أصحاب رءوس الأموال الصغيرة - كما لاحظ أحمد شوان أخيرا.

المهم فى هذا كله أن مراجعة هذه الفترة ترينا أنه لم يستطع أن يدفع تكاليف القانون الجديد إلا شركتان كبيرتان، وصاحب كل منهما من بين رجال الأعمال ممن يهتمون بالسينما، والسينما هنا تعني - لأنهم أصحاب رءوس الأموال - الاهتمام أكثر برأس المال، ولأن الاهتمام برأس المال - فى الحياة المالية وفى عصر العولمة - يهتم بالربح أكثر، فكان من الطبيعى أن تظل السينما المصرية محلك سر، بل وإلى الخلف دور بغير مبالغة، فبعد أن كانت مصر تنتج وتوزع ما لا يقل عن مائتى فيلم كل عام (زادت إلى ثلثمائة فى الزمن البعيد) أصبحت الآن لا تنتج إلا من بين الخمسة والعشرة، وهى فى الغالب نسبة لا تزيد على سبعة ولا تقل عن عشرة..

كان أكثر ما يلفت النظر فى هذه الظاهرة انتشار دور العرض بشكل غريب فى مقابل انكماش بناء المعامل والاستديوهات وشراء المعدات السينمائية واختفاء النجوم الكبار واختفاء الموزع المحلى والإفادة من التكنولوجيا المتطورة التى تستفيد منها السينما خاصة السينما الأمريكية.. وما إلى ذلك مما يعكس اطراد الظاهرة الجديدة.

كان أكثر ما يلفت النظر داخل مصر أن هذه الدور الداخلية التى زادت، والتى أنشأها أصحابها من رجال الأعمال، هذه الدور لا تعرض - بوضوح شديد - إلا الأفلام الغربية، وإذا شئنا الدقة، فهى لا تعرض إلا الأفلام الأمريكية.

والنظرة العابرة لهذه الدور ترينا أنه لا يعرض غير الأفلام الأمريكية فى حضور دعاية عالية ومثقفين كبار لا يملكون ترف مناقشة الظاهرة أو التعرض لها، وهو ما يرسم علامة استفهام كبيرة، إن الشاشات التى تم افتتاحها على سبيل المثال ـ فى الشهر الماضى فقط تصل إلى إحدى عشرة شاشة افتتحت جميعًا بأفلام أجنبية هذا إذا استثنينا شاشة واحدة ولمرة واحدة بقصد التمويه ولفيلم مصرى قديم لا يقترب بحال من الأفلام الأمريكية التى تستخدم الكمبيوتر وتستفيد بالإنترنت وتعرض اليهودى الأصل فى السينما الأمريكية سبيلبرج بتقنياته العالية وأفكارة الصهيونية الصريحة، إن إحدى شركات رجال الأعمال عرضت أفلامًا أمريكية فى كل دور العرض الخاصة به فى موسم واحد.

ويلفت النظر هنا أن الفضائيات العربية تزخر بالأفلام الأمريكية، غير أن الأهم من هذا، والعجيب حقًا - وهو عجب يشتد لدى كل من يملك الدش - أن هناك - فى هذه الفضائيات - الكثير من الأفلام المصرية التى تعرض بوجوه مصرية وإمكانيات فنية مصرية لا يعرف عنها المصرى شيئًا..

وهو ما يزيد من تساؤلاتنا، إذ كيف أمكن تنفيذ هذه الأفلام المصرية التى لا تملك فى الغالب غير القيم الكونية من إنتماء إلى العالم «الأمريكي» سواء فى تمثيل دور البلطجة أو الهيام بالظواهر الغربية أو إيثار البطل - وهو ما لاحظته فى أكثر من فيلم، الهروب خارج مصر فى نهاية الفيلم باحثًا عن الأمان فى الهجرة.

وهذه الظاهرة تضاف إلى سابقتها، مما يجعلنا ندهش من غياب المثقف العربى، ولا ندهش من إحلال القيمة الاقتصادية «البراجماتية» فوق أية قيمة أخلاقية أخري.

الأمر إذن لا يحتاج فقط أن نتساءل عن هوية المثقف، من يملكه اليوم؟

وإنما نتساءل معه عن الواقع الذى أدى إلى هذا الأمر، وهو ما جعلنا نقرن بين المثقف وعصر العولمة، فى محاولة فهم ما يدور فى عالم الفن السابع.

[3]

يبدو أن تفسير الظاهرة يعود بنا لا إلى الزمن البعيد، وإنما إلى نظرية القيمة الاقتصادية فى عالمنا المعاصر.

وخاصة هذا الوقت الذى كانت فيه الخصخصة تتأهب لدور جديد فى حياتنا، وكان من اهم نشاطاتها الخصخصة الثقافية، ولما كانت الخصخصة الثقافية - فى أساسها - ظاهرة اقتصادية، فإن تحفيز العامل الاقتصادى يظل أهم ما يفسر حركة الاستثمار الخاص لدى فئة من رجال الأعمال يتحول اهتمامهم فى الغالب إلى جانب الربح.

حين أراد عبد السلام المسدى فى كتابه الأخير «العولمة والعولمة المضادة» أن يضرب مثلاً عن تخلى الدولة عن إنتاج الكتاب قال فى معرض حديثه عن الثقافة والنظام الكونى:

وتحركت أدمغة الخبراء الدوليين من سدنة الصناديق النقدية وحماة العولمة الاقتصادية، فجاءوا بمقترح لا يقل غرابة فى ذاته ولكنه على منتهى الانسجام مع فلسفة الشأن الاقتصادى كمرجعية مطلقة إن على دول العالم النامى فى مسعاها نحو الأحقية الاقتصادية أن تتخلى عن احتكار إنتاج الكتاب التربوى، وأن تعرض صناعته على رأس المال الحر لخصخصته فتصيب قنصين كبيرين برمية واحدة: تحفيز القطاع الخاص على الاستثمار الثقافى المربح، وتهيئة النفوس تدريجيًّا كى يقبل الناس مستقبلاً بأن التعليم هو أيضا مادة تعرض وتطلب، تباع مؤسساته وتشترى، وإن لكل بضاعة ثمنها..

وعلى هذا النحو، بمجرد أن تحول القطاع العام إلى القطاع الخاص،

وتركت الدولة كثيرًا من المؤسسات الثقافية أو أساليب الدور الثقافى لرأس المال الذى لا يرتبط بالدولة عبر التجربة الاقتصادية للقطاع الخاص حتى بدا واضحًا أن رأس المال هذا لا يستطيع أن يبدأ تجربة ثقافية تكون الفائدة منها - إلى جانب الربح المادي - التقدم الثقافى أو إضافة ما يمكن أن يقال عنه الربح الثقافى كما تفعل الكثير من المؤسسات الاقتصادية فى الخارج، حين نعرف أن كثيرًا من المؤسسات الاقتصادية الغربية تقدم دعمًا كثيرًا متواصلاً للجامعات؟

بل تسهم فى إنشاء الكثير من المشروعات من ذوى العائد الثقافى. إن رأس المال المصرى لا يريد أن يدخل فى مغامرة ثقافية يكون القصد منها لعب دور ثقافى، فهذا لا يهمه، وإن كانت بعض عناصر رجال الأعمال - وهى قليلة - تسعى إلى هذا عبر بعض الأعمال التى لا ترقى إلى ما تطمح الجموع.

كما أن الأغلبية تعمل دون أن تكون الدولة واعية للدور الثقافى، مما تدفع أصحاب رأس المال إليه بشكل مباشر وغير مباشر (هل نذكر قضية انتحار رجل الأعمال المثقف فى رواية سلوى بكر ليل ونهار؟ ولكن لهذا موضع آخر).

وعلى هذا أضيف إلى حكومات الدول النامية - بأباطرة المال الجدد فيها - منطق «العولمة» التى تسهم فى تأكيد الفلسفة الاقتصادية (البراجماتية)، لقد تحولت الثقافة الآن - فى يد رجال الأعمال - إلى أداة لا تلقى إلا اثنين:

- إما التجاهل التام لها وللدور الذى كان يجب أن تنوط به.

- وإما أن تصبح الثقافة نفسها أداة لزيادة رأس المال وإلا..

لقد أصبح المثقف العربى الآن أمام حيرة التسعينيات، أصبح قريبًا، بل فى وسط عصر العولمة (الأمريكية) خاصة، ولهذا حتمية عدم الابتعاد عن المركز.

فهو لا يستطيع أن يجاهر بأيديولوجية مثالية تملك السلطة (سلطة الثقافة أصبحت وهمًا)، كما أنه لا يستطيع - أو بالأدق شريحة من فئته - أن تنسحب عن مكاسب القطاع الاقتصادى الجديد تحت مسمى الثقافة.

بل يمكن القول بصراحة أكثر إن «مثقف العولمة» الآن بأكثر مما نتصور فى هذا العصر الذى يفتح أبوابه أمام القطاع الخاص، ويمد بتياره الشركات المتعددة الجنسيات، ويعدد بآلياته وسائل الإفادة فى سائر الحقول التى تنتمى إلى الكائن الاقتصادى، وفى الوقت نفسه تسعى إلى توظيف الثقافى من أجل الاقتصادى.. وتوظيف السينما بوجهها الأمريكى الماكر الآن يمضى حثيثًا، دفعًا من قوانين الكونية الجديدة، ورفعًا من ربح ليس الأهلية الاقتصادية فقط، وإنما- حسب قوانين السوق الجديدة - لامتلاك جزء من النخبة الثقافية أيضًا.

هل نقول بصراحة أكثر إن مثقف العولمة متورط فيما يحدث.

وهل هو متورط بالقصد وليس بالقسر.

وهل هو متجرد من كل القيم الواعية ليوظف أكثر فى الحركة الاقتصادية عبر آلة الدفع (ادفع تجد ما يسرك) بهدف ترويج البضاعة الجديدة، حتى ولو كان الإشادة بما يحدث فى دور العرض، وتأكيدًا لخطابها النشاز لتأكيد الاستثمار الاقتصادى..

إننا نجد موقف هذا المثقف الجديد عبر دور السينما المصرية (الأمريكية)، وعبر آليات المنافسة المتهافتة فى الفضائيات العربية، وإذا وصل الأمر سيكون عبر إعلاناتها التى تدفع بالنقد أو بالنقد.

لكن: ماذا يجعل المثقف يرضخ لكل هذا، ويصبح آلة فى عصر العولمة؟ من يجرؤ على الإجابة؟

سبق أن فصَّلت كيف أصيب كاتب هذه السطور بالفزع الشديد من الدعوة للمثقفين والمبدعين للكتابة بالعامية، وأنه يجب أن يأتى الزمن ـ كما أكد د. مصطفى صفوان فى حوار معه ـ كى يعتبر الكبار أو الكتاب عندنا باللغة (اللى رضعوها على صدر أمهاتهم واللى عاشوا بيها وفيها وماتوا وهم بينطقوا بيها) على حد تعبيره.

وبشكل أدق، فإن العالم الكبير ـ الذى يعيش فى أرقى أحياء باريس ـ حذر من أن يظل الكتاب سادرين فى غيهم فى أن يكتبوا بالعربية الفصحى، مما يجعل الحاكم (يستفرد) بكل شاعر أو عالم أو فيلسوف، مما يدفع بهم للوقوع فى فخ نرجسى ـ وقع فيه الكتاب ـ أشبه «بالبراهمة» الذين ـ وهنا يشدد الكاتب ـ يكتب بعضهم لبعض وكأن كل واحد فيهم بيكتب لنفسه!!

كانت الدعوى إلى هجر التعبير بالفصحى ـ لغة القرآن ـ هى ما أصابتنى بالفزع الشديد، ومع أن فزعى من هذا كله لم يصل إلى حد اليقين، فإن الواقع العربى الآن خاصة، والنخبة المثقفة فيه بوجه أخص، تدفعنا إلى إعادة النظر فيما يذهب إليه د. مصطفى صفوان ويدافع دفاعًا مجيدًا، بل إن المثقفين يعبرون عن هذا بشكل ظاهر.

وهذا التعبير وجدناه فى «مؤتمر المثقفين» المعلن عنه هذه الأيام فلنتمهل أكثر عند مؤتمر المثقفين..

(2)

إن أكثر ما لفت نظرى فى حوار المثقفين أنفسهم فى هذه اللجنة التحضيرية له، أنه مع اختلاف الآراء وتنوعها، فإن هناك فى الواقع الثقافى المصرى الآن ما سماه د.يونان لبيب رزق «جيتو المثقفين» ومع أن هذا الخطأ يعتبره صاحب المفهوم نوعًا من النقد الذاتى فإنه يعترف صراحة باسم المثقفين (نحن نكلم أنفسنا ونسمع بعضنا لكن ليس لنا الحضور الكافى).

ومع أن د. يونان يسهب فى أشكال النقد الذاتى بعد ذلك، فلا شك، أن هذا «الجيتو..» الذى يشير إليه هو الذى يقترفه أصحابه الذين نسميهم بالمثقفين الآن، وكان يطلق عليهم فى عصر محمد على «الأفندية»، وقبله كانوا فئة «العلماء والفقهاء» ممن كانوا يحتكرون بشكل أو آخر «الكهانة» فى التعبير بالفصحي، وهو ما يعيدنا إلى تعبير د. صفوان مرة أخرى حين يصف هؤلاء الذين صارو (زى البراهمة)، بيد أن التعبير باللغة «الخاصة» الآن يمكن أن يدفع بنا فى اتجاه أبعد، ليس اتجاه السلطة التى تدفع ـ بدورها ـ بالمثقف إلى فخ النرجسية، ومن ثم السقوط فى شباكها، وإنما مما ينجم عن هذا من الفعل السلبى الذى ينال من الشعب أو الجماهير فى غيبة الجماهير نفسها.

وهو ما يفرض علينا عدة أسئلة إشكالية، خاصة، فى عصر الهيمنة الأمريكية منذ سقوط حائط برلين والإعلان عن صعود النظام العالمى الجديد وآلياته التى تبنته أمريكا وعملت له، من هذا تتعدد الثقافات فى الوطن الواحد.

بمعنى وجود ثقافات متعددة ربما كان أبرزها ثقافة النخبة «بضآلتها الكمية» وثقافة الشعب «بكثافتها الكمية»، مما ينشأ عنه انشطار أصبح يهدد البنية الوطنية ذاتها، يعبِّر عن هذا القانونى المعروف د. نور فرحات حين يرى أن هناك بالفعل «ثقافة الصفوة» و«ثقافة شعبية» وهنا يؤكد أنه:

«لا يوجد اتصال أو تأثير حقيقى بين ثقافة الصفوة وثقافة الشعب» إن القضية الآن لم تعد ـ فقط ـ غربة ثقافة الشعب عن ثقافة النخبة، وإنما أصبحت ثقافة النخبة رغمًا عنها فى أحد القطبين (السلطة أو مؤسسات العولمة)، وانتفى أو كاد ينتفى تأثير ثقافة الصفوة على الجماهير الشعبية، ومن هنا، تعمقت الإشكالية فى هذا المناخ، الذى لم تعد فيه الدولة ـ بالضرورة ـ هى التى تهيمن على كل شيء، وإنما أصبحت أدوات الأعلام التكنولوجى الغربية ـ هى التى تهيمن على الشعوب العربية، وخاصة أن قدراتنا كشعوب

عربية الآن فى الجنوب أصبحت مختلفة بكثير عن الشمال، وبخاصة أن قوى الشمال الآن (الأمريكى والتحالف الأوربى معه) تعمل ضدنا، إن الإشكالية تتعدد منابرها فى وسائل الإعلام، لكنها تتحدد فى نهاية الأمر فى قوى الهيمنة المتفوقة فى الشمال، والمسلطة على عقول الجماهير بأدواتها الكثيرة.

وهو ما غيَّر أداة التأثير إلى حد كبير، حين أصبحت لغة الشاشات المرئية والويب والإنترنت والستالايت والحكومات الإليكترونية والقدرات الضخمة تهيمن على الثقافات الأخرى.

فإذا وضعنا فى الاعتبار أن المثقف لا يملك الكثير ليواجه هذه القوى التى تحاول «تنميط» العقل العربى، لتصورنا إلى أى حد تعمل العولمة لتغير «آلية» عمل هذه االثقافات، التى تضرب بجذورها فى حضارة الشرق.

وهو ما يعود بنا إلى واقع مفروض على المثقفين انفسهم، إذ أصبحوا منعزلين عن شعوبهم، أو باعتراف أستاذ التاريخ أصبحوا مهتمين بجلد الذات أو النقد الذاتى لوجودهم فى مؤتمرات وندوات ومهرجانات يتحدثون «منولوجا» لا يأتى - فى الغالب منسجما فى (حركات متشابهة)، وإنما فى انكسارات داخل هذا «الجيتو» أو «جيتو المثقفين» كما يعترف المثقف وهو ما ينبهنا، أكثر، إلى خروج المثقفين من «بوتقة» اللغة إلى هامش الوعى بشكل عام.

(3)

والواقع أن هذا الجيتو الذى يشير إليه أستاذ التاريخ ينم على هذه العزلة عن الشعب فى جميع الحالات، وهو ما لاحظه أغلب الحاضرين بشكل أو بآخر، فالقضية ليست هى الآن «نرجسية» المثقفين بقدر ما هى بحثهم عن مصالحهم فى عصر العولمة، ومن ثم فإن الشعب لم يعد ليشغل بال أحد من

هؤلاء المثقفين، فى زمن أصبح فيه المثقف يؤثر أن يقف فى المعسكر الذى نطلق عليه معسكر «العولمة»، حيث مثقف العولمة الآن لا يتنبه إلى الدور الذى تلعبه آليات النظام الأمريكى الجديد للنيل من الأنظمة وإضعاف الثقافات الأخرى بهيمنة الإعلام والتكنولوجيا الذكية وما إلى ذلك أن المثقف العربى الأن أصبح أكثر وعيًا، ولكن لمصالحه الذاتية (فى غياب الوعى)، ولم تعد الدولة هى الحاكم الذى ينبغى اللوذ به ضد الشعب، وإنما أصبحت القضية الدفاع عن الحكم من أجل أن يصبح المثقف «عضويًّا» ـ بتعبير جرامشى ـ ليتمكن من الحفاظ على مقدرات أهلة لمواجهة «الشيطان» الأكبر أمامه، يقول هنا محمود أمين العالم إن «الواقع العالمى والعولمة تسعى الآن لأن تتخلى الدولة عن وجودها فى الإنتاج والخدمات»

وهو ما يشدد إليه من أننا يجب أن نعيد ترتيب الورق ونقترب أكثر من الواقع، فبدلاً من أن يلعب المثقف دوره النرجسى بإغراء ما تملكه السلطة، ومن ثم الركون إليها، فإن الدور الجديد له يجب أن يتجه إلى هذه القوى الأكبر «العولمة» التى تريد الهيمنة على مقدرات البلاد.

على أن ما يجب أن نشير إليه هنا أنه فى الوقت الذى يدعو فيه الأستاذ العالم الدولة إلى القيام بالتنمية إزاء الإمبريالية الجديدة، فلا يمكن أن تكون الثقافة غير مرتبطة بالتنمية والتنمية لن تقوم بها إلا الدولة»

بيد أن هذا كله يدفع بنا إلى إشكالية أخرى بعيدًا عن استخدام (اللغة) وحدها، إننا نستطيع العود ـ عبر هذا كله ـ إلى مقولة إن المثقفين أنفسهم أصبحوا يقفون فى موقفين متناقضين:

إما إلى جانب الدولة (بنفس الإغراء النرجسى).

وإما بجانب آليات العولمة واقتصاد السوق وخبرائها (بإغراء نرجسى من نوع آخر)، معنى هذا أنه لن يتبقى بين هذا وذاك إلا المثقف الذى لا يجد دورًا ليلعبه سواء ضد الدولة (فسيصبح خارج السلطة) أو ضد العولمة

(فيصبح خارج المنظمات الدولية الإمبريالية)، وفى الحالتين، ينتفى دوره فيصبح «هامشيًّا» وبشكل أدق «مهمشا» وهنا يبرز السؤال الأول:

- إذن، أين يلعب المثقف دورهما فى غيبة اللغة التى يعبر بها عما ما يريد؟

- أن يكتشف رويدا رويدا أن الحلقة تضيق من حوله، فلم تعد القضية، هى قضية اللغة المستخدمة، ومن ثم، يشكل (جيتو) بعيدًا عن الناس، وإنما أصبحت القضية كيف ينحاز إلى القوى التى تقف إلى جانب الشعب؟

- ثم كيف يضمن أن هذه القوى الفاعلة هى قوة الدولة؟

لقد أصبحنا أمام مثقف (العولمة) وليس مثقف السلطة..

أصبحنا أمام اغراء الشركات متعددة الجنسيات والإعلام التكنولوجى وآليات صندوق النقد الدولى، وأصبحنا - فى الوقت نفسه - أمام إغراء الدولة التى تعانى فى الجنوب من رياح العولمة وآلياتها.

وبين إغراء «الدولة» وإغراء «العولمة» نجد أغلب المثقفين الآن لا يملكون لا «اللغة» التى يعبرون بها، وإذا ملكوها لا يملكون «الإعلام» الذى يؤثرون به.. وإذا امتلكوا الإعلام فهم لا يستخدمون إلا لغته هو..

وتظل الجماهير العريضة فى الفضاء تنتظر المعجزة، فى زمن لا يعرف المعجزات.

الصفوة.. العامية والنرجسية

لم أصب بالدهشة، وإنما بالفزع كنت قد التقيت بالمثقف المصرى الكبير فى أرقى أحياء باريس، وحين تجاذبت أطراف الحديث، اكتشفت فجأة أن عالم النفس الشهير يدافع بشدة عن العامية أكثر من الفصحى، ويدافع أكثر عن ترجمته لمسرحية «عطيل» التى آثر أن تكون بالعامية.. شكسبير وبالعامية!.. وزاد من فزعى تأكيده أنه فى الطريق للانتهاء من نص آخر - أظنه عطيل - بالعامية أيضا.

كان مصدر الفزع أن جيلي قد وصل إلى قناعة مؤداها أن الفصحى هى لغة الكتابة، ولغة التعبير الوحيدة لدينا نحن الكتاب والمثقفين فى شتى أنحاء العالم الإسلامى، أليست هى لغة العقيدة (القرآن الكريم)، ثم أليست هى عنوان الهوية العربية، ثم أليست هى اللغة التى نقرأ بها نحن المثقفين فى بلادنا ونترجم بها وندرس بها ونتعرف عليها من خلال التاريخ الشعرى والنثرى عبر أكثر من أربعة عشر قرنا فى المنطقة.

صحيح أننى كنت أحدث نفسى من آن لآخر، أن تأثير العامية والشعرية خاصة، لها تزثير يفوق الفصحى بمراحل، خاصة لدى القاعدة العريضة من أمتنا العربية، وكنت أسأل نفسى ـ فى نفس السياق نفسه ـ أليس لبيرم التونسى ـ وقبله عبد الله النديم ـ تأثير أكثر من أحمد شوقى وقبله سامى البارودى، غير أن حديث النفس لم يلبث أن يتحول إلى هاجس يتلاشى تحت الضغوط التى تعاينها ويعاينها المثقف العربى فى بلادنا.

ومن هذا كله، كان فزعى لاستخدام العامية..

وقبل أن أعرض حيثيات الرفض أو الفرض أحب أن أشير إلى أن إثارة القضية لم تصل من قبل إلى درجة الفرض علينا، فهناك تجارب كثيرة عرضت علينا منذ اللورد كرومر الإنجليزى، مرورا بلويس عوض وصولاً إلى مصطفى صفوان، غير أن كلها لم تصل إلى درجة الفرض وإنما واجهت الرفض المستمر، وهو ما جعلنا نتخوف دائمًا من التوقف كثيرًا عند القضية، فضلاً عن الإشارة إليها بطرف خفى بما يمكن أن تزودنا بإيجابيات فى عالم اليوم الذى تكتب فيه أغلب اللغات كما تنطق.

وعود إلى بدء.. لماذا تذكرت هذا كله الآن؟ ربما لما دار فى الاجتماع الأول للجنة التحضيرية الذى يمهد لمؤتمر سيعقد للمثقفين.

فلنعد إلى محاولة د. صفوان قبل أن نعود إلى مؤتمر المثقفين.

(2)

كنت أستمع مشدوها إلى تجربته لترجمة شعر شكسبير إلى العامية المصرية فالنقطة المهمة ـ كما تأكد لى ـ أن لغة الكتابة (الحروف) كانت فى البدء لغة الكتبة والكتابة الأدبية كانت تعلم دائمًا فى المدارس ولا يفهمها الشعب.

بل إن الأدب وحتى الفتح العربى فى مصر كان يكتب بالهيروغليفية، ومن هنا، كان حرص جميع النظم نظم الحكم الواحد على أن تفصل دائمًا بين الشعب والكتاب، وأنا أعتبر هذا ـ يضيف العالم الكبير ـ فخًّا وقع فيه الكتاب فى الشعوب التى يسودها الحكم الواحد، وبعد أن يسهب طويلاً فى تأكيد رؤيته ويخلص إلى أن كل حكم لاهوتى إذا حرص على شىء بعينه فهو حرصه أولا وقبل كل شىء على الفصل بين الناس والكتاب، فلا يمكن أن يستأثر هذا الحاكم بالحكم وحده إلا إذا أبعد الناس عن كل ثقافة، بحيث إنه يبعد كهنتها أو فقهاءها حسب الزمن عن الشعب.

ومن هنا كان من الصعب أن يحدث الصراع بين المثقف والسلطة وتنتصر فيه القوة صاحبة الكلمة المكتوبة فى وقت كان الشعب خارج المعمعة، على حد قوله.. وتكون النتيجة أن الصراع كان يمكن أن يحدث بين الحاكم والنخبة، لكن فى وجود الشعب فى حالة فرجة، فاللغة التى تستخدم من طرف النخبة ليست هى اللغة التى تقترب من الناس، أو ـ حتى ـ تكون لغة الناس التى يفهمون بها ما يجرى وينضج وعيهم بها، ومن هنا ظل المثقف دائمًا فى جانب، وظل يتحدث بلغة لا يفهمها إلا أضرابه، وظل الصراع ـ إذا حدث ـ يعكس العلاقة بين القلة المثقفة وجناح الحاكم القوى فى حين يظل الناس ـ حتى لو كانوا يقرءون الصحف أو الكتب فى عصرنًا ـ لا يفهمون ما يحدث بهذه اللغة الفصحى، فالناس لغتهم العامية السهلة البسيطة القريبة من الإفهام.

زد على هذا (وأنا ألفت النظر إلى عدد الأمية الكبيرة لدينا) أن عدد القراء

الحقيقيين يتضاءل فى بلد كمصر، وحتى إذا افترضنا أن الأمية تقل، فإن القراء الحقيقيين يقلون بالتبعية، كان الجورنال فى سنوات النضال ضد المستعمر بالنسبة للناس كرغيف العيش، النهاردة المصرى لا يفتح الجورنال.

ونعود إلى ترجمة مصطفى صفوان لهاملت لنجده لا يكتفى بالترجمة بالعامية، وإنما بمقدمة الترجمة بالعامية أيضًا يضيف فى أولها هذه العبارة الدالة فيقول:

إن الحكم قدر يستفرد بكل شاعر أو عالم أو فيلسوف خرج كلامه عن اللى واجب ينقال، وما فضلش فى الساحة غير أنصار السلطان لدرجة أن الواحد يمكن يسأل هل الكتابة بلغة مايفهمهاش إلا الخاصى ماكنش أكبر فخ ـ وبلاش نقول فخ نرجسى ـ وقع فيه الكتاب بحيث صاروا زى البراهمة يكتب بعضهم لبعض وكأن كل واحد فيهم يكتب لنفسه.

هل نلاحظ مرة أخرى أن دكتور علم النفس الشهير يتحدث بالعربية الفحصى سواء فى ترجمته للنص، أو كتابته مقدمة قبل ذلك..

لنقترب أكثر من تجربة د. صفوان.

(3)

إن الكاتب الكبير يحوم بنا بين أكثر من تجربة وبين أكثر من دولة فى التاريخ والحاضر، بل إنه يدلل لنا على أن لغة القرآن الكريم ليس عليها أى خطر لو أن كتابها تحدثوا بلغة الشعب واقتربوا منه، فإذا كانت كرامة القرآن تأتى من أنه ركيزة الإسلام وحصنه، فالإسلام آمنت به شعوب بمختلف لغاتها تمامًا عن اللغة العربية، كما أن فيه بالمقابل ناطقين بالعربية ظلوا على النصرانية على حد تعبيره.

وهو يصل من هذا إلى فرضية أخرى فى أنه إذا كان الأمر كذلك، فإن

ذنب الإسلام فى نظم من الحكم لها حتى اليوم عندنا خمسة آلاف سنة، فإن عمر السلطة فيها ما انتقلت من إيد لإيد إلا بالعنف، فالحاكم متى مسك الصوجان ما يسيبوش إلا ميت او مقتول.

وهو ما يصل منه إلى أن فكرة الجماعة ربما كانت جزءًا لا يتجزأ من الإسلام، وهو ما يصل بنا إلى أن المقصود من جماعة المؤمنين مثل الجماعة السياسية المصريين مثلاً أو التونسيين.. إلخ.

وخروجًا من هذا كله، فإن اللغة التى يتحدث بها المثقف ويكتب بها بالتبعية هى التى تحدد علاقته بالناس حوله، وإن الكاتب الذى يلتزم بلغة شعبه وهو يقصد العامية هنا يظل أكثر الكتّاب المتمسك بأهم العناصر التى تدفع إلى التأثير فى الشعب، وهو يصل فى هذا إلى درجة أن الشعوب يخلقها الكتاب وهو رزى يشدد عليه أكثر حين يقول بشكل جرىء وجاد يدلل عليه، ويضيف هنا:

شعب من كتاب يكتبوا بلسانه جثة من غير روح مصيرها لو طول آلاف السنين هو الفساد، هل نتوقف هنا عند التداعى الذى أوصلنا إلى كلمة الفساد، وهل لكلمة الفساد هنا دلالة أبعد من استخدام اللغة أو تحديدها بالشكل الفلسفى الذى يذهب إليه الكاتب ؟!

لندع هذه الجملة الاعتراضية لنعود مرة أخرى، ونقترب أكثر من مثل هذه المفاهيم، إن الأديبين ـ جونتر جراس مثلاً أو بيكيت ـ هما القادران لديه وحدهما على التذكير بالحقيقة وحماية العقل بقدر ما تمكن حمايته فى وجه السلطان الجديد.. قادران لأنهم بيكلموا الناس بلغتهم وعلى ذلك يضيف هنا ليدلل على ما يفعل.

إنه يعترف وبرهانًا على كده وعملا باللى عملوه اخترت الترجمة إلى العامية.

ويقطع الكاتب فى هذا شوطًا كبيرًا، فهو فى سبيل التدليل على ما يريده، لا يهتم كثيرًا داخل ترجمته الفنية للشعر إلى العامية أو خارجها.. بالنحو أو الإسهاب الدال أو الفرق بين الشعر والنثر، وما إلى ذلك مما يصل بالترجمة إلى درجتها القصوى من الأمانة العلمية.

أن له هدفا ثابتا هو ألا تكون العربية الفصحى من رموز الكهانة التى تحول بين الشعب فى قاعدته العريضة وبين فهم ما يريده الكاتب أو ما يعبر به عنه.

وعلى هذا، فإنه لا يتردد فى تكرار ما يفعله هو بمنزلة شهادة لما يريد، وما يستطيع أن يفعله، ملخصًا خطابه الرئيسى فى هذه العبارة القصيرة الدالة، يقول:

علشان أكسر حاجز أضرب علينا من الأزل بيننا إحنا المتعلمين، وبين عامة الناس). أو من أجل الخلاص من الفخ النرجسى الذى يقع فيه مثقفو هذا الزمان وخبراؤه، وهو ما يذكرنا أكثر بما دار فى مؤتمر المثقفين الذى يعقد اجتماعه الأول هذه الأيام.

"جيتو" المثقفين.. وحدود حرية التعبير

أثار ما سبق أن كتبناه هنا طيلة الأسبوعين الماضيين حول الصفوة والعامية و«جيتو» المثقفين عددًا كبيرًا من القراء، ومن هنا، فإن ردود الأفعال الكثيرة التى جاءتنا كانت تعبر عن «حالة» الصفوة، وإيثارهم ـ كما أسلفنا ـ لهذا «الجيتو» الذى ينصرف إما إلى السلطة «حيث الحفاظ على الفصحى» لغة البراهمة والكهنة والعلماء والأفندية و «المثقفين» ممن يؤثرون الفصحى فى معسكر الأمير كما ورد فى دعوة د. مصطفى صفوان، وإما إلى تجليات الإمبريالية الجديدة، حيث الاندماج فى قوانين العولمة، حيث اقتصاد السوق وتقنية الإعلام التكنولوجى إلى غير ذلك حيث يبدو المثقف أشبه إلى المحايد والخبير منه إلى الناقد والموقف.

وإلى جانب هؤلاء الأخيرين انتمى هؤلاء الذين يغيبون (بفتح الياء) أو يغيبون (بضم الياء) وفى جميع الحالات فهم ينصرفون إلى وسائلهم الخاصة الواعيون لها تمامًا من الجوائز والمعونات والمنح ومراكز الأبحاث ودعوى الدفاع عن الديمقراطية أو حقوق الإنسان أو حرية التعبير، كما رأينا فى الضجة الأخيرة التى خرجت من الثقافة الجماهيرية..

وفى جميع الحالات، فإن «الجيتو» يوجد حيث يوجد أصحابه من المثقفين الذين آثروا مصالحهم، حيث تتعدد الأنماط عندنا.

والملاحظة العامة هنا على الرسائل الكثيرة التى جاءتنا أنها ـ فى أغلبها ـ لم تتنبه إلى هذا الفخ، حيث غاب البعض فى إشكالية «العامية والفصحي»، والبعض الآخر فى «نهاية التاريخ» وحتميته، فى حين أن بقية الرسائل تقع فى هذه المنطقة بين تحميل «اللغة» المسئولية أو تحميل «لغة السوق» المسئولية أيضًا، فى حين أن القضية الرئيسية كانت تتحدد ـ فى جميع الحالات ـ فى انصراف غالبية مثقفينا العرب عن هذا «الجيتو» وصياحه فى قضايا وهمية ومصالح شخصية فى غيبة الشعب.

وكيلا تطلق الأحكام على عواهنها، سوف نختار من سيل الرسائل التى جاءتنا اثنتين:

ـ إحداهما تركز على غياب الصفوة «كقضية إشكالية» يفسرها التاريخ.

ـ والأخرى تركز على «العامية والفصحى» كقضية فنية تفسرها اللغة..

وهو ما نقترب منه قبل أن نبتعد عنه للنظر إليه بعين الطائر.

(2)

فى رسالة طويلة من المحامى بالنقض أحمد عاشور، رحنا نتتبع نشأة الصفوة المصريين وتراكمها وأزماتها، وهو يعيد هذا كله إلى عدم وجود «الحاضنة الثقافية المصرية» التى تبعد بالمثقف عن «الجيتو» الخاص به،

وتقترب منه إلى ربوع البلاد حيث الشعب بتجانسه ووعيه المبكر الوحيد، بعيدًا عن النخبة ــ أو النخب ـ التى كان لا بد أن تلعب دورًا أكبر فى مصير هذا الشعب..

وإذا كان المحامى يمضى فى الطريق الذى يؤدى ـ فى رأيه ـ إلى تشتت المثقف أو فلنقل انشطاراته المتوالية عبر تاريخ غير منسق فى عملية «التوطين» والصياغة، فإن أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة، يذهب إلى طريق آخر، إن ماهر شفيق فريد يتوقف عن العامية على أنها ـ وحدها ـ الباعث للخروج من جيتو المثقفين، ومن ثم، فإنه يدافع دفاعًا مجيدًا عن العامية القادرة على التحليق إلى أعلى الآفاق التأملية والوجدانية.

ونحب أن نسرع هنا لتوضيح أن دفاع أستاذ الأدب الإنجليزى إنما يتضمن دفاعًا فنيًا أكثر منه دالاً على صنع (جيتو) للصفوة ومحاولة الدفاع عن مصالحها من خلاله (وانظر ما يحدث الآن بين أطراف المثقفين الذين يدافعون ـ من كل فج ـ عما يعتقدون، ويقتنعون، أو عما يؤثرون بذواتهم)، وهو ما لا يريد الخوض فيه، اللهم إلا فى جانب التوجه العام ودلالته.

(3)

مع أننا لا نختلف كثيرًا عن وجهتى نظر د. ماهر شفيق، فإن القضية ـ كما نكرر ـ هى قضية الجيتو أو الجيتوهات التى أصبحت تتناثر فى غيبة أصحاب المصلحة الحقيقية، الشعب.

القضية الرئيسية ـ أيها السادة ـ هى قضية البحث عن أسباب وجود هذا «الجيتو» فى حياتنا، أنها المصلحة قبل أن نتحدث عن الضمير والوطن..

أو أنه التاريخ قبل أن تكون اللغة..

أو أنها اللغة التى يمكن التفاهم معها الآن فى عصر العولمة أكثر من كونها اللغة «العامية» التى يعدد أفضالها، والتى يمكن أن يخصص لها درس فى قاعات الدرس أكثر من أن تكون عائقًا بين اقتراب الكاتب من الناس.

وعلى أى حال، فإننا أمام أكثر من رأى رغم أن الحسم الأخير يصل بنا إلى بديهة هذا الانشطار، تتعدد الأسباب بين العامية التى يدعو البعض إلى استخدامها الآن للتقريب بين المثقف والشعب، «بعيدا عن الإغراء النرجسى» للأمير وبين افتقاد المناخ أو «الحاضنة» الثقافية التى تسعى للتقريب من الحب بجانب الشعب..

إن قضية المثقف هنا خرجت من إطار الوعى المعرف إلى خارجه، دون أن تحسم أيًّا من خياراتها ومع خروجها تعددت أنماطها.

كان المثقف منذ فجر النهضة العربية ينتمى إلى مدرسة الموقف «النقدي» ضد الأمير، ويستخدم (بتعبير ريجيس دوبريه) تعبير غياب أو افتقاد المنظور الإستراتيجى عوضًا عن اتخاذ الموقف المناهض للسلطة.

غير أن المثقف الآن لم يعد ليهتم بالسياسة والمواقف المناقضة للأمير وقضاياه، بقدر ما أصبح الهم الخاص لديه هو «اقتصاد السوق» بتعبير أدبيات العولمة هذه الأيام..

وإذا ترجمنا اقتصاديات السوق فى بلادنا لذكرنا تعبيرات كثيرة ليست بالضبط مرادفة لها بقدر ما هى ملازمة ومؤكدة.. وإلا، من يقول لنا ما هو تفسير إيثار المثقفين الآن ــ أكثر ـ الحديث عن المحرمات وكتابة الاستقالات والتشدق «بحرية» التعبير، فى حين أن الغالبية من شعبنا العربى ما زال يعانى الأمية الثقافية (لا الهجائية فقط) ومن افتقاد الوعى القائم وقيام الوعى (الزائف) فى كل الميادين.

فبعد أن يمهد لفكرته من أن الصفوة التى تشارك فى العبث القومي، وتقوده منذ قرنين من الزمان، ليست هى صفوة المثقفين فقط، بل كل شرائح النخب، وأن الأزمة أمسكت بتلابيب كل رموز الحضارة المصرية بدليل تراجع الأداء، وبعد أن يحوم طويلاً فى تاريخ الأزمة وتكون النخب فيها عبر التعاقب المتتابع فى التكوين الثقافى والحضارى، حيث يتم إحلال

صفوة جديدة بدلاً من الصفوة القديمة مما أسفر ـ على حد قوله ـ عن ظاهرة تراكم الصفوة الأجنبية المتوطنة فى مصر من بقايا ثلاث قوى مستعمرة، وهى الأعراب والأتراك والمماليك..

وبعيدًا عن التحفظ الذى يمنحه وضع هذه الجنسيات فى مصاف واحد، فإنه يشير إلى أن محمد على حاول «توطين» هذه الصفوات فى مشروعه الحضارى، وهنا نستطيع أن نلاحظ أنه يحاول أن يرصد عملية الفصل بين هؤلاء الذين انسحبوا فيما بعد فى «جيتو»، وبين بقية أبناء الشعب الذين وصلت نسبتهم فى عصر محمد على إلى 80٪ فى وقت كان الأخيرون لا يزيد عددهم على 10٪.

وهو ما يصل منه إلى بداية عزلة المثقفين، يفسر أكثر ما انتهى إليه فى رسالته حين يقول:

(كيف كان المتوطنون الأعراب والأتراك والمماليك والمغاربة يتعاملون مع الإنسان المصرى.. الشعب المصرى والأرض المصرية.. وكيف تعمدت جموع الصفوة المتراكمة تهميش ونفى واضطهاد ثقافة الشعب القومية وتحقيرها والعمل على إظهارها كأدنى أو أقل.

ومع حلول كل جماعات الصفوة الأجنبية كمواطنين فى مصر، تحالفت كل الجماعات ضد ثقافة الشعب ومارست نفس الازدراء السابق، مما نشأ عنه ما يطلق عليه عالم الاجتماع المصرى د. محمود عودة «التمفصل الثقافة» ويعنى تعايش أنماط ثقافية ليست على درجة واحدة من التطور؛ لأن المجتمع ونتاجه الثقافى يكون غير متوافق.. فالصفوة فى واد والشعب فى واد آخر..

إن سبب أزمة الصفوة هنا وتراجع «الحاضنة الثقافية الوطنية فى وعى كل النخب المصرية التى لا تعرف ماهيتها ولا أهميتها ولا مصادرها».

إن الشعب لم يجد هذه النخبة المثلى التى تعبر عنه إذن، ومن ثم رفض كل الصيغ المطروحة عليه ويعيش بغريزة حب البقاء فقط، بعد أن سقطت أزمته فى بئر أزماتها.. وصفوة الشعب هى عقله وقلبه وضميره إذا لم تحتقره.

ومع أن المحامى الكبير يولى جهدًا كبيرًا للكشف عن تكون هذه النخب وتطورها، فإنه يصل ـ بالتبعية ـ إلى أنها أزمة، وما دامت الأزمة مستمرة، فإن هذا يتحول إلى كارثة «بسبب انسحاب الشعب من أمام نخب تزدرى ثقافته»، ومن هنا فإن الكاتب حاول عبر تدليلِه البرهنة على انفصال النخب وانسحابها إلى «جيتو خاص» بها، كما نرى هنا النخبة المثقفة، والابتعاد ـ من ثم ـ عن انسحاب الشعب أيضًا إلى عالمه الواسع المترامى فى الوادى.

إن الكاتب هنا لا يريد أن يفصل بين الشعب والنخب فى «ثنائية ضدية»، وإنما يحاول أن يفصل بين الشعب والنخب فى انشطارية مروحية، فى جانب نجد الشعب بتجانسه، وفى الجانب الآخر نجد النخب الثقافية فى تباينها. ثم هل لاحظ أحد معنى تناقض المثقفين فى مواقفهم حين دافعوا عن الوزير فى «الوليمة».. فى المرة السابقة، ثم هجومهم العنيف عليه فى الأزمة الأخيرة باسم حرية التعبير «أى تعبير وأى حرية؟ وأى كلام وأنتم أيها السادة فى قاع الجيتو؟!!).

إن بين المثقف النقدى، والمثقف الخبير أصبح لدينا عدد كبير من المثقفين الذين ينتمون إلى هذا «الجيتو» واقعًا أو مجازًا، مثل هذا المثقف الذى نراه كثيرًا فى الفضائيات العربية وبين اتحادات الكتّاب ونقابات المثقفين وصفحات «التابلويد».. يستدر «النجومية» ويسعى إلى المصالح الشخصية.

إننا أصبحنا أمام هذا المثقف المشغول بقضاياه هو «وهى تأخذ أشكالا متباينة»، فى حين أنه يسعى إلى المكاسب القريبة التى تؤمن بمنطق العصر وتهتبل فرصه، ورغم أن الفارق كبير بيننا وبين الغرب هنا، فإننا نستطيع أن نشير إلى ملاحظة ريجيس دوبريه فى كتابه الأخير Suiteet Fin من أن المثقف

المؤيد (ليس المتمرد) أصبح له النفوذ والوجود الكبير منذ السبعينيات، لماذا السبعينيات؟ لأن ـ يؤكد دوبريه ـ.. السبعينيات كانت تشهد بأن كانت الاقتصادية الكبرى تحل محل المتاجر المختصرة الصغيرة، وبدأت الفتوحات التكنولوجية الضخمة تفتح صفحة جديدة على «القرية» الصغيرة، وما كاد يسقط سور برلين فى بداية التسعينيات حتى كان المثقف يغذ الخطو أكثر نحو عالم «الهيمنة» وآلياته وإغراءاته التى لم يستطع مقاومتها.

وفى عصر العولمة والشركات متعددة الجنسيات، وضعف الحكومات وسيادة السوق، آثر المثقف أن يظل فى «الجيتو» الذى زخر الآن بأشكال من الإغراءات النرجسية ما لم يستطع الخلاص منها، وآثر الكثير ممن كانوا خارجه إلى العودة إليه..

قضية.. هذا المثقف

هل يملك..؟

هل يملك أحد هذه الجرأة..؟

هل يملك أحد مثقفينا هذه الجرأة التى وجدناها لدى هذا المثقف ليعترف بأنه كان أحد تلك النخبة المتعاونة مع النظام السائد بشكل برجماتى خالص؟

.. وإنه كان أحد هؤلاء الذين كانوا يحاولون ـ على حد تعبيره ـ أن «يتقولبوا» مع النظام الذى «وظفهم»؟ وأنه.. دارت كل هذه الأسئلة بذهنى وأنا أقرأ اعتراف هذا المثقف الجزائرى بوضوح شديد لا يجرؤ عليه المثقف العربى الموظف لدى السلطة وـ بشكل أدق ـ المتواطئ ـ مع النظام ـ أى نظام ـ ضد الجماهير على حد تعبيره هو دارت كل هذه الأسئلة فى ذهنى

إن مراجعة نصف القرن الأخير، نلاحظ أن ثمة نمطًا من هؤلاء المثقفين كان فرديًا فى موقفه، لكنه كان من الصعب مع تحديد تمثيل المثقف مع أنماط

أخرى القول إنه كان يمضى فى سياق واع فى أى قضية تمر بها بلادنا العربية، الأحرى أن حركته كانت تقول إنه كان ضالعًا وأقرب إلى أحد «اللاعبين» الكبار فى علاقته بالنظام السائد.

وبشكل مباشر، نستطيع ـ كمثال واحد ـ أن نجد هذا (المثقف المتواطئ) على حد تعبيره هنا، كما سنرى، فى وقت لم نعدم فيه هذا المثقف الصلب أو المعارض أو المتردد.. وغيرهم، غير أن المثقف الأول له تأثير كبير وسلبى فى ترجيح أية قضية يعرض لها وهو ما دفعنا إلى لفت النظر إلى هذا المثقف..

ومما يزيد اهتمامنا أن هذا المثقف الذى يبدو متواطئا مع النظام يبدو ـ فى الظاهر ـ أنه مثقف واع، معارض فى البداية، ومن ثم، فيكون هو أخطر من غيره من المثقفين الواضحين فى النور.

إنه المثقف الذى يبدو معارضًا، بينما يلعب دورًا خطيرًا فى الجانب الآخر، جانب خداع المثقفين، ومن قبلهم الجماهير..إنه نموذج فريد، لا تأتى فرادته من موقفه الإيجابي، وإنما من دوره السلبى، وما يحدثه تحركه الحقيقى من إحباط حركة الجماهير العربية.

(2)

فى بدايات دراساتنا عن المثقفين لاحظنا ـ خاصة فى الفترة الناصرية ـ عبر عدد من العلوم فى الاجتماع السياسى وأدبيات الفترة تحديد عدد من الأنماط السائدة، ومن هذه الأنماط وأهمها: المثقف المؤيد ـ المثقف المتمرد ـ المثقف الصامت ـ المثقف المهادن..

ولا يمكن أن يكون الفصل بين هذه الأنماط فصلاً كاملاً، فكثيرًا ما نجد اتصالاً أو انفصالاً تحدده الفترة التى يعيش فيها المثقف، أو طبيعة العلاقات الاجتماعية والحراك الاجتماعى، وما إلى ذلك مما يجعل اختلاط الأنماط مرجحًا فى وقت من الأوقات، لكنها فى السياق الأخير يمكن أن تتحدد فى المواقف التى تنتمى إليها.

ومع تحديد هذه الأنماط فى الفترة الناصرية، تعددت أكثر فى الفترات التالية لها، خاصة حين عرفنا بدء النظام العالمى الجديد عقب حرب الخليج الثانية، فأضيفت إلى هذه الأنماط أنماط أخرى ارتبطت بطبيعة المرحلة وهى كثيرة.

هذا هو المثقف الخبير، الذى انتمى أكثر إلى نمط مبرمجى الكمبيوتر، أو عميل شركات متعددة الجنسيات.

والمثقف الغائب الذى يعمل حسب حتمية آليات العولمة، خاصة فى ظروف ضعف الحكومة لصالح قوى أخرى طارئة.

وما لبثنا أن تعرفنا إلى مثقف آخر، يمكن أن يسمى «عابر القارات»، حيث اتسعت مساحات التمويل الأجنبى وزادت جرعات التمويل الغربى الغامض، واستفاد كثيرًا بقوانين وشعارات عالمية مثل قانون الأقليات أو حقوق الإنسان..إلخ.

وبين هؤلاء عرفنا المثقف الداعى للتطبيع عبر جمعيات السلام وجمعيات الصداقة.

ولم نفتقد فى كل هؤلاء المثقف الهامشى.. غير أن دائرة هذا المثقف اتسعت لتضم أعضاء شتى فى اتحادات الكتّاب فى مجموعة اسمها «المثقفون» أو «الصفوة من المثقفين»، على حد تعبير إدوار سعيد، فى كتابه «صور المثقف»، فراح يضيف إلى الدائرة المديرين، والأساتذة الجامعيين، والصحفيين، وخبراء الكمبيوتر أو الخبراء الحكوميين، والمراودين، والنقاد، وكتّاب التعليقات ذات الانتشار الواسع المتزامن، والمستشارين الذين يدفع ثمن آرائهم...إلخ عامة.

ومع أن صاحب «صور المثقف» راح يتساءل هل كان ممكنا ـ فى هذا السياق ـ وجود المثقف الفرد كصوت مستقل؟.. فإننا على المستوى العملى لم

نلاحظ اختفاء هذا المثقف الذى عرفناه منذ فترة مبكرة من تاريخنا الحديث، وهو الذى كان يمكن أن نطلق عليه، منذ البداية «المثقف المؤيد أو المهادن أو الصامت»، وباختصار، فقد ظهر أكثر بيننا هذا المثقف اللاعب وهذا المثقف الأخير، كان أكثر المثقفين وعيا بتطور الأحداث وخريطته، وحدد مصالحه فى هذه الخريطة وعمل لها بدأب شديد، فمضى مع كل نظام، ومد حباله إلى قرارات أى نظام، وكانت مواقفه ملكية أكثر من الملك..

وليس من الغريب ألا يكتشف هذا المثقف..

وليس غريبًا أن يكون هذا اللاعب ـ المثقف أكثر المثقفين حضورًا وبقاء..

ونحب أن نسرع هنا بالقول إن هذا المثقف وجد فى كل الأقطار العربية، ولم يقتصر فى قطر دون قطر، وإن تحديدنا هنا لنمط له يظل أقرب إلي «المثال» أكثر من النمط المحدد ذى السمات التى لم تتغير قط، فقد كان أكثر براعة وارتدى أكثر من رداء، وكان الوحيد لهذا، أو لأجل هذا، أكثرهم بقاء.

ولنترك التصنيفات والتحديدات، إلى أرض الواقع، ولنقف فى الفترة الأخيرة عند هذا النمط الأخير، المثقف المؤيد (المهادن) على طول الخط، الذى يستخدم أساليب النظام ويخضع لها ويعمل بها فى كل الظروف، وهو ـ كما سنرى ـ «يتقولب» كما يراد له، ويمضى مع الريح كما يراد له..

وقبل أن نصل إلى هذا النموذج نكرر أن هذا المثقف يمكن أن يوجد فى أكثر من قطر عربى ـ لا قطر واحد ـ كما أنه من الذكاء والخداع، بحيث نجده يستطيع أن يخدع الجميع: الجماهير والنظام، وهو يملك ـ فوق هذا كله ـ وعيًا نرجسيًّا بذاته، وبالقضايا التى تناط إليه فيقوم بواجباته فيها ببراعة شديدة.

إنه المثقف السائد.

وهو ما نقترب منه أكثر عبر مثال محدد.

(3)

كان السؤال الذى وجهه إليه هو:

ـ باعتبارك أصبحت نائبًا فى البرلمان الجزائرى ورئيسًا لاتحاد الكتاب، وقد كنتم رئيسًا لتحرير جريدة الشعب ـ الرسمية ـ ورئيسًا لقطاع الأخبار للتليفزيون، فضلاً عن كونك شاعرًا معروفًا، هل تملك جرأة ممارسة النقد الذاتى والاعتراف بأخطائك كمثقف من الذين تتحدث عنهم؟

ويجيب ميهوبى ـ الذى يحتل الآن منصب رئيس اتحاد الكتاب ـ بهذا الاعتراف حين كان المثقف داخل السلطة، يجيب أو يعترف، فيقول بوضوح شديد:

«أعترف بكل رحابة صدر بأننى وقت أن كنت رئيس تحرير، مارست الرقابة، واستخدمت المقص ضد أفكار ومقالات زملائى..(و).. وفى تجربتى بالتليفزيون مارست الرقابة ومنعت برامج وأعطيت موافقات بإجازة برامج فى إطار دورانى داخل دائرة النظام القائم.. ونعم كنت أحاول أن أتقولب مع النظام..».

وكأنه فى اعترافه كان يفسر الواقع الذى أصبحنا فيه، والذى كان إحدى أدواته ـ السالبة ـ لا الفاعلة.. هذا المثقف أو ما يمكن أن نسميه على حد اعترافه، أنه كان فى ذلك الوقت ضمن النخبة المتواطئة.. ونحن لا نريد أن نكرر ما قاله رئيس الكتّاب الجزائريين، غير أن التكرار هنا يعلم الكثيرين أهمية أن يتحالف المثقف مع السلطة، وحين يصبح هذا التحالف «عضويا» بتعبير جرامشى، وفى زمن لا يكون النظام فيه فى طليعة الجماهير، فإن المثقف لا يكون ـ بالقطع ـ فى صف الجماهير، وإنما يكون فى طليعة هذه السلطة التى تفعل أى شىء، بما فيه التحالف مع المثقف، وفتح له بوابات «الذهب» ليقف معها، فى هذا الوقت، يصبح المثقف كما يقول عز الدين ميهوبى هنا «متواطئا»، وهو المعنى الذى نخرج به من دائرة النظام الوطنى..

إن المثقف هنا آثر أن يعمل داخل النظام لا بعيدًا عنه.

إنه يؤثر أن يعمل داخل السلطة أو مع هذه النخبة ـ وهو ما زال يتكلم ـ التى تواطأت مع هذه السلطة، وحصلتَ على مكاسب كانت تأمل فيها.. ثم عادت بعد أن جنت ثمار هذا التزاوج لتحاول أن تمارس دورها فى قيادة الأمة.. وصياغة فكرها.. واعتقادى أنه لا يمكن أن تستعيد هذه النخبة مصداقيتها قبل أن يعترف رموزها بخطاياهم..

هذا هو المثقف ـ اللاعب، الذى وجدناه فى الحقبة الأخيرة فى أكثر من موقف، وأكثر من نمط..

إن لديه القدرة على أن يلعب كل الأدوار.. وفى الوقت نفسه، يكون لاعبًا واعيًا فى كل نص «درامى» يبدو إلينا فى شكل «واقعى»، فى حين أن صاحبه لم يخرج به من السلوك المعتمد إلى أرض الواقع الفعلى، ولا يكون علينا أن نبذل جهدًا كبيرًا أن نكتشف هذا المثقف فى كل المواقف أو الأزمات التى نعرض لها أو نتعرض لها.

ومع هذا، أو رغم هذا، لا نفعل شيئًا لكشفه..

أو لا نفعل شيئًا نحن «النظارة أو المشاركين فى الحدث لا الدور»، أمام هذا المثقف الذى ينجح رغم أنف الآخرين، وفوق هذا كله فى أن يحتل أعلى المناصب، وفى أن يكون هو «اللاعب» الأول فى أية أزمة، اللعبة التى يبدو فيها دائمًا على القمة، حيث يقف النظام الذى يلعب معه أو له، وفى الغالب يلعب له..

واللعب مع النظام هو اللعب مع الذات، لكنه ـ بالقطع ـ ضد الجماهير العريضة.

ـ هذا المثقف نعرفه، نعرفه جميعًا، لكن:

ـ هل يملك مثقف عربى آخر هذه الجرأة؟

أى أرض..أى سلام؟ وغياب المثقفين وراء كل إخفاق ثقافى أو سياسى فى حياتنا المعاصرة غيبة المعلومات أو ضعفها.. هذه (بدهية) لا بد من التنبه إليها.

ونقول «بدهية»؛ لأن معاركنا الخاسرة فى الماضى (وبالتبعية فى المستقبل) وراءها - بالقطع - غيبة المعلومات، أو الغيبوبة الفكرية التى أصبحت أهم سمات الشخصية العربية فى العصر الحديث.

وهذا الإخفاق، وإن بدا وراءه صانع القرار السياسى، فإن الواقع، خاصة فى عالمنا العربى، يؤكد أن المسئول الأول عنه هو المثقف، وبشكل أدق، المثقف العربى الآن الذى لم يدرك بالقدر الكافى خطورة الإمكانات التى تقدمها الشبكة الإليكترونية، ليس فى المجال الاقتصادى والمصرفى وحسب، وإنما- أيضًا- فى المجال الثقافى بشبكاته المتعددة، خاصة، أن مثقف الألفية الثالثة لم تعد تعنيه القضايا التقليدية فى الأدب، وإنما أصبح ما يحرك كل شىء - بما فيه الأدب - إستراتيجيات الهيمنة الغربية التى تحركها أو تقف وراءها، بالتالى، آليات التكنولوجيا التى تحدد الهيمنة وطبيعتها..

وهو ما تحول المثقف معه الآن إلى أنماط كثيرة، لم نعد لنكتفى منه بالمثقف النمطى، وإنما هذا «الخبير» فى عصر التقنية الذى يجب أن يلعب دور المثقف.

أصبح البون شاسعًا الآن بينه وبين هذا «الدور».

أصبح المثقف العربى ـ فى الغالب ـ لا يتعامل بالقدر الكافى مع التكنولوجيا، وإنما ما زال يتعاطى الأيديولوجيا، وينام فى تخومها.

باختصار، أصبح المثقف العربى غائبًا أو كالمغيب.

هذه بدهية لا نحتاج للبرهنة عليها، ومع ذلك، فإننا نضطر فى كل مرة للبرهنة عليها.. وستمهل هنا عند ملاحظات مهمة..

مشروع 'الشرق الأوسط'..

إن مراجعة ما كتب فى الحقبة الأخيرة عن الصراع العربى الإسرائيلى يلفت نظرة هذا المصطلح مشروع «الشرق الأوسط» الذى أصبح يردد، خاصة بعد أن وضعه شمعون بيريز عنوانًا لاحد كتبه «الشرق الأوسط الجديد»، من هنا، فقد شهدنا الصحف لفترة تتحدث عن هذا الشرق الأوسط «الجديد»، كما دعا إليه مسئول إسرائيلى يحاول صياغة مستقبل المنطقة عبر إعادة صياغة الجغرافيا.

ومع أننا سنتناول مضمون الكتاب - فيما بعد - فإن ما يهمنا الآن أن الرؤية القريبة للمثقف العربى لهذا المصطلح أو ذلك المضمون الدال (وهو - فى الغالب - صاحب المعلومات التى تودى إلى صنع القرار).... هذا المثقف لم يكن على مستوى الأحداث التى تمر بها المنطقة العربية.

لقد شغلنا مرة واحدة بعد مرحلة ما بعد التسوية فى التسعينيات، فى الحديث عن «الشرق أوسطية» التى ترسم فى كتابات الكتاب الإسرائيليين أو المعاهد الغربية أو الأمريكية، منتهين فى كل مرة إلى كتاب رابين على أنه المنظر الأول والوحيد لهذا المصطلح وذلك التوجه..

إن هذاخطأ فادحًا فى فهم تطور المنظور الصهيونى.

وهو - أيضًا - خطأ فى فهم علاقة المنظور الصهيونى بنظيره الغربى وتطوره معه وهو - بالتبعية - خطأ فى فهم إستراتيجيات المستقبل.

إن وعى المثقف العربى - باختصار ـ عبر هذا المصطحلح - لم يكن على مستوى الفهم الصحيح له، أو التحديات التى يواجهها الموقف العربى لحظة تحوله إلى فرار فعال. وفى كتاب صغير مهم صدر أخيرًا عن مجلة سطور لمحمود عبد الفضيل - عن التسوية » أى أرض.. أى سلام» يتنبه فيه صاحبه إلى هذا الخطأ الذى يعتقد معه أن نظام «الشرق أوسطى» ليس حديثًا، إن د. محمود عبد الفضيل يؤكد هنا أن المصطلح ليس هو من بنات

أفكار بيريز، فمثل هذا التصور لمستقبل المنطقة يمثل جزءا لا يتجزأ من التصور الإستراتيجى الصهيوني - إذ تعود بدايات تلك الرؤية إلي هرتزل ـ مؤسس الدولة العبرية - الذى تحدث عن ضرورة إنشاء «كومنولث» يضم إسرائيل وبقية بلدان المنطقة.

الأكثر من هذا أن هذا المصطلح الذى أخذ يجسد أكثر فى التسعينيات، كان يجسد عبر كتابات هيرتزل فى نهاية القرن التاسع عشر إلى كتابات ومواقف الصهيونية «بعد أن أصبحت لها دولة الآن» فقد انقلب الموضوع إلى مشروع حقيقي، وضعت مخططاته التطبيقية غداة حرب 1967، إذ صدرت، وثيقة إسرائيلية عام فى هذا العام تحمل عنوان «الشرق الأوسط فى عام 2000» وهو بمنزلة «وثيقة مشروع» حافل بالتفاصيل حول الرؤية الإسرائيلية لمستقبل المنطقة عام2000.

ومع أن هذا النظام الذى رأينا إرهاصاته فى بداية القرن التاسع عشر تم تحويله إلى مشروع فى نهايات القرن العشرين، فإنه يظل هو الذى يحاول تحقيق نفس المشروع الذى يحاول الغرب الآن، تحت ظلال «العولمة»، أن يطوره أكثر ليكتسب الشرعية الدولية.

الشرعية الدولية تحت سلاح التغييرات التكنولوجية وعصر الليبرالية الجديدة، والتى ترفد المشروع الاستعمارى الصهيونى بأهم روافده الآن.

وهو ما نصل معه إلى الملاحظة الأخرى.

دور الدولة القائدة

غنى الملاحظة المهمة فى «المشروعات الشرق أوسطية» من هذا القبيل ترسم منذ فترة مبكرة أن تكون المنطقة (منطقة الشرق الأوسط) منطقة نشاط تتحول فيه كل دولة عربية إلى نوع من النشاط البسيط، فى حين تتركز جهود إسرائيل على النشاط العلمى والتكنولوجى.

إن المشروع الذى يمهد له فى الستينيات يقوم على أن مصر تتخصص فى الصناعات الهندسية وصناعة السيارات، وسوريا فى الصناعات الغذائية وصناعة النسيج، والعراق وبلدان الخليج فى الصناعات البتروكيميائية، ولبنان فى الأنشطة المصرفية.. إلخ ثم تتخصص إسرائيل فى صناعة الإليكترونيات والكمبيوتر والصناعات الدوائية.

ثم تتخصص مستقبلًا - وهو ما حدث بالفعل الآن - فى الشبكات المصرفية والتكنولوجية والتجارية.

وهذا التخصص له أكثر من معنى:

- أن تكون المنطقة، منطقة الشرق الأوسط، وليس الوطن العربى بأية حال.

- أن تكون المنطقة (شرق أوسطية) تقوم فيها إسرائيل بدور «الدولة القائدة».

إن الانتقال لبرهة من فترة الستينيات من القرن الماضى إلى بدايات هذا القرن سترينا إلى أى مدى تحددت فيه مقدرات دول المنطقة حسب المنظور الصهيونى فى أسر الهيمنة..

إن الجدل الكبير الذى يشير إليه د. عبد الفضيل يصل بنا إلى حقيقة مهمة، هى أن هناك قطاعات هامة فى الاقتصاد الإسرائيلي، ذات قدرات تنافسية عالية، مثل الاليكترونيات، وتتمتع بكافة المؤهلات التى تسمح لها بالسيطرة على السوق العربية بسهولة ويسر.

الأكثر من هذا أننا نلحظ الدعـوى المتهافتة التى يرددهـا البعـض عندنـا من ضعف الاقتصاد الإسرائيلى، إذ إن علينا أن نرى «الاقتصاد الإسرائيلى» من خلال تشابكاته المالية والتكنولوجي الدولية، بل هناك تجمعات يهودية فى مناطق قريبة من العالم مثل بلجيكا تؤيد إستراتيجية حزب العمل حول

السلام بقوة؛ لأنها تريد أن تجيء الى المنطقة العربية غازية غزوًا اقتصاديًا تامًا..

وهو ما يصل بنا إلى ضرورة التعاون الاقتصادى، وهى أصبحت حاجة ملحة، فالتعاون الاقتصادى وضرورة قيام سوق اقتصادية دعوات أصبحت تردد بكثرة هذه الأيام فى عصر القمم العربية الكثيرة التى تعقد من آن لآخر، وقد لاحظ المتابع لمؤتمر القمة الذى عقد أخيرًا ترحيب القادة العرب بمبادرات الرئيس مبارك خاصة فى جبهتين:

- جبهة عقد المؤتمر الاقتصادى العربى الأول فى القاهرة خلال نوفمبر القادم تحت مسمى «المؤتمر الاقتصادى العربى المشترك»، وتشارك فيه الدول العربية والمؤسسات الاقتصادية العربية والشركات العربية الكبرى والمنظمات الدولية..إلى غير ذلك.

- جبهة بناء المدى العربى لتكنولوجيا المعلومات.. ومن أهدافه إيجاد تعريفة معقولة بين الدول العربية ووضع خطة لتطوير شبكات الاتصال وتطوير نظم المعلومات ومؤسسات التمويل العربية لدعم جهود تطوير قطاع التكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

وبعد، إن غياب الوعى بمشروع الشرق أوسطية ومرجعياته، ثم عدم التنبه بالقدر الكافى إلى ماتتجه إليه إسرائيل من التطور التكنولوجى والمعلوماتى هو ما يجعلنا- وإن يكن بسادية- نتهم المثقف العربى الآن بالغياب عن تشييد «صناعة المستقبل» - كما أشار إليها هذا الكتاب صغير الحجم كبير القيمة، وهو غياب يشير بإصبع السبابة وبإصرار شديد إلى حقيقة أن هناك« فراغًا معلوماتيًا» لدى دوائر صنع القرار فى شتى الميادين، وعبر مراحل الصراع العربى الإسرائيلى ودوائر صنع القرار لا تخلو من مثقفين.

وهل يمكن أن تخلو من مثقفين فى عصر الشبكات التكنولوجية والإعلامية، وهل يمكن أن تخلو من مثقفين: علماء وخبراء ومتخصصين..

إن غيبة المعلومات نعرفها جيدًا منذ نكبة 1948 (فى عدم التكافؤ العسكرى بين المعسكرين المتبادلين)، وهى صورة تكررت فى مراحل الصراع مع الغرب حتى اليوم (ولا نعلم إلى متى ؟)، فلا يمكننا بهذا الفراغ المعلوماتى التأمل فيما يحدث عنا ولنا، ثم التصدى بفكر عربى واع للمستقبل.

المستقبل كما نريده نحن.

لا كما يراد لنا أن نكون فيه

عود إلى.. قضية التطبيع

ترددت كثيرًا فى أن أعود لهذه المسألة، مسألة التطبيع..

ولم يكن ترددى يعود إلى حساسية الموضوع، بقدر ما كان لهذا الخلط الذى أصبح سمة سائدة فى حياتنا الثقافية فى الفترة الأخيرة، وقد عزوت هذا منذ أيام إلى نوع من «الثقافة البيزنطية» وهو معنى لا يفهمه المثقفون يضرب فيمن يشغل بالقضايا الوهمية فى وقت الخطر، وكنت قد طرحت قبلها لفظة «الرطانة» ــ بفتح الراء وكسرها ــ فى لسان العرب، وهو كلام لا يفهمه الجمهور، إما لتعدد الآراء وتباينها أو لتداخلها لتبدو كحشرجة المذياع بين المحطات الرئيسية.

المهم هنا أن ما نعثر عليه الآن ــ فى بداية الألفية الثالثة للميلاد ــ لا يعدو أن يكون نوعًا من الخلط أو الغموض، خاصة فيما يتعلق منه بقضايانا المصيرية.

وهو خلط أو رطانة أو غموض وتتسع المفاهيم ــ تغيِّم (بضم التاء) الرؤية أمامنا ونحن فى أشد الحاجة لوضوح الرؤية وتبينها.

ولأنه قدر علينا أن نقول ونعيد دون جدوى «أراهن أن أحدًا منا يقرأ البعض الآخر»، فسوف نعود إلى بعض الأمثلة لنsaid بها ـــ مجددًا ـــ على هذه الرطانة التى نعيش فيها.

ولكثرة الأمثلة وتعدد ألوان الطيف فيها، فسوف نتمهل عند اثنين، أحدهما كاتب كبير، والآخر شاعر كبير.

فلنتمهل أكثر عند نجيب محفوظ وأدونيس كمثالين.

(2)

ولأن الرطانة ترتبط بمسألة التطبيع ـــ كمثال ـــ فإن أكثر ما لفت نظرنا وزاد من الألم فينا ما قاله نجيب محفوظ، وبلغة أدق، ما تورط فيه عن قرار مجلس إدارة الكتاب بفصل على سالم، فجاء إلينا من يزعم أن نجيب محفوظ اعترض على القرار بدعوى أنه لم يحقق مع على سالم فيما هو منسوب إليه من آراء وممارسات تطبيعية.. إلى غير ذلك مما هو منشور فى أكثر من مرة وأكثر من جريدة سيارة.

وبغض النظر عن الحكم فى فصل على سالم أو الدوافع التى كانت وراء ذلك، وبغض النظر عن صواب موقفه أو خطئه ـــ فهذه قضية أصبحت من البدهيات ـــ فإن تصريح نجيب محفوظ (المزعوم) لا بد أن نتمهل عنده أكثر.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: هل قال نجيب محفوظ هذا حقيقة بوعى بعد أن درس القضية وقرأ حيثياتها؟

هل حقًّا أدلى كاتب نوبل برأى مدرك وأكيد؟

الإجابة يعرفها كل من يعرف نجيب محفوظ عن قرب..

إن نجيب محفوظ يتجاوز الآن التسعين، وهو فى حالة صحية لا تسمح له (كما يردد أو كما يردد حواريوه الكثيرون أيضا) لا يقرأ جريدة أو مجلة فضلاً عن دراسة إضافية يمكن أن نجد فيها حيثيات القضية أية قضية.

لقد أكد لى نجيب محفوظ ــ على المستوى الشخصى ــ وكنا فى خريف الثمانينيات ــ أن كل ما يملكه هو أن يستمع إلى عناوين بعض الصحف من الحاج (يقصد الحاج صبرى)، أو يعرف بعض أخبار الدنيا (بالسماع) مما يتحلق حوله من آن لآخر، وهو لا يملك من الدنيا إلا ما يجعله يطمع فى أن يكون (العائش فى الحقيقة) ــ يردد هذا بعبارته المعروفة الدمثة، غير أن ما يحول بينه وبين ذلك ــ وسرعان ما يعود إلى الجد ــ أنه لم يعد ليملك غير أمنيات الرجل العجوز: كأن تستمر خيوط السمع بينه وبين العالم الخارجى، وأن يبقى الضوء الشحيح من العالم المرئى أمامه.

ولهذا، فإن نجيب محفوظ يظل دائمًا فوق النقد أو العتاب الذى وجهه إليه عدد كبير من المثقفين.

وإذا كان ثمة عتاب، فانه يوجه إلى من يستغل «حالة» الرجل العجوز الذى يقترب من نهاية القرن، والذى تظل دماثته قيدًا عليه، فإذا به يتورط بالرغم منه فيما لا يعرفه جيدًا، ولذلك، فنحن أميل ــ لمعرفة نجيب محفوظ شخصيًا ــ إلى تصديق ما ردده العارفون به أنه تم تضليل نجيب محفوظ وخداعه ولم تطرح أمامه القضية من وجهة نظر صحيحة، فاتخذ موقفه المعلن.. نكرر هنا مرة أخرى أننا لم نتخذ موقفا من فصل على سالم، بقدر ما نؤكد على الطريقة التى نحكم بها على القرار أو ذاك، ونصل بأحكامنا ــ المغموسة فى أغراضنا ــ إلى أحكام نافذة ونستغل اسما رفيعًا كنجيب محفوظ ومحنته وتكاليف الحياة.

غير أنه إذا كان نجيب محفوظ هنا ضحية غياب الزمن وحضور «الزاعمين»، فإن أدونيس يحاول أن يجعلنا نحن ضحية الفهم الخاطئ الذى يردده، ويردده كثيرًا، ليقنعنا (من كثرة التكرار) أنه على صواب.

إنه أدونيس المراوغ.. وحساباته المراوغة.

(3)

وقضية أدونيس ترتبط هنا بالقضية المثارة أخيرًا حول محاولات ترجمة أعمال عربية للعبرية، المحاولات التى أثارها الكاتب المغربى محمد برادة حين اتصل بعدد كبير من الكاتبين بغرض الترجمة لدار معروفة (وإن كانت القضية مثارة قبل ذلك).

وعبورًا عن الجدل الكثير الذى دخل فيه الأدباء والناشرون والمثقفون حول ترجمة الأعمال العربية للعبرية، وعلاقة هذا بالتطبيع، فإن قضية الترجمة هنا ترتبط ـ بغير أدنى شك ـ بقضية التطبيع، وإن المجاهرة بأن الترجمة من العربية إلى العبرية ليست له أية علاقة بإيثار التطبيع والمجاهرة به يظل وهمًا أو باطلاً أريد له أن يكون حقًّا..

بل إن مراجعة الصحف العربية والعبرية ترينا أن شبهة التطبيع تكون برضاء هذا الكاتب و ذاك للدخول فى حوار إنسانى مع الإسرائيليين، فى وقت لا تمثل فيه اسرائيل دولة اليهود المعروفين تاريخيًّا (يهود التوراة مثلاً، فهم شتات غربى) فضلاً عن أن إسرائيل ما زالت ترفض التوقيع على الاتفاقية الدولية لأسلحة الدمار الشامل، كما أنها لا تتوقف عن قذف لبنان وتهديد سوريا بل ومصر أيضًا فى الفترة الأخيرة، فضلاً عن أنها ما زالت توالى عملية الإبادة المستمرة للشعب الفلسطينى.

إن أدونيس يكتب فى زميلتنا (الحياة) فيسأل سؤالاً خاطئًا ضاربًا المثل ببريطانيا:

إذا كنا فى حرب معها ألا يمكن أن نكون فى الوقت نفسه فى سلام مع شكسبير؟ ويظل فى المقارنات بين موقف الحرب مع ألمانيا أو فرنسا أو إيطاليا فى نفس الوقت نفسه نعادى بيتهوفن وجوته وديكارت وليونارد دافنشى.. إلى غير ذلك.

وقبل أن نعود لرطانة أدونيس ننقل فقرة تالية بالحرف الواحد له، يقول:

«إذا كان الجواب نعم، وهو بالنسبة إلىَّ كذلك، فلماذا لا يمكن أن نحارب إسرائيل ونسالم، وفى الوقت نفسه الفن والأدب اللذان ينتجهما كبار الأدباء والفنانين اليهود خارج إسرائيل وداخلها؟

ونعرف جميعًا أن الإسلام حارب فى بداياته اليهود دون أن يقاطع الفكر اليهودى أو الثقافة اليهودية وحارب الروم فيما بعد والفرس دون أن يقاطع الثقافة البيزنطية أو اليونانية أو الفارسية).

وهنا لا نملك غير العود للدهشة التى يخلفها لنا الشاعر..

ـ وهل العلاقة بيننا الآن وبين إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا مثلاً هى هى العلاقة مع إسرائيل؟

ـ وهل الأدب اليهودى خارج إسرائيل هو هو الأدب داخل إسرائيل الآن، حين تؤثر إسرائيل المعاصرة سياسة التذبيح و«الجزأرة» ضد شعب أعزل فيما تبقى من فلسطين؟

ـ بمعنى آخر، هل الأدب الإسرائيلى الآن، وهو فى الغالب أدب عدوانى فى أغلبه ينتمى إلى الإستراتيجية الصهيونية، هو هو الأدب الذى نعرفه من كتّاب اليهود فى التاريخ أو يهود «التوراة»؟

ـ ثم كيف يقارن أدونيس موقف الإسلام فى بداياته من اليهود؟

ـ وهل يحسب الشاعر الكبير أن يهود القرن الهجرى الأول فى المدينة ـ على سبيل المثال ـ هم هؤلاء اليهود الغنصريون الآن الذين انتخبوا ـ على المستوى الشعبى ـ شارون السفاح، ويدعى مثقفوهم ـ من جبهة كوبنهاجن أو اليسار.. إلخ أنهم هم كهنة أو ممثلو الشعب اليهودى أنثربولوجيًا؟

ـ ثم ما علاقة الإسلام ـ فى بداياته أيضًا ـ بالفكر اليهودى والثقافة اليهودية اليوم؟

وإذا كان الإسلام ـ فيما يزعم أدونيس قد حارب الروم دون أن يقاطع الثقافة البيزنطية أو اليونانية أو الفارسية فإن هذا يظل له موقعه وخصوصيته فى التاريخ دون أن ندلل به على الحاضر (فالقياس خاطئ).

الحاضر يقول لنا إن التطبيع مع الفكر أو الثقافة اليهودية اليوم (هل هى يهودية حقًا أم إمبريالية) إنما يظل سلوكًا خاطئًا وضربًا من الأمثلة التى لا تتماشى مع الحاضر لا نعرف فيه غير صهاينة مهجنين آتين ـ بالثقافة والجنس من عناصر الغرب الإمبريالى الأوروبى أو الأمريكى فى غرب العالم أو طوفان الخزر فى شرق العالم..

إنه التطبيع الذى يدل ـ فى أحسن تقدير ـ على الغفلة ـ إن لم يكن سوء النية القائمة على حسابات يراها من يعيش فى الغرب ويستفيد من ثقافته.

إن التطبيع الثقافى الآن هو ضرب من التعامل الخاطئ مع عدو شرس..

التطبيع الصحيح يقوم بين طرفين متعادلين فى القوة والإستراتيجية، أما أن أحاول التطبيع (الثقافة) خاصة مع قوى تسعى إلى الاستيلاء على مقدراتنا ومستقبلنا، إنما يظل تطبيعًا أو علاقة غير طبيعية (أو قياسًا له خبيء).

إن الدعوة إلى هذا التطبيع الآن إنما تظل موقفًا متدنيًا أو هو ـ إذا أحسنا القصد ـ يظل غافلاً لطبيعة الصراع غير المتكافئ بأية حال مع إسرائيل أو الصهيونية (الإمبريالية)..

إن الدولة الصهيونية تمثل شذوذًا بنيويًا ـ على حد د. المسيرى فى موسوعته ـ السمة الأساسية له أنها تجمع استيطانى إحلالى يوظف الديباجات اليهودية، وأن نقطة انطلاقه هى الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهودة، التى تذهب، فى نهاية الأمر، وفى التحليل الأخير، إلى أن اليهود شعب عضوى يعيش فى الغرب ولا ينتمى إليه، ولذا يجب أن يوطن

فى أرض أجداده، أى فلسطين، التى يجب أن تفرغ ممن قد يتصادف وجوده فيها من البشر، وقد ترجمت هذه الصيغة إلى الشعار: أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.

هل نعود ثانية لرطانة المثقف؟

عود آخر إلى.. قضية التطبيع

هل هو فقدان البوصلة..؟

سألت نفسى وأنا أعود مرة أخرى إلى هذه القضية.

فبعد أن عرضت حيرتى المرة الماضية حول تفسير هذه الحالة، فأشرت إلى أنها الرطانة أو «الثقافة البيزنطية» أو ـ فى مرة ثالثة ـ نوع من الخلط والغموض.. وجدت الكثير من ردود الأفعال بعضها يشير إلى هذا وبعضها الآخر يضيف أسبابًا أخرى تكاد تترجم هذه الصفات بتعبيرات متباينة، أو تضيف إليها غير أن كلها كانت تشير فى النهاية إلى غياب الوعى..

وغياب الوعى هنا عبرت عنه العديد من هذه الرسائل.. وكانت من التباين بحيث شغلت ـ أثناء التعرف عليها ـ فى حوار لا تغيب دلالته على القارئ اللبيب..

جمعت ما وجدته على مكتبى من بريد أو فاكس أو عبر مسافات «الويب..» ورحت أفكر ـ مع القارئين الكرام ـ فى هذه الحالة، ولأن الردود كانت من الضخامة بحيث يصعب إثارتها كلها، فقد اخترت منها اثنين لأدخل معهما فى «حوار» إيجابى أو أفكر معهما بصوت عال حول موقف المثقف العربى اليوم من أهم قضايانا.. قضية التطبيع.

ما هو موقف المثقف من التطبيع؟

هل هى الرطانة ثانية؟

لنحاول الخروج من كل هذه الرطانة إلى ما بين أيدينا.

(2)

ورغم بداهة «الحالة»، فإن الغريب أننا ما زلنا نتحدث عنها، وما زالت تأخذ أشكالاً شتى: النشر، الزيارة، المشاركة، ممارسة ترجمة الكتب العربية (بعقود) أو ترك الترجمة أو تجاهلها، هل هى إدانة التطبيع (أى أخذ موقف) أم تجاهل الأمر برمته؟ هل التحدث عن ثقافة «الآخر» أم ثقافة «الخصم»؟

سألت نفسى فجأة وأنا داخل الشبكة: أليس هذا كله رسمًا لحالة أشبه بالتناقض المعرفى؟

تذكرت أن التناقض المعرفى هو مصطلح أطلقه البعض هنا على هذه الحالة، بل وراح يعرفها بشكل علمى خالص، فما نعانيه هو ترجمة لمصطلح هو:COGNITIVEdissonan وطيلة متابعة ردود الأفعال أمامى أجد مصطلحات كثيرة يتركها المثقفون «المولعن بالمصطلح» من معانى التناقض أو التنافر الذى يصور حالة مثقفنا العربى، حتى إن لفت البعض نظرى إلى تأكيد البعض ـ وفى معرض تأكيده لهذه الحالة عبر اللفظة ـ إلى تكرار كلمة معينة هى dissuasion، وهو يحمل هذه المعانى من الاضطراب والغموض والتردد. ولا أريد الإغراق فى المصطلحات الغربية لولا أن مثقفينا هم أصحابها للتعبير عن هذه الحالة، لدرجة أن اللفظة السابقة يمكن أن تترك مشهدًا ما على شاشة (لا يهم أن تكون بيضاء أو زرقاء.. سينما أو تليفزيون) محل مشهد آخر بطريقة تدريجية.

أى أن ما نشهده اليوم ـ فى عصر السماوات المفتوحة والمثقف «الموظف» فى الشركات العالمية من ذوى الياقات المعدنية (وهو نمط يردد الآن فى أدبيات التكنولوجيا الغربية).. وهذا وغيره يمكن أن يقدم لنا واقعًا ميدانيًّا حقيقيًّا على الشاشة (الواقع) فى حين أنه زائف عليها..

ومع تراكم هذه العملية تزداد حالات اليقين، يكتب د. مصرى حنورة وننقلها بالحرف الواحد، نقرأ:

«.. إنه مع زيادة عمليات الاتصال وكثير منها مقصود به غسيل مخ للمستهدفين من العملية الاتصالية ـ بدأت تتزايد أيضًا الصيحات المتطرفة هنا وهناك كدالة على حالة فقدان الاتجاه وعدم تحمل الغموض..

وكما نرى فإن متاهة المثقف القومى ـ بل والمثقف فى كل مكان ـ أن كثيرًا من الأمور لم تأت من الفراغ، بل ربما كانت أمرًا منطقيًّا مع ما يحيط بهذا المواطن سواء أكان مثقفًا أو كان من عامة الناس من غموض وتناقض وتنافر وارتباك».

وعلى هذا النحو يقول المتخصص فى علم النفس الإبداعى إن ما يقال حول هذه القضية إنما هو ثوب الحق الذى أريد به باطل، فأى سلام وأى تطبيع وأى انفتاح على ذلك الحشد الحاشد من المتناقضات والتنافرات والفوضى والاضطراب الذى تشهده الساحة العربية، فضلاً عن الساحة العالمية والساحات المحيطة بنا هنا وهناك.

ونترك من يدعو إلى تكريس الوضوح كسبيل للفهم والحكم واتخاذ القرار، ثم الفصل إلى آخرين يرددون مثل هذا، ليفسروا به مثل هذا أيضًا..

نعود لنقف على خط التباس آخر رغم بداعة الطريق ودلة التعريفات لنعبر هذا الكم الكبير الذى ما زلنا نراه فى الصحف من عصبية وشتائم واتهامات وإطلاق رصاص «الجهل» و«الغباء» على الآخرين ونقف عند رأى آخر نجده فى كل هذا السيل المتدفق أمامنا.

(3)

ما زلنا نقف عند خط الالتباس ـ هو التعبير الذى آثر ترديده آخر ـ الذى دفع مثقفينا دائمًا إلى افتقاد بل «فقدان» البوصلة الحقيقية للرؤية.

لكن كيف نحدد جذور البوصلة؟ هذا سؤال نحاول الإجابة عنه من

وقت بعيد، إن البحث عن اليقين الذى تمنحه حركة البوصلة يبدأ من النظر إلى الآخر..

إنه الآخر الذى سبق وأن اشرت إليه، ولم أخرج به فى السياق عن «الآخر الصهيونى» الذى هو بحال من الأحوال لا يخرج ـ بدوره ـ عن «الآخر الإمبريالى» فلا فارق بينهما..

ونظرة سريعة إلى تاريخ الصراع يرينا أنه وإن كان الآخر لدى إسرائيل له معنى مغاير يرتبط بتعريف الآخر، فإن الآخر الصهيونى ـ لدى الصهاينة هو غير اليهودى الصهيونى، إنه جويم أى ـ بالمعنى الصهيونى المعاصر ـ رمم أو أقلاف، غير أن التعرف على هذا الآخر يستلزم منَّا التعرف أكثر عليه يكتب محمد يوسف:

إلى..

إن هرتزل وجابوتنسكى كاهنى وقطبى الحركة الصهيونية التى رضع حليبها بن جوريون وموشى ديان ومناحم بيجن وإسحاق شامير وإسحاق رابين والخنزير الدموى شارون.. هما قابيل فى نسخته الصهيويهودية، ومن ثم فإن نظرية الصقور والحمائم التى يتبناها كثير من العرب لا وجود لها إلا فى أذهان المفتونين والمجذوبين بالمسميات الرومانسية الفارغة، والتى تتسبب مباشرة فى تجويف الزمكان وتحريف الرؤية ومحو البوصلة..؟!

وللأسف فإن دعاة التطبيع منى المثقفين والرومانسيين أمور يريدون تحقيق مآرب ذاتية عن طريق:

ـ التدليس الجيوسياسى.

ـ توهم ترويض الآخر.

ـ توهم إقامة حوار مع طرف يدعون أنه من الحمائم.

ـ توهم إيجابية الفعل الإمكانى فى خلخلة وربما إزاحة مراكمات الصهيويهودى المسلح طبقات من الفعل الجيو سياسى والجيو عسكرى.

ـ الاستعمار التقليدى خاصة فى عقود العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين المنصرم.

ـ الإمبريالية الأمريكية ذات الأقنعة المتعددة بدءًا من القناع البراجماتى مرورا بـ «قناع التناطح التكنولوجى الأيديولوجى» وانتهاء بـ «قناع العولمة» أى الأمركة وصنع الكرة الإلكترونية بـ «مواصفات رامبوى القطب الأحادى» (الخارق الأخرق)، حيث تنميط سكان الكوكب الأرضى عبر الوصفة السحرية.. ماك أو ماكدونالدز الذى يحقن الدماء كما يرى توماس فريدمات فى كتابه «السيارة ليكساس وغصن الزيتون»

والمفجع أن ثقافة الرطانة تتكئ على عكاز فائض وعادم الثرثرة فى ظل غياب الحرية (الشرط الأساسى لـمعرفة الذات ومعرفة الآخر..؟!»).

إنتاج ثلاثية: الديمقراطية وقبول الآخر والتحاور معه على أرض وأرضية الاختلاف والندية.

فإذا كان الآخر الذى حددناه فى بداية هذا الكلام هو كيانًا جيوسياسيًّا مصطنعًا مدججًا بـ رؤية الغلط المفترس ورامبوية اللوبى الصهيونى الممتد عبر الفضاء الإلكترونى فى أمريكا إلى إسرائيل» إذا كان هذا الآخر.. يمارس إخصاءنا وإقصاءنا منتهزًا فرصة انعدام شرط الحرية والثلاثية التى أشرنا إليها.. فماذا يعنى ذلك؟

المعنى بكل بساطة مسخنا ومحونا أى مسخ ومحو كينونتنا وشخصيتنا وخصوصيتنا.. فإذا تم مسخ ومحو هذه الشجرة وما يكمن فيها من فكر وثقافة وإبداع فماذا يبقى أو يتبقى منها؟

محمد يوسف

إن الإجابة على هذه الأسئلة يعيدنا مرة أخرى إلى البحث عن معنى للتطبيع والبحث عن المعنى الكامن فى ذهن من يدعوننا للتطبيع، بل

ويمارسونه بدم بارد، إنها مرة أخرى «الرطانة»، وإن كان يعيد صياغتها الشاعر هنا فى تعبير«الرطانة المكعبة» التى تؤكد أن الدم العربى يصير ماء على أيدى المدلسين الطاعنين فى الرؤية الببغاوية الهشة..

وعود على بدء هل رطانة المثقف العربى الآن نوع من «الرؤية العمياء» التى تذكرك بـ «أسطورة الفيل والعميان الستة»، والحديث هنا للقارئ اللبيب.

أى حوار.. وأى حضارة ؟

أعترف أنه يغيظنى إلى حد بعيد ما أقرأه أو أسمعه عما يسمى بحوار الحضارات والمواجهة وصراع الحضارات وحوار الأديان..إلخ، رغم مضى بضع سنين على عاصفة مانهاتن.

إن هذه اللهجة التى أوقعنا فيها الغرب ما زالت تسيطر علينا، ليس على الكتّاب وحسب، وإنما عند الرجال الحكماء الذين كان من المفروض أن ننتظر منهم الوعى.

فأية حضارة هى التى يتربص بها من الغرب؟

وأى دين هو الذى أصبح يصدر الإرهاب للغرب؟

وأى قيم «جهادية» هى التى أصبح يخاف منها؟

ثم كيف تردد أسماء للتدليل على صحة أفكار اختلقت اختلاقا.

من مثل هنتنجتون وفوكوياما وهاليداى وبرنارد لويس.. إلخ؟

أقول: يغيظنى فيما ردده الغرب ونردده خلفه.

افتح أية صحيفة عربية الآن فستجد فيها الأفكار العامة أو الأعمدة أو المقالات تماما كما هى فى الصحف الغربية..

افحص أفكار بعض هذه المقالات سوف تعثر على الأفكار نفسها التى

تردد هناك من ضرورة التنبه إلى هذا الصراع بين الحضارات، والغريب أن كثيرًا انزلقوا إلى مثل هذا.

ويمكن أن نضرب مثالاً واحدًا- والأمثلة العربية لا تنتهى - وهى تستمد غرابتها من أنه حين يسأل البعض عن الدعوة التى برزت للحوار بين الأديان فيرددما يردده الكثيرون، وأنا مهتم بإيراد بعض هذه الإجابات بالحرف الواحد لنرى «غرابة حالة» هذا المثقف العربى من مثقفى أمتنا، حتى خارج الديار حين يعرض لهذه الأزمة لنا الغرب.

إنه يسقط فى مصيدة ما يقدم إليه فيعود إلى ترديد الفكرة الواحدة دون التنبه للمؤامرة الكبرى التى ينسجها لنا الغرب.

فلنحاول الإشارة إلى بعض الأمثلة التى غررت بنا.

(2)

أكثر ما يلاحظ، منذ بدأت عاصفة الثلاثاء منذ قرابة شهرين أو ينيف، أن راح عدد كبير من كتّابنا (الكتبة) أوالمثقفين (المثقفين) يغيبون فى مثل هذه التنظيرات الكثيرة التى وضعت خصيصًا فيما يبدو، وسنضرب مثلاً أو مثلين لعبا أهم الأدوار فى هذا الصدد.

- فنحن لا نميل إلى القول إن ما جاء به هنتنجتون - وهذا هو المثال الأول - كان اجتهادًا عامًا حين نشر لأول مرة مقالاً فى مجلة أمريكية معروفة عنوانها «شئون خارجية» فى بداية التسعينيات 1992، وما لبث أن طورها لتنشر فى كتاب عام 1996بعنوان «صراع الحضارات»

ومن يتابع الفترة الطويلة منذ بداية التسعينيات حتى نهايتها يلاحظ أن هذه المقالة نالت اهتمامًا غريبًا ودخلت أو دخل إليها نقاشات عديدة شارك فيها عدد كبير من الكتاب المنظرين والسياسيين ورجال الأعمال فى الولايات المتحدة الأمريكية، ووجدت نقاشًا كبيرًا تاليًا بين الكتاب العرب،

وتبلورت وأشيعت فى العقد الذى كان النظام العالمى الجديد قد أعلن فيه، عبر تأكيد جورج بوش، فى بداية التسعينيات عن قيام النظام العالمى الجديد وحيث كانت الولايات المتحدة الأمريكية هى القطب الواحد بعد سقوط سور برلين وانتهاء الاتحاد السوفيتى، وأصبح القطب الواحد الآن فى حاجة لعدو جديد يدخل معه فى صدام وليس صراعا.. نقول صدامًا وليس صراعًا خاصة حين ترجم إلى العربية.

إن لفظة THE Clash تعنى فى اللغة صدامًا أو ارتطامًا بدرجة أولى (الصراع هو Conflict) من ثم، تتغير المعانى وتتحدد أكثر.

- هذا هو المثال الأول، أما المثال الآخر فيمثله الكتاب الذى كان فى الأصل - أيضًا- مقالة لفوكوياما، ونشرت هذه المقالة قبل ذلك بقليل فى مجالة «ناشيونال إنترست» عام 1989 وما لبثت، كسابقتها، أن لاقت، اهتمامًا كبيرًا، عبر كتّاب غربيين كثيرين أمريكيين وفرنسيين ومن ثم عرب فى فترة تالية.

والجدير بالذكر هنا أن فوكوياما كان يعمل فى إدارة التخطيط السياسى فى الإدارة الأمريكية، وهى ملاحظة لا تخلو من دلالة فى ذلك السياق..

وما يقال عن هنتنجتون أو فوكوياما يقال فى صحف كالواشنطن بوست ووكالات كالإسوشيتدبرس وشبكات كـ «إن . بى . إس» وغيرها وما يقال عبر اليمين الغربى - يقال عن اليمين الأمريكى -.. و الإسرائيلى بالتبعية.

وما يقال الآن - بعد11 سبتمبر - هو ما قيل قبلها، وما رسم له بغير، فما حدد لنا ونحن هو هو الذى يجسد الآن عبر «عسكرة العولمة» و«عسكرة الإرهاب» التى تمارسها الآن قوة القطب الواحد فى وضح النهار.

وهو ما يعود بنا ثانية إلى ما نشهده فى المشهد العربى..

(3)

فى إحدى ندواتنا أو فى أى تجمع عربى معاصر نسمع كلامًا لا يتغير يقول الأمين العام للمجلس الأوروبى للإفتاء والبحث ورئيس المجلس الإسلامى بأيرلندا:

- نحن مأمورون بالمحاورة والمجادلة بالتى هى أحسن، قال تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

.. ونحن لا نخاف الحوار.. ونحن فى هذا كله لا نعرف العلاقة بين ما يجئ به الغرب وما يقوله أبناء الشرق..

ونترك المسئول الإسلامى الكبير يكمل ما أسهب حوله عدد كبير من مسئولينا فى الدين والفقه، أو عديد من ألوان الطيف من مثقفينا ممن يحسبون على التيارات العلمانية أو الماركسية أو - حتى - القومية.

فالغريب فى المسألة أن الغرب يتخذ من الدين ذريعة ولا يتردد أن يلتمس فى الحضارة أو التاريخ ذريعة أخرى لإلهائنا.

ثم إنه يتحدث خلال هذا كله عن الإرهاب، وهذا الصراع بين الغرب المتقدم والشرق المتخلف، الغرب الحضارى والشرق البربرى.

وهذا لم يستطع أن يخفيه ساسة الغرب قبل مثقفيهم ومستشرقيهم، قال به بوش الابن ولما تمضِ ساعات على عاصفة الثلاثاء.

وردده بعده تشينى وكيسنجر وبلير وبيرلسكونى وتاتشر.. إلى آخر القائمة التى شمرت عن سواعدها عشية الحادث.

والقضية التى يعجب لها المرء حتى ساعة كتابة هذه السطور أننا ما زلنا نتحدث عن حوار الحضارات وحوار الأديان.. وما إلى ذلك مما عقد له مؤتمرات وندوات لا يمكن حصرها. ولا يمكن أن تولى وجهك فى بلادنا

اليوم أو المهاجرين منها فى أى بلد خارج الوطن العربى إلا وتجد أمامك مؤتمرًا أو ندوة أو مقالة أو بحثًا.. لا يخرج عن صراع الحضارات أو حوار الحضارات أو حوار الأديان وما إلى ذلك مما لا يعمل له الغرب بأية حال.

القضية أيها السادة أن الغرب لا يريد منا غير الخضوع قد تلجأ لذريعة، أولا يلجأ، المهم أننا ننساق وراء زيفهم - ونحاول التدليل على حسن النوايا- إنه التدليل، على حسن نوايا الضعيف، فالقوى هو الذى يفرض شروط اللعبة، فيقف الذئب فى أول القناة أو آخرها ليهدد الحمل الضعيف (لا نقول الوديع) بأنه - أى الحمل - يعتدى على حق الذئب فى الحياة، إنه يعكر المياه، ولأن الحمل ضعيف لا يستطيع أن يرد على الاتهام المتهافت، فإنه يلجأ إلى ما يقوله القوى فيحاول تبريره، يحاول تبرير موقفه بالقول.. والضعف لأنه لا يملك غيرهما.

القضية أيها السادة أن الغرب وضع «إستراتيجيته» لسنوات ويعمل لها بإتقان ووعى، ثم ها هو الآن يقوم بتنفيذها بالقوة هذه المرة وليس بالاقتصاد وحده.

أما الحمل فلا يملك غير الرد المتهافت كيلا يفقد كل شيء وهذا أيها السادة الاسم الحقيقى للحوار والحضارة التى نرد بهما على الغرب اليوم

الذئب والحمل

بمجرد أن نشرنا مقالتنا السابقة تحت هذا العنوان حتى لاحظت - من كثرة ردود الافعال- ارتفاع درجات الوعى الذى يتمتع به رجل الشارع وليس المثقف فى بعض نماذجه.. فقد فوجئت بحجم ضخم من المكالمات التليفونية أو رسائل الويب تناقش القضية ولا تلبث ان تركن الى اليقين بالخدعة التى أراد أن يضصعها لنا أو يضعها فينا الغرب...

ولنرجيء «كل» ما جاءنا لمرة قادمة ونستكمل «خدعة» التعبير وقوة رد الفعل ضدنا، فما يدور الآن فى أفغانسان وخارجه بدرجات متفاوتة ليس هو

«صدام حضارات» أو ثبات النيوليبرالية إلى «نهاية التاريخ الغرب»، لا، إنها مصالح الغرب..

مصالح الغرب التى يراد التغطية لها بمقولات تتردد كثيرًا، ليس هذه الحقبة فقط، وإنما فى التاريخ الاستعمارى الغربى للشرق كله، ليس من سعى الولايات المتحدة باستعداء العقيدة لمحاربة السوفيت فى الثمانينيات عبر أفغانستان فقط، وإنما منذ سعى الغرب لتأكيد مصالحه المباشرة عبر تغطية راح يشغل بها مثقفينا وكتّابنا..

والأمثلة - إذن - نجدها ليس فى الحاضر فقط، وإنما يمكن الوصول إليها فى فترات كثيرة من التاريخ، غير أن النيوليبرالية، وهى أعلى درجة وصلت إليها البنية الأيديولوجية للرأسمالية المتوحشة هى أحدث مثال يمكن أن نعايشه نحن الآن فيما نراه أمامنا فى أفغانستان، وما توزعه ظلال ما يحدث فى أوطاننا العربية والإسلامية بدرجات..

وهى أمثلة نعبر معها إلى ما بعدها.

(2)

لنصعد إلى التاريخ عجلى قبل أن نعاود الهبوط إلى الحاضر.

ويظل مثال الجنرال جورو من أفضل الأمثلة التى لا نستطيع مقاومتها للتدليل عليها من الحرب ضدنا الآن ليست هو صراع الأديان أو «صدام الحضارات» بأية حال، وإنما هى روح يغلب عليها الروح السياسى أكثر من العقيدة أو الحضارة..

إنه صراع المصالح الوحشية الغربية وإن ارتدت ثوب الدين طورًا وثوب الحضارة طورًا آخر..

هل نذكر معركة ميسلون فى سوريا؟

هل نذكر وصول جورو إلى دمشق عام 1920؟

ثم هل نذكر ما قاله باول وهو يقف أمام قبر صلاح الدين الذى أخرج الصليبيين من الشرق بعد هزيمة منكرة؟

إن أول ما قاله جورو - وهذه إجابة واحدة لأسئلة شتى فى الماضى والحاضر - وهو يقف أمام الضريح:

- ها نحن عدنا يا صلاح الدين.

لم يقل لنا التاريخ إن الجنرال الفرنسى كان متدينًا.

ولم يقل لنا التاريخ إن القائد الذى انتصر بمساعدة العرب احترم الرجل الذى يرقد فى ضريح منذ قرابة عشرة قرون!

إن كل ما يهم القائد الغربى أن الغرب انتصر، وها هو يوشك أن يثبت أقدام الغرب على أغلب العالم الإسلامى ليحقق أحلامه التوسعية واستعماره الوشيك فنعرف من المعاهدات بين أقطار الغرب ما ييسر تقسيم الوطن العربى فى سايكس بيكو فى بداية القرن الماضى واجتزاء فلسطين العربية فى منتصفه ثم السيطرة أكثر على الأرض والنفط فى أزمة الخليج الثانية إبان غزو العراق للكويت فى نهاية ما يعقب هذا كله حتى الآن من تطورات لا يتأكد منها إلا بتحقيق الغرب لأطماعه فى أوطاننا

ويكون علينا أن نكتشف هذا الوجه الاستعمارى القبيح فى كتاب هنتنجتون نفيه، إن المنظر الأمريكى الذى وضع تقريره المقالة والكتاب، حين تنتهى أزمة الخليج بهزيمة صدام حسين يقول بالحرف الواحد فى كتابه الذى صدر بعد ذلك هذه العبارة: «... مرة أخرى الغرب ينتصر. مرة أخرى يلقي صلاح الدين الأخير الذى رعى آمال العرب، هزيمة أمام قوة غربية كاسحة، تم إقحامها عنوة داخل جماعة الإسلام».

الأكثر من هذا أن الرئيس بوش - كما يلاحظ صاحب «صدام الحضارات نفسه» ـ لم يتوقف إبان حرب الخليج أن يذكرنا فى العلن وبشكل

متكرر بأنها «حرب دينية» مع إشاراته المتكررة التى كانت تفوح برائحة هجمات المرتزقة الماكرة لقبائل ما قبل الإسلام فى القرن السابق والصليبيين والمسيحيين فيما بعد..

إنها حرب الغرب الذى يريد السيطرة بأية شكل، متذرعًا بالتاريخ مرة، محاولاً أن يخفى ما يسعى إليه هذه المرة.

ولا نكون فى حاجة لاستدعاء من التاريخ أيضًا صورة اللنبى الإنجليزى الذى سيطر على أقطار عربية كثيرة فى مقدمتها مصر..

إن التاريخ يذكر لنا أن الإمبريالى اللنبى كان يقرأ فى كل ليلة فى كتابين أحدهما الإنجيل ويلاحظ البعض هنا أنه كان ينظر إلى أعماله كلها بشىء من الصليبية الحديثة، غير أنها كانت صليبية حديثة - بتعبير سمير عطا الله - فى كتابه «جنرالات الشرق».

..«إنها كانت صليبية غير مغلفة بالطابع الدينى هذه المرة، وإنما بستارها السياسى والإستراتيجى العسكرى..

السياسى لا الدينى بأية حال، فلم يكن ليستطيعه الغربى المستعمر - حتى لو أراد- أن يبعد صورة الماضى عن خياله.

لم يكن ليستطيع أن يبعد صورة أولئك الغربيين القساة فى القرن الحادى عشر الذين دفعهم دفعًا البابا أوربان، وتهييج الجماهير الغربية لغزو الشرق باسم الصليبيين بينما يحملون أطماعًا وحشية.

لم يكن ليستطيع قط أن يبعد صورة الماضى عن خياله.

هل لاحظ معى القارئ الكريم أن هنتنجتون يورد عديدًا من هذه الأمثلة، ويردد العديد منها حتى بعد عاصفة الثلاثاء.

وهو ما يغرينا أكثر للتوقف عند هنتنجتون لقلة الدلالة غير الشعورية أو الشعورية المباشرة على كتابها.

(3)

إن هنتنجتون ليس غير مثال لكثير من الكتّاب الموجهين فى هذا الاتجاه والمعدين له جيدًا فى التسعينيات وربما قبلها، ورغم أنه لا يعنينا فى كثير هذا الرجل الذى كتب ما كتب بإيعاز جهات تصنع «استراتيجية» ضد الشرق، ورغم أنه لا يعنينا هذا الرجل الذى أكد أكثر من مرة أنه غير متخصص وغير خبير فى الإسلام (آخرها كانت فى اللوموند..)... فإن التمهل عنده أكثر يحيلنا إلى هذه الحيل التى نعثر عليها لدى أولئك الذين يريدون أن يؤكدوا لنا من الغربيين أو الى الشرقيين هذا العنف الدينى الذى دفع الغرب إليه ضدنا بمسميات كصدام الحضارات أو نهاية التاريخ وما إلى ذلك.

إن لدينا مثل هنتنجتون الكثير بدرجات متفاوتة، مرورًا بمللر ومارتن كرامر وبايبس وبارى روبن وبرنار لويس وفوكوياما، وصولاً إلى توماس فريدمان، ونستطيع أن نجد الكثير من الكتّاب والمنظرين التابعين لجهات مخابراتية ومدفعيات صهيونية من أمثال برنارد لويس وسفران وفى الفورين إفرز أو النيويوركر.. أو غيرهم كثير.

وهو ما يعود بنا ثانية - إلى صاحب صدام الحضارات - كمثال..

فمع أن هنتنجتون يشغل طويلاً للتمويه بالصراع داخل الإسلام، ويخصص صفحات للحديث عن الخلافات الداخلية للتضخم الديموجرافى أو غياب دولة المركز، ومع أنه يصف الحضارة الإسلامية بانها تمتلك حوافز سلبية أسماها «الحدود الدموية bloodsborders، فإنه يصل من هذا كله إلى أن الخلافات ونزعات التوسع هى التى تدفع للخوف من هذه الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى. الرجل الذى قدم دراسته إلى وكالة المخابرات المركزية يؤكد لمرات كثيرة عبر كتابه والتعليقات التى وجدناها هنا وهنا فى عديد من الصحف ومنسوبة إليه، يؤكد أن هناك ميلاً إسلاميا للعنف، وبعد أن يعرض للعنف تاريخيًّا لدينا يتوقف عند القرن

العشرين ليكرر دلالات العنف التى تنسب إلينا، إنه الدين الذى توجه إليه سهامه، سواء أكان هذا بشكل مباشر أو غير مباشر، لنقرأ على سبيل المثال ـ هذه العبارة لهنتنجنون، يقول: «هناك محاجة أن الإسلام كان دينا للسيف منذ البداية، وأنه يمجد فضائله القتالية..» و «..وتعاليم الإسلام كما يقال تنادى بقتال غير المؤمنين..» و «.. ونسبة الفتنة أو الصراعات الداخلية إلى « الجهاد» تحولت إلى حد كبير لصالح الولى «القرآن» وغيره من الإفادات فى المعتقدات الإسلامية يحوى القليل مما يحض على تحريم العنف، كما إن مفهوم اللاعنف غائب عن الفكر الإسلامي»..

إن كتابه ملىء بمقررات يؤكدها من آن لآخر كالنز القتالية الموجودة فى العقيدة، ويسهب فى هذا لتأكيد هدف واحد، أن العدو الأزلى - السوفيتى - قد انتهى، وبقى علينا الآن أن نتنبه للعدو العنيف القادم أو الذى يعيش بيننا فيهدد حضارتنا، أن حضارة الغرب - كما يؤكد - تهدد العقيدة الإسلامية.

إن صدام الحضارات أصبح الآن، - لدى هنتنجتون وغيره ـ يأخذ منحى متعمدًا أن الإسلام- وليس حضارة الإسلام بأى حال ـ يضع كمقابل وحيد للغرب حضارة الغرب ـ وهو مفهوم حضارى ـ ثقافى يضع فى مواجهة الإسلام الذى هو عقيدة.

لماذا لا تضعع الحضارة الإسلامية إذن فى مواجهة الحضارة الغربية.

إنها- ثانية - أيها السادة - حكاية الذئب والحمل.

«العدو رقم واحد»

ليس هذا التعبير من عندى وإنما هو من ورقة بحثية شغل فيها د. محمد عابد الجابرى بهذه المواجهة أخيرًا حين لا حظ أنه من أجل المصالح الأمريكية يمكن أن يكون الإسلام العدو رقم 1 إذا ما تصادم مع مصالح الغرب..

هذه هى الحقيقة التى يجب التنبه إليها.

وهى الحقيقة التى يمكن التنبه إليها على الأقل فى النصف قرن الأخير، أو قبل ذلك حين كانت العقيدة تمثل حائلاً بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين أطماعها التوسعية الاستعمارية الجديدة.

ففى الأربعينيات كانت حركات التحرر الوطنى فى أقطار العالم الثالث - وفى مقدمتها مصر - تصل إلى أقصى درجة لها من درجات المقاومة

ومن ثم، شهدت الأربعينييات هذا الصراع المعروف بين إنجلترا والولايات المتحدة لاستخلاص السيطرة على المنطقة العربية..

والذى يراجع الوثائق التى أفرج عنها أخيرًا (الوثائق الإنجليزية أو الأمريكية) يروعه هذا الصراع الذى كان قد وصل إلى درجة عالية بين الإمبراطورية الغاربة والإمبراطورية الصاعدة، حتى إذا ما كنا فى الخمسينيات، كان نشاط الولايات المتحدة الأمريكية ومشروعاتها ومخابراتها.. إلخ يسعى للهيمنة على أقطار الوطن العربى فى طريقها للسيطرة على العالم فى عصر القطبين، حيث كان الاتحاد السوفيتى ما زال يلعب دورًا حيويًا.

ومن الأربعينات - كاختيار عشوائى لمرحلة زمنية - نستطيع رصد دور الغرب من أقطارنا العربية وليس الدور الأمريكى فقط.

(2)

ومن يرصد للموقف الأمريكى فى الأربعينات من القرن العشرين يلاحظ - خلال الوثائق وعبر الإشارات التاريخية - الدور الأمريكى الذى يتعامل معنا من منطلق براجماتى خالص.

وهذا المنطلق نستطيع أن نجد فيه تلك الازدواجية التى لا تمر دون أن تلفت النظر، ففى حين كانت أمريكا تتظاهر بالتعاطف مع القوس

الإسلامى فى الشرق ضد الإنجليز، فإننا لا نخطئ مواقف لها - وإن تكن خفية - تلحظ خطورة الدور الإسلامى فى النضال ضد الرأسمالية الغربية الصاعدة وأهم رموزها الولايات المتحدة نفسها، خاصة فى النصف الأخير من الأربعينيات، حيث انتهت الحرب العالمية الثانية، وبدأ الدور الأمريكى يمثل الرأسمالية الغربية فى مواجهة الأيديولوجية الماركسية، ومن يرصد للدور الأمريكى فى هذه الفترة قبل منتصف الخمسينيات يلحظ كيف كانت أمريكا تسعى لاحتلال الدور البريطانى فى المنطقة، وتستخدم كل الوسائل من عرض المساعدات الاقتصادية، ومن يتابع محاضر مجلس الوزراء فى الأربعينيات يلحظ قدرًا كبيرًا من سعى الولايات المتحدة الأمريكية للتأثير فى الحكومة المصرية خاصة فى هذا الجانب..

وكما كانت الخارجية الأمريكية تسعى بالاقتصاد كذلك كانت تسعى بالمساعدات الثقافية، خاصة أن أمريكا الرومانسية وأمريكا «الضاحكة» بتعبير مصطفى أمين فى كتاب بهذا العنوان كانت تشير إلى صورة «حالمة» فى الوجدان العربى..

غير أن التمهل أكثر عند هذا الدور يمنحنا وجهًا آخر، غير حالم، وغير ضاحك، لهذه الإمبراطورية التى سعت منذ بدايات القرن لكي «تؤمرك» العالم - وهو تعبير روزفلت فى فترة مبكرة..

إن الدارس المتعمق للدور الأمريكى فى هذه الفترة يرينا أنها كانت تراقب وترصد بدقة التيارات الفكرية والأيديولوجية والسياسية فى المنطقة، خاصة هذا الدور الصاعد للإسلام على يد حسن إلبنا، وتشير عديد من وثائق هذه الفترة إلى اهتمام فاق غيره بالدور الحركى لحسن إلبنا فى هذا الوقت، وبين أيدينا وثائق وقرائن ودلالات تاريخية تشير إلى الدور الخفى، الأمريكى وراء اغتيال حسن البنا..

ونستطيع أن نسرع الخطا لفترة الخمسينات والستينات لنجد تعمق هذا الدور وتحدده أكثر فى علاقاته بالحكومات العربية والإسلامية فى المنطقة.

إن مراجعة الوثائق الكثيرة التى كشف عنها أخيرًا من «المحفوظات القومية وسجلات الإدارة فى الملف الأمريكى» ترينا كيف أن الإدارة الأمريكية سعت لاستقطاب عبد الناصر بأية وسيلةٍ وفى مقدمتها الوسيلة الاقتصادية، بدءًا من مشروع «النقطة الرابعة» مرورًا الى الاستثمارات المالية الأمريكية وصولاً إلى الإنتاج الغذائى وما توازى مع هذه السياسة من المد والجزر فى مواجهة السوفيت فى المنطقة.. وكان لا بد أن تقف الولايات المتحدة إلى جانب إسرائيل للنيل من النظام المصرى المتمرد فى هزيمة 1967 .

ويجب الإسراع فى القول هنا إن الإسلام مثل فى العقدين الأخيرين أكثر الهواجس خطورة فى الأستراتيجية الأمريكية، فالدارس يلاحظ أن الإسلام فى الفترة التى كانت فيها شيوعية قائمة تمثل خطرًا على الرأسمالية كان الإسلام ـ على العكس ـ ينال التأييد والحماس الشديدين من الحكومة الأمريكية، لقد ساند مقالة الاثنين الغرب بالمال والسلاح والخبرة حركات ثورية ترفع راية الإسلام، كما فى افغانستان ايام الحكم الشيوعى واكثر من ذلك ساند الثورة الإيرانية التى كان زعيمها الإمام الخمينى يقودها من باريس على مرأى ومسمع من الولايات المتحدة الأمريكية، التى فضلت ترك حليفها السابق - الشاه - وحيدًا وجيشه البائس أمام تيارات الثورة الإسلامية التى رفعت شعار «الله أكبر»..

لم يمثل الإسلام فى هذا الوقت خطرًا ما؛ لأنه يحارب معركة الغرب ضد السوفيت، أما حين سقط القطب السوفيتى، وأصبح على القطب الجديد أن يهيمن على العالم كان عليه أن يبحث عن عدو آخر وإن يكن متفرقًا وإن يكن لا يمثل خطرًا كبيرًا ليتمثله كذريعة لتحقيق مصالحه.

وهنا عادت المصالح الأمريكية عبر «الاستراتيجي» البراجماتى..

وهنا عادت إستراتيجية الغرب ثانية رغم ما فيها من ثنائية.

وهو ما يحتاج لتوضيح أكثر

(3)

إن الدارس يلاحظ أن هذه الازدواجية موجودة بقوة لدى أى عدو حاول التربص بنا. والعود إلى القرن الماضى ثانية أخرى يرينا تردد هذه الثنائية فى تعامل الغرب معنا.. فموقف الغرب من الإسلام اليوم هو هو موقفه من القومية العربية بالأمس.

إن بريطانيا العظمى فى بداية القرن، وقد كانت تتولى قيادة الغرب فى ذلك الوقت لم تكن لتمانع فى قيام وحدة عربية، ونحن نذكر هنا حركة الشريف حسين.. وتأييد الغرب لها..

الأكثر من هذا أن ساسة بريطانيا العظمى لم يعترضوا فى الأربعينيات على فكرة قيام «الجامعة العربية»، بل إن ساسة بريطانيا العظمى فى هذا الوقت باركوا الفكرة وعملوا على تنفيذها، أو على الأقل لم تعترض عليها بما يشير إلى القبول، حتى تأسست بالفعل جامعة الدول العربية، غير أن بريطانيا العظمى مارست الثنائية بعد سنوات، خاصة بعد أن أممت مصر قناة السويس رافعة فى ذلك راية القومية العربية متبنية مع جاراتها فكرة التكتف العربى فى مواجهة الخطر الغربى الذى جاء فى ذلك الوقت على شكل العدوان الثلاثى، فضلاً عن أن فكرة الوحدة العربية التى كانت أهم دوائر فلسفة الثورة المصرية راحت تهدد البترول إبان أزمات الغرب مع العرب..

لاحظ د. عابد الجابرى (فى ندوة العرب والقرن الجديد عمان 8 -7 نوفمبر) أنه كما اتخذ الغرب من الإسلام حليفا له ضد الشيوعية جعل منه كذلك حليفًا له ضد القومية العربية فدفع حكومات كل من إيران وباكستان وتركيا والعراق آنذاك إلى الانخراط فى حلف بغداد بقيادة بريطانيا، وهو ما يعود بنا ثانية إلى هذه الثنائية أو الازدواجية فى موقف الغرب من الإسلام.

وما يقال عن موقف الغرب متجسدًا فى بريطانيا إبان العدوان الثلاثى،

وما نتج عنه من استخدام سلاح البترول من العرب، يقال عن موقف الغرب متجسدًا فى الولايات المتحدة الأمريكية حين التف العرب حول هزيمة 1967، وقاموا بقطع البترول أيضًا عن الغرب لانحيازه لإسرائيل، والدور الذى لعبته الولايات المتحدة الأمريكية وراء إسرائيل) وهو ما يقال بشكل ما من قيام الثورة الإيرانية واستعادة باسم الإسلام حقها فى امتلاك بترولها).

وفى جميع الحالات مثَّل الخطر، أى خطر، متمثلاً فى القومية العربية أو العقيدة العدو الذى يجب التنبه إليه واتخاذ موقف منه

وهو ما ظهر خاصة فى نهاية القرن العشرين، حين كان لا بد أن تقوم الولايات المتحدة فى أزمة الخليج الثانية للتصدى للخطر الآتى من بغداد، والذى يهدد مصالحها فى بترول الشرق الآن..

وهو ما ظهر بشكل أكثر وضوحًا وشراسة عقب حادث الثلاثاء 11 سبتمبر، فبمجرد أن أحست الولايات المتحدة أن مصالحها تهدد فى الخارج حتى بادرت إلى استخدام مقولة مزيفة، بل وفاسدة، روَّج لها عناصرها من العناصر الموالية لها تحت اسم «صدام الحضارات» وبادرت إلى استخدام الدين فى مواجهة الحضارة، كان الغرب الأمريكى فى نهاية القرن العشرين قد أصبح القطب الواحد بعد سقوط خصمه، ومع تلاشى الدور السوفيتى وانتصار له الخير فى الخليج حتى استبدلت بعناصر (الإستراتيجية عناصر أخرى سابقة)..

وإننا نسمع مصطلحات جديدة ونتعامل مع قيم أمريكية خالصة نابعة من أيديولوجية المصالح قبل أن تتسمى بأيديولوجية الرأسمالية أو الليبرالية الجديدة، أصبحت تحركات الولايات المتحدة الأمريكية تحكمها قيم من مثل: النظام العالمى الجديد والعولمة والاندماج فى السوق العالمية، وبدأنا

نتعرف على نهايات غير مألوفة تخدم الفلسفة الجديدة كنهاية التاريخ ونهاية القومية ونهاية السياسة..

ثم بدأنا نتعرف قسرًا على مصطلحات جديدة من مثل الإرهاب والعدالة المطلقة والحرية، وقبل هذا وبعده «صراع الحضارات» التى تحدد معارك الصدام بين «الحضارة الغربية» المتقدمة فى مواجهة «الاسلام».

لم تضع «حضارة الغرب» فى مواجهة «حضارة الاسلام» وإنما أصبح الغرب بحضارته وتقدمه، ومصالحه خاصة وجها لوجه أمام الإسلام.

الإسلام الذى هو الإرهاب والبربرية.

المثقف العربى.. هل قلت 'المثقف'؟

لا أريد أن أعتذر سلفًا عن صيغة السؤال.. فالمثقف - ليس قبل الغزو الأنجلو أمريكى، وإنما قبل ذلك بكثير - يثير الرثاء إن لم يكن الغضب الشديد.. والمثقف ليس بحثا عن «جلد للذات» - أعوذ بالله - يشير إلى هذا الكائن (هل قلت الكائن؟) الذى لم يستطع أن يكون مشاركًا بالإيجاب فى معارك أوطاننا التى أوشكت أن تتلاشى بعد غياب ثلاثة عواصم إسلامية فى قرابة نصف قرن من الزمان - القدس وكابول وبغداد..

هل أطلت، لا أعتذر عن الإطالة أيضا، فما نراه اليوم يجاوز أى اعتذار أو عتاب أو حتى الحديث المكرر المجتر عن غياب المثقف العربى..

إن المثقف العربى اليوم - بعد سقوط بغداد - نبحث عنه فلا نعثر عليه، لماذا؟ لأنه غير موجود (بالفعل) فى الواقع العربي، موجود فى عديد من البرامج التى تقدم لنا فى المحطات الأرضية أو الفضائية، موجود مثل «جنرالات المقاهى» فى الندوات والمؤتمرات والاحتفاليات وما أكثرها بعضهم بالفعل كانوا عسكريين سابقين، ويتحدثون باسم المثقف، وبعضهم الآخر لا يرتبطون بـ«العسكر» إلا بالتبعية التى لا ترتقى إلى درجة التكافؤ.

أو درجة التكافؤ بين متساويين مع اختلاف درجات ومهام كل عضو فيهم..

ومن هنا، ينتفى التاثير الذى يخرج الى الناس عبر الشاشةالزرقاء، إنها صور ملونة أو رمادية توهمنا بأن الحركة التى تقوم بها تعادل «الفعل» الواعى، ثم إنها أصوات عالية، تعلو فى الهواء، وأصوات الهواء - على تعبير العقاد - تتحول إلى هباء.. أو تهبط إلى أرجاء الكلمة المكتبوبة، وهى تظل - فى الغالب ـ مرتبطة بالمرجعية الحاكمة.. إنه الواقع الذى لايستطيع أن يفلت منه أحد اليوم.

فى حين أن الواقع لا يشير إلى تأثير ما لهؤلاء الذين يبتعدون عن الجنرالات فى القيمة، لكنهم يقتربون منهم فى التأثير أو فلنقل بشكل أكثر وضوحًا فى اللاتأثير.

وهو ما يدفعنا لنعيد النظر فى صورة المثقف أو - بشكل آخر - فى تأثيره عبر مستويين:

- المستوى الأول الوعى بما يحدث حولنا.

- المستوى الآخر بدرجة التبعية للسلطة المركزية فى بلادنا.

المرة الأولى هى بحث عن «خطاب» واع بعيدًا عن الايديولوجيات أو الادعاءات.

والمرة الأخرى قريب من المركزية التى تمنح صاحبها حد «الفعل» لا الفكر المعلق فى الهواء فقط.

وهو ما نحاول أن نتعرف عليه.. وهو - فى جميع الحالات - معروف..

(2)

إن البحث عن دور المثقف طيلة نصف قرن الأخير، لن نعثر عليه بالقدر المطلوب منه لا نستطيع أن نغفل عددًا بسيطًا من اليسار أو الإسلاميين، لكنهم يظلون فى الغالب وراء الأسوار، أو حين يخرجون، ينخرط أغلبهم

فى عداد الموظفين التابعين للسلطة وفى جميع الحالات ينتفى التأثير أو انتفى بالفعل..

أصبحنا أمام هذا المثقف الذى يبدو متمردًا..

لكن الواقع يقول إنه انجرف إلى أنماط عديدة انفرطت، انفرطت حبات السبحة فى العصر الجديد، خاصة مع النكبات المتوالية أو النكبة القائمة فى السلطة «الابوية» أو عصر الانفتاح السعيد.

ونعيد، من جديد، أنماط من هؤلاء المثقفين الذين عرفناهم طيلة السنوات الضبابية فى النصف قرن الأخير.

إننا أمام المثقف المؤيد والمثقف المتردد والمثقف المهادن والمثقف الصامت والمثقف الخبير والمثقف اللاعب والمثقف المهمَّش.. إلى إلخ

والمثقف الإعلامى الذى بدا أكثر وضوحا فى حرب العراق الأخيرة.

المثقف المنتمى لمراكز أبحاث تنتمى - فى أغلبها - لجهات لا ترتبط بنا كثيرًا (ثمة تصنيف دقيق فى كتابنا المثقف العبى والعولمة..).

ثم إن المثقف فى فترة غزو العراق الآن يحتاج إلى إعادة تصنيف وإعادة تعريف، فما عرفناه من أنماط المثقفين من قبل، يحتاج الآن إلى إعادة تصنيف، وإن كانت الكتابات المتوالية للمثقفين والدارسين العراقيين انفسهم فى هذه الفترة تكشف أنماط الكثير من المثقفين العراقيين - على سبيل المثال - فمنهم ممن يعمل خلال نفسه فى المنفى (أما مع العدوان الأمريكى فى المنفى العراقى أو ضده فى صمت حائر خاسر فيما يبدو فى التفكير فى العودة إلى بلادهم ليلعبوا دورًا إيجابيًّا الآن،) فضلاً عما أطلق عليهم البعض الآن بانهم «ادباء الحفيز» أى أولئك الذين كانوا يتعاونون من علماء الدين مع الحكومة البريطانية «انظر على الوردى» فى كتابه لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، حين وصف هؤلاء بأنهم المتعاونون مع الحكومة الجديدة..

وقد أشرنا إلى مثقفى العراق الآن لنوضح كيف أن وعى المثقف العربى الآن اصبح من الغموض بحيث يصعب علينا العثور عليه فى رماد «العنقاء» الذى عثرنا عليه فى هذه الفترة التى تمثلت فيه الأحداث الكبرى وأحدثت ثقوبًا واسعة فى ثوب الوعى العربى..

فمن يقول لنا الآن أين هذا المثقف الذى عرفناه واعيًا راعيًا للقيم الإنسانية، مضحيًا بالكثير من أجل تحقيق ما يراه صوابًا، سواء فى الاعتراض أو فى الراى الصائب..

إنه وعى أصبح غائبًا أو مفقودًا فى البحث عن المثقف.

(3)

هذا هو المثقف الذى اختار أحد الأنماط الكثيرة التى عرفنا فيها المثقف: الذى اختار واعيًا أن يكون داخل «اللعبة» فإذا هو يصبح من أدواتها شاء أو لم يشاء..

ثم إذا بنا أمام هذا المثقف الآخر، الذى اختار - عن وعى شديد - أن يكون تابعًا للمركزية..ولتوضيح ذلك اذكر أننى فى اجتماع المثقفين فى حضور الأمير خالد الذى ترأس «جمعية الفكر العربى» أن رحت أركز سؤالى لراعى المشروع عن علاقة ذلك المشروع بالحكومات العربية، وحين أجاب بأنه لا علاقة البتة، كان لا بد أن أطرح السؤال التالى: وكيف تستطيع جمعية أو جماعة - أيًا كان مثقفوها - أن يفرضوا رأيًا أو وعيًا مؤسسًا على السلطة المركزية فى أى قير.. هل يمكن أن يحدث ؟ تركت المؤتمر وعدت أسال خارجه الآن:

وهل يستطيع أن يترك المثقف العربى ليلعب دوره المطلوب منه بشكل أكثر وعيًا وأكثر إقبالا على السلطة المركزية ليؤثر فيها بالإيجاب..

إن هذا المثقف ينصاع، فيسقط فى شبكة إغراء السلطة، ولا يلبث أن يصبح هو السلطة أو- بشكل أدق - من هذه السلطة..

وبتقادم الزمن يصبح المثقف كالأخطبوط الذى يقع فى شبكاته التى تنتمى إليه من ناحية، وترتبط بالسلطة من ناحية أخرى. وفى الحالتين تكون «اغراء» الموقع أقوى من أى إغراء آخر، فيغيب هذا المثقف تحت نير الإغراء أو تحت خير الإغراء حتى أرذل العمر، ولننظر حولنا لنرى أن عدد مثقفينا ممن اختاروا السلطة المركزية (وهم اللامعون المعروفون) قاربوا من الستين أو تعدوا..

فى إحدى الندوات التى عقدت منذ أيام قلائل - فى بيت الأمة - أسهب د. جابر عصفور فى عدة ملاحظات على هذا المثقف العربى توقف عند إحداها عند مفهوم أسماه (تدوير النخب الثقافية) أسهب فيه - بالحرف الواحد - أن الدول المتخلفة التى لايحدث فيها تدوير للنخب، سرعان ماحدث الضمور للنخب التى تبقى فى اماكنها كما هي بحيث تظل تكرر الرؤى والأفكار على المدى.. الفارق فى نهاية الأمر بين الدول المتقدمة (المنتصرة) والدول المتخلفة (المنهزمة) يعود دائمًا إلى تدوير النخب على جميع المستويات السياسية والثقافية والاجتماعية.. إلخ.

راح أمين عام المجلس الأعلى للثقافة يضرب لنا أمثلة كثيرة للنخب السياسية منها والثقافية (رؤساء الأحزاب كلهم فوق السبعين و..).. ويبدو أنه صار قائمًا أنه كلما ارتفع السن زادت القيمة. الأمر إذن ليس محصورًا فى «الحكومة المركزية» وإنما فى البيئة العربية «البطريركية» المفهوم الذى أشاعه هشام شرابى فى المجتمع العربى.. إلخ.

إنه المثقف الذى لا يمكن أن يترك له - لا يمكن - حرية التعبير الذى يتحول إلى حرية الفعل.. هل كان يستطيع هذا المثقف أن يقوم بهذا الدور فى عصر صدام؟

هل كان يستطيع المثقف - أو يجرؤ - على التصريح بما يريد، أو الإعلان عن نقده - حتى من تحت مظلة النظام - عما يريد؟

لقد أحاط بهذا المثقف - وهو التعبير الذى نعود به ثانية للدكتور جابر عصفور - ضلعى الواقع الردىء: الاستبداد والفساد، فكان من الطبيعى أن يستكمل الضلع الثالث بالخيانة..

أليس هو ما وجده المثقف العربى فى بغداد، ولم يستطع أن يستبدل به واقعًا آخر؟ أليس هذا هو المثقف الذى يضطر أن يكون تابعًا للسلطة المركزية لا نابعًا منها متمردا عليها؟ أليس هو المثقف الذى يظل دائمًا فى خانة التوظيف أو - حتى - التوزير - بعيدًا أن يصل قامته إلى قامة الأمير.. ؟

والآن.. هل هى مصادفة أن نتلفت حولنا الآن، فنجد صياحًا يعلو من كل اتجاه: أين المثقف؟..

والصياح يأتى من قريب كما يأتى من بعيد

والصياح الذى يذكرنا بشبيه له عرفناه إبان نكباتنا وهزائمنا السابقة: 190،82،77،67،1961،1958،1956،1948..2002.

تحثنا اليونسكو على البحث عن «دور الثقافة العربية فى الحفاظ على الهوية: فلسطين نموذجًا» و «اتحاد الكتّاب والمفكرين الأحرار».

ويأتينا صوت من أجهزتنا الثقافية لمناقشة مؤتمرًا أعلن عنه أخيرًا وأقيم (العدوان الأمريكى.. ودور المثقف العربي) وآخر يوشك أن يعلن عنه عن «الواقع الثقافى الراهن بعد احتلال بغداد» وآخر..

إنه صياح الديكة كل فجر جديد، نرى فى أنحائه الدم القانى فى الأرجاء، والضوء الغامض فى الأنحاء أيضًا.. إنه الفجر الكاذب دائمًا عنده..

هل نجد فى هذا المناخ رغبة فى الاعتذار أو التعزير..

المثقف العربى.. وألوان الطيف

منذ أن بدأت فى البحث عن المثقف وأنا ألاحظ أشباحًا بعيدة وقريبة ما زالت ـ برغم هول الفجيعة فى بغداد ـ تتماسك بالأيدى والزجاجات

الفارغة، ويعلو عنها «سيمفونية» عالية الصوت فارغة المعنى، إنه سيل من الاتهامات التى يكيل البعض للآخر، بعد أن تورط البعض «قبل سقوط بغداد وبعده» فى أن يصبحوا فى بلاط الملك أو يعملوا للاقتراب منه..

ويكون الثمن دائمًا غياب مصباح (ديوجين) فى سوق البحث عن الهوية، والجرى وراء الذات فى الزمن العربى الردىء..

إنها ألوان الطيف التى وقعنا فيها جميعًا نحن الذين نطلق على أنفسنا من الكتبة والكتاب لفظة المثقفين..

ألوان الطيف التى توزعت فى أمامية المشهد الدرامى المعاصر حتى بتنا لا نميز بين القاتل والقتيل، الجانى والضحية، ألوان الطيف التى توزعت، حتي، لم تختلط علينا صور الطرف الآخر المضاد لنا من الغربيين، وإنما - وهو أكثر إيلاما - صور أبنائنا وإخوتنا وأبناء عمومتنا (أهلنا) الذين غابت عنهم الرؤية الصحيحة أو غابوا عنها، فإذا بنا لا نرى غير دراما أو فلنقل «ميليودراما» غامضة، تحولت فيها ألوان الطيف إلى لون واحد، هو اللون الأسود القاتم الكابى، فإذا بنا نشهد المعارك بيننا وليس بيننا والآخرين، بل أصبح أولئك الآخرون يعيشون بيننا ويرتدون لباسنا ويتحدثون لغتنا حتى غابت الهوية أو كادت...

انها المعارك الوهمية فى المواقف والألفاظ والمفاهيم البدهية.

(2)

ولا يبذل المراقب أو المتابع جهدًا كبيرًا حتى يلاحظ هذه المعارك التى تدور هنا وهناك، وهي - فى الغالب - ليس بين هذه الفئة التى كانت تقوم بدور المثقف قبل صدام وبعده، وإنما - أيضًا - هذه الفئات التى ما زالت تحسب على القومية أو الأصولية، وفى الغالب على الليبرالية التى ينتمى إليها المحتل الأمريكى..

ولا نريد أن نضرب أمثلة، فالأمثلة كثيرة.

من هذا تلك المعارك المتناثرة الآن والتى نلاحظها فى الصحف العربية، خاصة بين هؤلاء المثقفين الذين كانوا ينتمون ـ بوضوح ـ إلى عراق صدام قبل الغزو، ثم أولئك الذين كانوا شرفاء رفضوا أن يبيعوا ضمائرهم، فبينما رتع الأولون بتعبير الزميل محيى الدين اللاذقانى وباعوا ضمائرهم، فقد كان هناك مثقفون عرب شرفاء أدانوا المخلوع ونظامه منذ أول طلقة فى حرب الخليج الأولى، وظلوا على هذا الموقف إلى آخر صاروخ فى حرب الخليج الثالثة..

إنها معارك ما زالت مستمرة برغم هول ما سيحدث (نتحدث عن المستقبل) فى المنطقة..

وكان ما حدث وما (سـ) يحدث أمرًا لم يعد يعنى أحدًا، وإننا نتجه إلى الماضى بدلاً من أن نتمسك بمعطيات الحاضر وعيوننا على المستقبل..

ومن ذاك أيضًا هذا الشجار الذى دار، منذ فترة، حول وضد المثقف والسياسى الكبير محيى الدين عميمور، حين راح الرجل ـ برغم حزنه ـ حزننا ـ يحاول أن يدخل إلى متاهة مثقفى العرب، ويهتف فى أسى (يا مثقفى العرب اتحدوا) وسط هموم كثيرة وكسيرة للقلب، فإذا بعدد لا بأس به من هؤلاء الذين يعملون فى حقول الإعلام (ولا أقول المثقفين) يهاجمونه بعنف، ونلحظ وسط هذا الهجوم تكسير الكثير من الأفكار التى حسبنا أن عنف الحرب ومهانة الواقع جعلتنا نفكر فيها كثيرًا.

إن عميمور يدعو المثقفين ألا يغرقوا فى ألوان الطيف التى أحاطت بهم، فيتخذوا مواقف صحيحة بعد أكثر من نصف قرن ونحن نتخبط فى سراب بعيد، ووسط هذا كله كان حريصًا أن يدعو العرب، مثقفى العرب أن يتنبهوا للمرحلة الحالية التى نعيشها ولا تتحمل - على حد قوله ـ أن

يتصرف المثقف مثل أسلوب أبي ذر، يفكر وحده ويسير وحده ويموت وحده..

وبعيدًا عن موقف الصحابى الجليل، فإن مثال هذا المثقف يوجد - بالفعل - بيننا الآن. وهو لا يوجد لأنه اضطر ليتخذ هذا الموقف الصامت، وإنما دفع من داخله هو- لا من الخارج - ليتخذ هذا المثقف، فإذا كان الصحابى الجليل وقع فى حيرة اتخاذ موقف محدد (وهو ما ننحاز إليه فى زمانه وظروفه).. فإن مثقفى هذه الأيام دفعه - ولكن من داخله - ليتخذ هذا الموقف..

وهذا الموقف لم يكن لحكمة فيه ينتهى بها إلى هذا الموقف.

وإنما لحكمة اختارها هو بفراسته - ليدافع عن أصحاب النفط فى المشرق أو أصحاب البلاط فى المغرب والوسط..

إنه المثقف الذى اختار أن يكون أبا ذر، ولكن لحسابه هو - شخصيًّا - وليس خوفًا من الله أو دفعًا للباطل الذى قد يصور له أنه الحق، أو للظن الذى قد يغرق فيه المؤمن الصادق مع نفسه الصاعق لما أصابت به أمتنا التى لم تتعلم قط ما يحاك لها فى السر أو فى العلن، بل ما يحاك لها فى العلن هكذا..

وتاريخنا فى الحقبة الأخيرة لا يحتاج منا لقراءة التاريخ، أو لفهم قوانينه، أو العودة إلى هيجل أو توينبى أو - حتى ابن خلدون أو الحصرى - وإنما أصبح الواقع عاريًا لا يحتاج لتأن، وأصبح المعلن أكثر بكثير من المخفي، وأصبحت - إستراتيجية الغرب الأمريكى، على سبيل المثال - معلنة منذ سنوات، و «إستراتيجية العم سام» مكتوبة فى المعاهد السياسية ومكتوبة فى التقارير المنشورة هنا وهناك..

وانتقلت المعارك الوهمية، الورقية إلى ترديد المفاهيم الغامضة، الغريبة، إن ألوان الطيف تحولت من المعارك فيما بيننا إلى المفاهيم التى نرددها فيما بيننا أيضًا..

وفى الحالتين - المعارك أو المفاهيم - أصبحت تصيبنا بشرار ألوان الطيف حتى ليستحيل المشهد أكثر إلى ظلام..

(3)

لقد أصبحنا نردد المصطلحات أو الأفكار التى يرددها الطرف الآخر - المضاد لنا - وكأنها مصطلحاتنا وأفكارنا نحن.. وبرغم وضوح هذه الأفكار، والحديث الطويل عنها من عدد من الكتّاب الواعين من زمن بعيد، فإننا نعود إليها لنرددها كما يرددها كولن باول أو رامسفيلد - دعك من الكتاب والمثقفين الغربيين المرتبطين بالمعاهد الغربية وبوزارات الخارجية فى دول الحلفاء..!!

إننا لا نفتح صحيفة بيضاء، أو نقترب من شاشة زرقاء: إلا ونفاجأ أن الحديث هنا عن الإرهاب، أى إرهاب ـ أتساءل ـ وكأننى أتساءل للمرة الأولى، رغم أننى أتساءل منذ11 سبتمبر 2001..

إن الإرهاب الذى ضرب نيويورك وواشنطن فى هذا اليوم معروف فى ظاهره (وإن كنا يقينًا لا نجزم بالضبط من وراءه.!!.إنه الإرهاب الذى قام بعاصفة مانهاتن، رحنا نصدق المعلنين عنه، والمعانين منه فى مدن العم سام، غير أننا لم نعرف بالضبط ماهية هذا الإرهاب، هل هو - حقيقة - مسمى الأصولية الإسلامية التى يعلن عنها فى صفة ابن لادن وأقرانه ؟ كما يعلن كل يوم، ثم أى إرهاب هذا الذى يبيح لمن يعانى منه أن يستخدم كل الأساليب بما فيها، بل فى مقدمتها القوى المنفرطة - لذبح شعوب ليست لها أية علاقة بما حدث..

هل تعانى الشعوب من هذه «المجازر» غير المسبوقة فى التاريخ، بسبب (الإرهاب) الذى لا نعرف عنه شيئًا، أى شىء، بل لنقل إنها عانت منه أكثر مما عانى غيرها، إذا كان بحق قد نبع منها..

واللافت للنظر، أو الذى أصبح واقعًا لا يأتيه الريب من ورائه ومن خلفه من كثرة تكراره، أنه لا يحدث انفجار الآن فى العالم الشرقى أو الغربى إلا ونسمى أصحابه إرهابيين، ونروح نحذر (أو ننقل) الخوف من نشاط مقاتلى (طالبان) وعناصر (القاعدة) وكأن ما يحدث، يحدث لأن الأصولية الإسلامية التى حددت ملامحها فى تسعينيات هنتنجتون وبرنارد لويس وفوكوياما ونيبول.. وغيرهم فى التسعينيات هى الآن تهدد العالم الغربى المتقدم هناك، أو تابعيه فى العالم الشرقى هنا..

هذا ما قيل أخيرًا لتفسير ما حدث فى الرياض.

وهذا ما قيل أيضًا لتفسير ما حدث فى الدار البيضاء.

وهذا ما قيل أيضًا لتفسير ما حدث فى اليمن.. وغيرها..

غير أن الأدهى والأكثر حيرة الآن، أن نرى معركة وهمية تدور تحت اسم «خريطة الطريق»، فلا نجد خريطة ولا نجد طريقًا، وإنما هو «الإرهاب» الذى يطلق على الجماعات الفلسطينية التى يضيق بها الطريق فلا تجد - أمام الإبادة اليومية والقتل والدمار اليومى - غير تنفيذ عملية هنا أو هناك، وقد تركهم العالم وكأنه لا علاقة بها (دعك من العرب أقرانهم وأهلهم)..

إن المقاومة ضد المحتل الغازى لأرض أهلنا فى فلسطين ما زالت يطلق عليها كلمة «ارهاب»، هل المقاومة هى الإرهاب؟! ويطلق اللفظ من الغرب بوضوح شديد ويردده عدد كبير من المثقفين ببرود شديد، لقد سمعت باول فى الفترة الأخيرة يؤكد لمحدثه أن الحصار الإسرائيلى وتبعاته المفروض على أهلنا فى فلسطين إنما بسبب الإرهاب (هكذا)، لقد أصبحت الألفاظ من تكرارها قد محت الألفاظ القديمة أو الألفاظ الحقيقية لتحل محلها، لنتمهل عند ما قاله وزير الخارجية الأمريكى الذى قال بالحرف الواحد «إن الحصار مفروض هنا بسبب الأعمال الإرهابية التى تأتى من تلك المناطق، ولذا فإن ما يجب علينا فعله هو إنهاء هذا الإرهاب. وعندما

ينتهى الإرهاب ويكون بوسعنا أن نحمّل الإسرائيليين على الاعتراف بذلك، حينئذ لن يكون لديهم أى سبب لفعل مثل تلك الأشياء» (أهرام 14 مايو) - لا ينتهى كلام باول ولا ينتهى ما يثيره من جديد من إعادة النظر بأسى وحزن شديدين إلى تغيير الألفاظ التى تطلق من الآخر لتصل إلينا فنعيد صكها (لإعادة إنتاجها) كما هي، وكما تصك هناك لنرددها هنا، وكأن المثقف لا يعرف الفارق البدهى بين المقاومة والإرهاب، وكأننا لا نعرف أن الواجب الطبيعى، بل رد الفعل اليائس أمام كل هذا (العنت) اليهودى، إنما هو المقاومة بما يقوم به المقاومون للظلم وليس «الانتحاريين»، كما يطلق عليهم باول وشارون وأضرابهما، ثم نجيء نحن لنعيد إطلاق مثل هذه التسميات على ما يحدث لنا وحولنا دون أن يطرف لنا جفن..

نحن المثقفين العرب الذين نعيش فى نصف القرن الأخير، والذى نعرف ونشهد الكثير مما جرى، ومما سيجرى..

نحن المثقفين العرب الغارقين فى «ميديا» الغرب وغبن الشرق... وألوان الطيف.

خيانة المثقفين.. وشهادة

إنها الحيرة التى تضعنى دائمًا فى مربع الشهادة بعد تأمل طويل.. وأكثر ما حيرنى فى الفترة الأخيرة العبارة التى تطلق الآن كثيرًا على المثقفين، وتصفهم، بالخيانة، وبرغم أننى على المستوى الشخصى عرضت لهذه القضية كثيرًا، بل أكاد أجزم أنها تمثل مساحة شاسعة من «مشروعى الشخصى»، أقصد طبيعة العلاقة بين المثقف والسلطة، ومن ثم، موقف المثقف.

ورغم أننى كنت أكثر أبناء جيلى عنفًا ضد المواقف السلبية للمثقفين، فإننى فى الفترة الأخيرة أصاب بـ «حالة» مراجعة حادة للمثقفين.

لا أقصد من هذه المقدمة تبرير مواقفهم، أو البحث عن تبرير لما يمكن

أن يسمى بـ «خيانة المثقفين»، وهو مفهوم ردده أكثر من مثقف غربى، ووصل فى الأدبيات المعاصرة إلى استبداله به مفهومًا آخر هـو «موقـف المثقف».. إنما قصدت إعادة النظر لفهم دور المثقف فى ضوء الواقع الذى يحياه والمناخ الذى وجد نفسه فيه، خاصة إذا كان هذا المثقف يتمى إلى الطبقة المتوسطة التى تتطلع بتكوينها إلى «الحراك الاجتماعى» إلى أعلى، ومن ثم تتوافر لديه فرص كثيرة انعدمت فيها فى الفترة الأخيرة - للتغييرات الحادة على مستوى العالم خاصة، وعلى مستوى وطننا العربى على وجه أخص - انعدمت فيها فرص الخلاص ووسائل الجهاد بالشكل الذى كان سائدًا من نصف قرن أو أقل بكثير..

وأذكر أننى فى أطروحتى الأولى عن علاقة طه حسين والسياسة أن رحت ألوم طه حسين بشكل عنيف، خاصة فى الأربعينيات فما فوق، حتى إننى بعد أن أنهيت أطروحة الماجستير، حيث كنت أنشر هذا الكتاب وما لبثت أن نشرت بعده كتابًا آخر أسميته - وللاسم هنا دلالة كبيرة «صعود المثقف وسقوطه - طه حسين وثورة يوليو»، وما لبثت فى أطروحتى الثانية لنيل الدكتوراه أن جاوزت الرصد الرأسى للمثقف - طه حسين وحده - إلى الرصد الأفقى له - كل المثقفين بين عامى 1945و1968 مارًّا من العصر الليبرالى إلى العصر الناصرى إلى آخر وزارة شكلها جمال عبد الناصر بعد رحيله..

وأذكر أننى أثناء المناقشة - وقد كان د. صلاح العقاد مشرفًا - رحمه الله - ظل أحمد بهاء الدين وقد كان مناقشًا للرسالة - يلومنى كثيرًا على هذا اللوم الشديد للمثقفين الذين تنازلوا عن الكثير، وهادنوا بعد تمرد..

وأذكر أن غضب بهاء الدين لم يقل عن غضبى فى أثناء المناقشة، وإن لم يتجاوز هذه المناقشة حد الحوار العقلانى الهادئ مع أستاذ كبير مثل بهاء الدين.

وأذكر أننى فى الفترة التى كنت على وشك الانتهاء فيها من هذه الدراسة أن جلست إلى حسن يوسف (رئيس الديوان الملكى بالنيابة).. وبعد حوار طويل عن المثقفين راح يهدئ من ثورة الغضب لدىَّ - وقد كنت ما زال أعيش فترة تمرد الشباب وغضب الباحث العاصف.. وراح فى الوقت نفسه يبرر العديد من مواقف المثقفين المهادنين بأسباب كثيرة لعل من بينها الوصول إلى سن متأخرة لدى هذا المثقف أو ذاك، ومن ثم كان الحرص - فى نهاية العمر - على ما يعينه على حياة هادئة لا تتوافر فيها - كما كان الحال - سلاح المثقف الشاب ومهادنة السلطة الليبرالية.. إلخ.

(2)

أثار هذا كله فى هذا الحوار الذى قرأته أخيرًا فى «العربي» الناصرية 22 سبتمبر 2002، وراح فيه عالم جليل أحترمه عن بعد هو د. عبد الباسط عبد المعطى- فلم يسبق أن تشرفت باللقاء معه.. راح يتحدث عن المثقف بشكل أشعل فى أكثر جذوة الحيرة التى كنت اعيشها فى السنوات الاخيرة.

من ذلك أن د. عبد الباسط راح يعرض للمثقفين بأكثر من أسلوب..

إنه مثلاً يقول هذه العبارة «فى الماضى كانوا يتهمون الناصرية، بأهل الثقة وأهل الخبرة بل بالمحسوبية والعلاقات الخاصة التى أخذت شكل المصاهرة والاحتفالات.. اليوم لا توجد آليات واضحة بل تنكشف قضايا الفساد لأسباب أخرى»

ما معنى ذلك، معناه أنه برغم ما كان يحسب على ثورة يوليو من تفضيل ولاء على ولاء (رغم أن عبد الناصر اختار عددًا من الفنيين)، فإن الأمر لم يصل - كما نراه اليوم ـ إلى هذا الحد من المسخ الذى يطلق على المثقف، والذى يذهب بنفسه لينتمى لهذه الجهة أو تلك، ويحارب بسيفها ويأكل خبزها، وكأنه لا جهة أخرى غيرها أجدى أو أكثر أهمية، وفى هذا الخضم،

تناسى المثقف القيم التى من أجلها كان من قبل يعترض أو القيم التى جاء من أجلها إلى هذا الكون (قال فولتير مثلا: جئت إلى هذا العالم لكى أعترض).

وبهذا، لن نعدم الآن مثقفين ليس لهم ولاء إلا لمصالحهم الخاصة، وبالتالى، فهم ينتمون لجهات سياسية ليس لها ولاء إلا لمصالحها الخاصة، وعلى هذا النحو، فإن تقابل الولاءين - ولاء النظام وولاء المثقف - أكثر محددًا بدرجة المصلحة الذاتية أو فلنقل بشكل أكثر صراحة بشكل من أشكال الانتهازية المبتذلة..

إذن، فهى الانتهازية لدى المثقف التى تركت لنا إما مسخًا مهادنًا وإما مسخًا تابعًا لشلة تقوم فيها المصالح بدور المبادئ والفعل الإيجابى، وإما مسخًا يظهر بمظهر الفارس المعارض حتى إذا ما اقتربت منه، وراقبته لبرهة، حتى تكتشف أنه يمتطى فرسًا دون كيشوت للتعمية، وهو واع تمامًا لما يراد به، وهو واعٍ أكثر لما يريد.

كما لا نعدم هنا هذا المثقف الذى لا يقع تحت عجلات نظام بعينه، وإنما ينتمى إلى حزب معارض أو فى هيئة تشريعية أو تنفيذيه اختار فيها أن يكون مستقلاً، أى يلعب دوره ديمقراطيًّا، إن كل هذه الأنماط لا نعدمها إذن فى مثقف اليوم، خاصة هذا المثقف المستقل، وهو الذى يلاحظ هنا أستاذ علم الاجتماع موقفه فيصوب اللوم إليه «أنا أرفض لوم المواطن العادى البسيط، بل أصوب اللوم إلى.. وكذلك المثقفون حتى المستقلون لا يتفاعلون.. ماذا فعلوا؟»

ونترك السؤال لنعود إلى هذا المثقف الذى يتهم بالخيانة، فندافع عنه - ونحن نعلم فى قرارة أنفسنا - أنه لا يستحق دفاعًا.. فندافع عنه قائلين: وهل يستطيع هذا المثقف، فى ظل مناخ له مثقفوه ومصالحهم ومصالحه - أى النظام والمثقف - أن يقوم بأى فعل معارض.. ؟

إنه إذن يقوم بفعل معارض لمصالحه الخاصة وإذا تجاوزنا المصالح الخاصة ووصفناها بالانتهازية، فإننا إزاء سؤال آخر يفرض نفسه علينا هنا.

هل - وهذا هو السؤال - إذا قام المثقف المستقل - دعك من المتمرد - بأى فعل معارض أو ناقد للنظام يستطيع بعدها أن يقف فى صف هذا النظام، او يصبح ممن يمتلكون جزءًا من القرار السياسى أو جزءًا من السلطة (التى هى مركزية فى مصر) ويستطيع أن يحمى أفكاره - وليس نفسه ؟!

إن الصورة الأخيرة لهذا المثقف أنه سيدفع به بالعنف أو بالهدوء إلى الهامش وفى هذه الحالة الأخيرة، لن يستطيع أن يفعل أى شىء..

أى شيء لشخصه أو للجماهير..

إنه فى الهامش.

بعيدًا عن المركز، وبعيدًا عن أقطابها البعيدة، إنه دفع به دفعًا إلى خارج الدائرة، إلى مربع الصمت..

وهل يستطيع بعد ذلك أن يحول المربع إلى دائرة؟

هذا سؤال يظل معلقًا أيضًا..

غير أن تعليقه يظل درسًا بليغًا للمثقف الذى يحاول أن يلعب دوره.

ولن يلعب هذا الدور الآن أبدًا، فقد تمت الإزاحة به خارج الدائرة.

بل إن ربع القرن الأخير أكد لنا أنه تم تهميشه بالفعل.

لم يعد المثقف داخل الدائرة أو قريبًا من المركز بعد..

إن عصر «العولمة» وتطبيقاته الشائعة فى المجتمع العربى لم تضع للمثقف مساحة قريبا من النظام، لم تترك له أى حيز ليقوم بدوره المطلوب منه فى أخطر فترات تاريخنا.

لم يعد المثقف - المتمرد أو المعارض - من بين أبناء الفئات الحاكمة.

ولأن المثقف ينتمى إلى فئة وليس طبقة، فقد ظل خارج دائرة التأثير فى هذا العصر الذى عسكرت فيه عاصفة مانهاتن الكثير من المصالح والحدود والمساحات والقيم..

وكان من بين من تم تطبيق «استراتيجية» العم سام أى معارض للنظام العالمى الجديد.

لقد تغيرت المعادلة فى النصف الأول من القرن العشرين عنها فى الفترة الناصرية فى الخمسينيات والستينيات من هذا القرن الماضى، لنرى معادلة أخرى وتحالفًا جديدًا يقبض على خيوط القوة فى العالم اليوم.

وهنا نلتقى مع رأى عالم الاجتماع أخيرًا، حين يقول بوضوح شديد طبيعة التحالف القائم حاليًّا هو كبار البيروقراطيين والصفوة السياسية وكبار رجال الأعمال، هل غادر أحد منهم دائرة المركزية الحاكمة إلى مربع التمرد الأجوف؟

هل ينتمى أحد منهم الى فئة المثقفين الفرسان السابقين فى ملاحم المعارضة؟

الإجابات كلها معروفة وقائمة، لكن يظل السؤال الذى يحيرنى ما زال هو:

هل حقًّا المثقف خائن؟

وإذا كان ذلك كذلك: فهل يمكن تبريره؟

وإذا كان يبرر: هل يمكن قبوله؟

وإذا كان فلنصمت ولنفكر بعيدًا عن دائرة التحالفات القائمة..

قبل أن نصل إلى المربع الأول.

دوت - نت.

والمثقف العربى!!

تكنو - مثقف..

هذا التعبير أو المصطلح سمعناه من د. نبيل على فى نهاية محاضرته التى ألقاها أخيرًا بندوة الثقافة والعلوم بدبى..

وكان قد أسهب فيه طويلاً فى كتابه الملحوظ «الثقافة العربية وعصر المعلومات» فالمثقف هنا يختلف عن المثقف هناك.

نقصد أن المثقف الآن فى بداية الألفية الثالثة، حيث يعيش العالم المتقدم حولنا، غير المثقف الذى ما زال يعيش فى العالم العثمانى ونعرفه جيدًا بيننا.. والمثقف فى عالمنا العربى هنا والآن ليس هو - بالطبع - المثقف الآخر فى العالم الغربى هناك..

إنه المصطلح الذى نحاول أن نعرف به المثقف العربى الواعى بمعطيات عصرنا.

فهذا المصطلح لا يشير إلى مثقف - تكنوقراط لا بد من وجوده فى حياتنا التكنولوجية الجديدة، وإنما هو مثقف يعى ما يدور حوله، ليس فى المنطقة العربية وحسب، وإنما انطلاقًا من مركز الوطن العربى امتدادًا إلى الأقطاب البعيدة فى الشبكة المعلوماتية العالمية ليتثنى له أن يرى جيدًا حالنا نحن (نحن) العرب فى عالم لم يعد ليعترف بغير الشبكة العالمية (الإنترنت)، التى تحقق له مصالحه (ولدينا أقليميات ووحدات كثيرة تسعى إلى ذلك).

غير أن هذا المثقف الجديد، أو «التكنو مثقف» هو ما نفتقده فى هذا العالم.

المثقف وعالم الويب (الشبكة العالمية) ليسا حاضرين فى حياتنا.

فنحن ما زلنا أمام المثقف التقليدى، والشبكة العالمية فى آن..

وينقصنا- بالقطع ـ المثقف الجديد والشبكة العربية العالمية.

فأين الشبكة العربية فى عالم نفتقد فيه مثل هذا المثقف ووعيه.

(2)

نقول هذا كله وقد يئسنا أو كدنا نيأس من الوحدة الاقتصادية بين أقطارنا العربية - دعك من الوحدة السياسية -، ولم يتبق أمامنا غير الوحدة الثقافية.

ولأن التكنولوجيا المعاصرة تصنع أو تعيد صناعة الثقافات والعادات والحضارات من جديد، فإن المثقف الأحرى بأن يكون بيننا الآن هو أقرب إلى الوعى بمعطيات عصرنا..

المثقف التقليدى يعيش وهو يرى شبكات المعلومات المحلية قاصرة ضعيفة فى هذا العالم.

تستقبل ولا تصدر.

تستهلك ولا تصنع أو تبلور.

نرى الشبكات المحلية ضعيفة أو متردية فى حين نحن فى أمس الحاجة إلى شبكات للمعلومات الخاصة بالدول العربية وليس بقطر بمفرده.

وبالثقافة العربية الواحدة.

وليس بالثقافات والعادات المتناثرة فى أنثروبولوجيات متباينة وأنماط متفرقة تنقل لنا عبر «الوعى الزائف».

نرى القوانين والتشريعات التقنية متغايرة بين كل بلد وآخر، فى حين أن الأقرب للفهم فى عصر شرس كعصرنا أن نقيم شبكة إليكترونية فى حضور الوحدة التشريعية وفهم آليات الملكية الفكرية أو القانونية، وليس فى غيبة الوعى بالعولمة العسكرية الجديدة عقب انفجار سبتمبر وتداعياته. المثقف العربى الآن يجب أن يكون واعيًا لتغييرات هذا العصر، حيث نقف فى مؤخرة الدول التى تحاول أن تعيش فى هذا الفضاء الغربى الحديث.

نحن فى حاجة لهذا المثقف الجديد أو «التكنو - مثقف» الذى يعى تحت غياب الوحدة الثقافية والسياسية أنه لا مخرج للأمة العربية بغير الثقافة.

ولا غير للفرار بالثقافة العربية بغير الوعى لآليات إعادة صياغتها ولا طريقة لإعادة صياغتها إلا بالسعى إلى ربط شبكات المعلومات بين أقطارنا العربية فى المنطقة العربية، وبعيدا عن أى مشاريع صهيونية أو غربية أنه المثقف العربى الجديد: الغائب.

وهذه القطرية الخالصة نجدها تتكرر وتتعمق فى كل قطر، وكان كل مشروع يقام فى كل قطر ليس له أية علاقة بالقطر الآخر..

ونظرة عامة إلى المشروعات الوطنية تؤكد لنا هذا الواقع.

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

هذا الكتاب

لم يكن أمامى وأنا أراجع هذه السطور غير أن أشير – أو حتى أتمهل – عند الكثير من مظاهر الواقع المرير، بين المصطلحات والأسماء التى عشنا فيها طويلاً من نهايات القرن العشرين إلى بدايات القرن الحادى والعشرين.

كان لا بد من التمهل عند العشرات والمئات من الأسماء الدالة، من "الجامعة العربية"، إلى "الفكرة العربية"، إلى "القومية العربية"، إلى المتنبى الذى راح يلتفت بعنف فى الذاكرة إبان سقوط بغداد، وعلاقة الديمقراطية بالأمن العربى قبل ١١ من سبتمبر، وبعدها دراما مانهاتن، مرورًا بالعديد من صور المقاومة التى لن تغيب أبدًا عن العقل العربى.

ومن خلال ذلك، أردت تأكيد أن الوصول إلى المستقبل كان مرهونًا بالمرور على تخوم الماضى وأهواء الحاضر وغيابات المثقفين؛ فالخروج من مساحات العروبة إلى فضاءات الحضارة الإسلامية يظل هو الشرط الوحيد للخروج من أسر الحاضر والماضى إلى آفاق المستقبل والعمل له فى آن واحد.

إنه الخروج من العروبة المصمتة إلى نور الحضارة الإسلامية البعيد.. وهو ما اجتهدنا للوصول إليه هنا فى هذا الكتاب.

د. مصطفى عبد الغنى




Exclusive
For
www.ibtesama.com